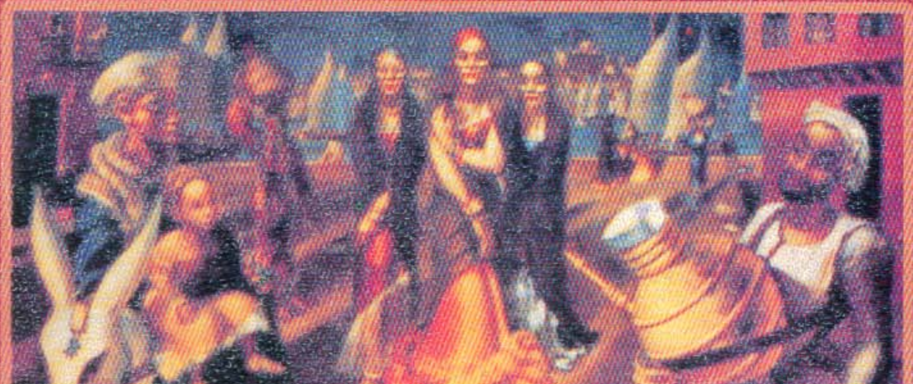
بغلة العرش

خيرى شلبى



لوحة للفنان : محمود سعيد

الهيئة المصرية العامة للكتاب

بغلة العرش

خيرى شلبى

إشارة

لهذه الرواية قصة عجيبة . ففى عام ١٩٦٣ تيقظت فى وجدانى أسطورة (بغلة العرش) التى كثيرا ما كانت أمى تحكيها لى فى الليل كلما سألتها : لماذا نحن فقراء مع أننا من أصل عريق ؟ ولماذا بعض الناس أثرياء مع أنهم من أصل وضيع ؟ وكانت هذه الأسطورة تفتن خيالى الطفل ، وظلت تفتنه وأنا كبير ، فإذا بى أكتبها على شكل قصة قصيرة بعنوان (ليالى مائشة) كانت ذات طابع شعرى خالص ، حتى السياق كان موزونا على تفعيلة دون أن أقصد ذلك . نشرت القصة فى مجلة خاملة اسمها صوت العروبة ، ثم أعدت نشرها مع ثلاث قصص من جنسيتها موزونة أيضا ، ملحقة برواية (السنيورة) ، كنوع من التسجيل لمرحلة فنية مررت بها وأفادتنى بشكل ما .

على أننى فى أواسط السبعينيات فوجئت بالأسطورة تغزو وجدانى من جديد بإلحاح قوى وقد تجسدت فى عالم من الأحداث والشخصيات الواقعية ، ووجدتنى أكتبها فى مسرحية طويلة من قسمين ، سلمتها لصديقى المخرج إميل جرجس ليخرجها لمسارح الثقافة الجماهيرية . وحينما شرع فى التنفيذ استوقفته لأن أحد أصدقائى من مؤلفى المسرح قرأ المخطوطة وأشار ببعض تعديلات جوهرية تعطيها قوة ، فركنت المسرحية منتويا بالعودة إليها بعد حين لتعديلها . لكننى نسيتها تماما . وفى أول التسعينيات فوجئت بالأسطورة تنتعش بقوة أشد ، أنعشها مناخ الفساد وانتشار الثروات الفاحشة والفقر المدقع معا . فلما شرعت أقلبها تبينت أنها ذات طبيعة روائية صرفة ، أو هكذا خيل لى بحكم تمرسى بفن الرواية سنوات طويلة فأصبحت أفكر بشكل روائى . حاولت نسيانها والانصراف الى مشاريع معدة سلفا ومستوية ، لكنها كانت أقوى من النسيان ، طغت على كل المشاريع ، فما كدت أمسك بالقلم حتى تدفقت ، لتجيء على هذا النحو ، ويخيل لى أنها كتبت نفسها بنفسها . فإذا كنت قد وفقت فالفضل يرجع لقوة الأسطورة وتجذرها فى الواقع المصرى .

«خ . ش»

إهداء

إلي أول حفيد لي : أحمد أشرف رضوان ، ابن ابنتي ريم ، لعله يعرف مستقبلا لماذا كان جده فقير الحال ، وكيف - رغم فقره - عاش مرفوع الجبين طول عمره .

«خ . ش»

الهزيع الأول

وعد ومكتوب

الناس مقامات

فى ليلة القدر من كل عام – كهذه الليلة – تتحول بلدتنا إلى سرادق كبير غير مرئى، لكنه ربما كان أقوى وأمتن من ذلك الذى يتم نصب عمدانه فى الأرض على أى مساحة؛ إذ إنه سرادق يضرب أوتاده فى جميع الأفئدة منذ البكور ؛ فما أن يبدأ المساء حتى يبدو وكأن أهل البلدة – حتى المعتكفين فى دورهم ينتظرون الوعد الأمين – يجلسون فى مكان واحد ، متجاورين متصلين ؛ إذا همس أحدهم بلفظ جاوبه أخر من الدار المجاورة أو حتى من أخر البلد. حبال الإتصال ممتدة مجدولة من المشاعر المتشابهة المتضاربة فى آن. وإذا كان الجالس فى أى صوان منصوب يغفل أحيانا عما يفعله الجالس لصقه؛ فإن مايفعله أحد فى داره فى هذا السرادق غير المنصوب يراه في الحال من هو جالس فى قاعته فى الطرف الآخر من البلد !.. ربما لأن الجميع

ليلتئذ عجينة واحدة من همٍّ واحد فى انتظار وعد واحد تكتنفه مشاعر واحدة لآدمى واحد لكنه منسوخ أو ممسوخ فى صور متعددة تلبد الآن فى أحواش الدور تحت عباءة السماء الفضية، أو على النواصى ومداخل السكك، أو ساهرة فى الأجران أو على مصاطب الدور أو أمام تعريشات مص القصب.

على أنهم سواء كانوا متجمعين أو متفرقين فإن عين الواحد منهم لا تغفل عن الآخر؛ بل إن العيون تتلصص على الغائبين بنوع خاص؛ سيّما والغائبون عن التجمعات فى هذه الليلة هم الأغلبية؛ إذ إن كل واحد منهم يتوقع أنه الموعود بالخير ومن ثم فعليه أن ينتظره وحده بمفرده؛ إعتقاداً منه أن الخير القادم ينفر – لابد – من وجود «الآخر» غير الموعود ؛ إذ هى عملية سرية تحدث بين العبد وربه دون مقدمات. أما الذين يتجمعون فهم أولئك الذين يعرفون فى أعماقهم أنهم نحس وليسوا وجوه خير. ومع ذلك فالأمل يداعب قلوب الجميع حتى الأشرار منهم.

وإذا كانت الأعياد فى بلدتنا لا يحفل بها سوى الأطفال فإن ليلة القدر هذه يحفل بها الجميع كبارا وصغاراً ، حتى كلاب البلدة يعتريها هدوء وأريحية غريبين، فلا هو هوة ولا حمحمة ولا شقاوة ، ربض معظمها فى الطرقات مريحا رأسه على قائمتيه الأماميتين الممدودتين– أما الفراخ فتمسك عن القأقأة

والضجيج عند تبييتها فتمتثل للمخدع لا تفزع واحدة ولا تهرب أخرى؛ ولا يضيع ديك أو ذكر بط. يخيم السلام على مراحات الأغنام فتخلد إلى نوم عميق . كل الخلافات بين الناس تؤجل أو تصادر، يستذوق الجميع، فلا مطالبة بدين، ولا عتاب على فعل أو قول، ولا رادّ لمطلب أو سلفة، ولا توقف أمام إهانة أو شتمة عابرة. سامحك الله منتشرة على كل الألسن. كل واحد يتوقع أن هذه الليلة ليلته التى سيثري فيها ثراءاً فاحشا بأمر إلهى ، سينتقل من جحيم الفقر إلى جنة عرضها عرض السموات والأرض، فخير له إذن أن يبدأ من الآن فى اتقاء شر الجميع. بأن يسترضى الجميع، أن يسكب من لسانه قطرات العسل، تطول به نوبات الكرم إلى حد يوشك على التهور. فتحول البلدة بقدرة قادر إلى سبيكة من الدفء الإنسانى، يصير ملمس الناس كالقطيفة.

هم جميعا - مع ذلك - يعرفون أن هذا الصفاء النورانى العبقرى عمره ساعات قليلة، سرعان مايرتد بعدها كل شئ إلى ماكان عليه، يبدأ الصباح كالعادة بالتناحر والعراك والتشاحن لأتفه الأسباب. بل إن هذه الليلة الجميلة لابد أن يعقبها فوران الغضب فى كثير من الصدور، وتصل نار الحنق والسخط إلى ذروة أوارها : ألسنة حداد كالمبارد تقطع فى لحم ناس؛ أخيلة

مريضة تخوض فى أعراض ناس؛ تولد بدايات لسير حياة سوف تنشأ فى الأيام القليلة القادمة ؛ تنبت براعم ستتحول إلى نجوم فى سماء البلدة، يصاب ناس بالإحباط، ينقهر ناس، يسقط ناس فى بئر الخطيئة عن عمد كأنما انتقاماً من عدو مجهول أو ربما احتجاجا على السماء، يعاد النظر فى كثير من الأشياء، رذائل تتحول إلى فضائل ، وفضائل تقوى فى النفوس بسرعة فائقة، ينفضح ناس، الفضيحة سرعان ماتكتسح فى طريقها الأبرياء والمظلومين، يعم الشك بصورة وبائية ، حتى ليخشى الواحد منهم أن يصرف قرشا أمام أحد وإلا جوبه بنوع من الإتهام المستتر. لكل هذا فالبلدة يشملها هدوء وترقب شديدين، فيما تغلى الصدور تحت نار من الأعصاب المتوترة المشتعلة بالإنتظار؛ فإما السماء راضية عن الواحد منهم، وإما لفظته. ذلك أن مجئ بغلة العرش إلى واحد منهم إنما هى ضربة حظ عبقرية إلهية ليس من السهل تكرارها فى أزمنة متقاربة بين جيلين أو ثلاثة أجيال.

الخطير فى الأمر أن مجرد وجودها حتى كخبر يتناقله الناس باهتمام، يعتبر فرصة لا تعوض أمام اللصوص الذين سرقوا من قبل أموالا وادخروها. فها هنا يستطيعون إبرازها بعين قوية لأن العين العامة لن تسألهم : من أين لكم هذا؛ حيث

تكفلت هذه الشائعة بالرد نيابة عنهم بأن بغلة العرش قد جاءتهم من السماء تحمل خُرجا مليئا بالذهب كهبة سماوية لا أحد يملك حق الإعتراض عليها أو المطالبة بمبرر لقدومها.

ورغم أن الجميع يوقنون من هذا يقيناً تاماً ، فإنهم مع ذلك لا يستطيعون السيطرة على غضبهم وانفلات سخطهم بل وكُفر بعضهم أحياناً؛ خاصة أولئك الذين يتظاهرون بالعبادة عن ورع متقن لا يتركون الفرض يأتي على أخيه، ولا يدعون نافلة أو سنة أو أمراً مستحبا لدى الأئمة الأربعة إلا نفذوه بفيض من الأريحيه حتى لتبدو علامات الصلاة على جباههم كالريالات المغشوشة من معدن الرصاص سرعان مايعلوها الصدأ الأسود؛ كما أن المسابح الطويلة المزينة بفصوص حمراء تتدلى من أياديهم ليل نهار؛ ولقب الحاج لصيق بهم .. هؤلاء بالذات يسوؤهم مجئ البغلة لناس لم يركعوها فى حياتهم، ولم يكن لهم فى ذاكرة البلدة أى رصيد من العبادة أو حتى السلوك الحسن. فلا يملك الممعنون فى العبادة حين يبلغهم النبأ – سيما وانهم أول من يتشمم الخبر باعتبارهم أول من يبادر بالإنتظار والتوقع – إلا أن يصفق الواحد منهم كفا على كفٍ فى ذهول حقيقى :

– «سبحان الله ! لله فى خلقه شئون ! جلت حكمته ! تعالت

إرادته وتقدست مشيئته ! يُحيى العظام وهى رميم ! سبحان مغير الأحوال !»..

إلا أن هذه العبارات التى تبدو فى ظاهر معناها كأنها امتثال لارادة الله عز وجل، وتسليم بالأمر الواقع لمشيئته جل وعلا ؛ فإن من السهل على أى مستمع غشيم أن يدرك ماوراءها من عصبية محمومة تنطوى على مايشبه الإحتجاج وربما الإعتراض ؛ يكاد لسان حالهم يقول : إشمعنى أنا ؟! كيف يكون فلان الفلانى هذا مفضلا عند الله اكثر منى وهو لا يفعل ماأفعل من واجبات. عشرات الكيفات واللماذات تتدفق فى تيار العصبية المفرطة المتسربلة بعبارات الإمتثال والإتعاظ ..

أولئك هم مصدر الفرجة الحقيقية لمن يريد التندر والضحك فى اليوم التالى لليلة القدر والأيام التى تليه. معظمهم يضطرب بشكل مثير للضحك فعلا يبدو اهتزاز إيمانهم واضحا لكل ذى عينين ؛ مع ذلك هم يمعنون فى التمسك بمظاهر الإيمان. قليلون منهم يقل ظهورهم فى صلاة العصر والمغرب والعشاء والفجر بل والجمعة بشكل ملحوظ. الأقل فالأقل ينسون المسابح فى جيوبهم. يستمر هذا لبضع شهور. سرعان مايعود كل شئ إلى سابق عهده فينخرط المؤمنون الحقيقيون فى أداء فروضهم؛ ينافسهم المتظاهرون بالورع. شيئا فشيئا يدرك

الجميع أن باب السماء لا يمكن أن يغلق للأبد فى وجه العباد، وأن الله قرين العدالة، والحياة يوم لك ويوم عليك، هى معك اليوم وغدا مع غيرك ، النعمة لا تدوم والجاه غير مخلد فالفقر إذن غير سرمدى ، هذا شأن الدنيا فكل يوم هو فى شأن، ولو دامت لغيرك ماآلت إليك، فليس من المعقول أن يتعصب الله لشخص دون غيره، ومن ثم فباب السماء مجبول على أن ينفتح دائما، وأن عطية الله لا تنفد.. فإلى أن تقترب ليلة القدر تكون البلدة كلها قد باتت ساحة للورع والتقوى بصورة غير طبيعية ، تصل إلى ذروتها صبيحة يوم ليلة القدر.

لا أحد يذكر بالضبط متى بدأت ظاهرة بغلة العرش هذه وكيف باتت واقعا راسخا كأنه طقس عتيق. هكذا يبدو الأمر بالنسبة للجيل الجديد من أبناء بلدتنا. أما أبناء جيلى فإنهم يتذكرون أنها بدأت منذ مايربو على ربع قرن تقريباً ؛ فظلت تتطور وتكتسب مصداقية من سنة لأخرى...

الأعجب من ذلك أننى رغم أنى - حسب تعبيرهم - موظف قد الدنيا يعيش فى أم الدنيا ؛ أرانى دائما فى البلدة فى هذا الموعد من كل عام كأننى على موعد ثابت مع الحدث. والحق أنى لست أعرف إذا ماكنت أنا قد دبرت إجازاتى السنوية التى أقضيها فى بلدتى بحيث تكون هذه الليلة من بينها، أم أن الظروف هى التى

تكفلت بذلك ؟! أيا كان الأمر فإننى منذ شاهدت هذه الظاهرة لأول مرة فى تلك الليلة البعيدة، لم أتخلف عن مشاهدتها كل عام ...

وإذا كنت فيما سبق لم أشهد الحدث نفسه بعينى؛ فإننى - ككل أهل البلدة - أشهد ردود فعله مجسدا فى صور بعضها خلاب وبعضها محزن؛ وكلها مثيرة للتأمل محركة للخيال والعاطفة والغيظ والحنق وكل ألوان المشاعر. فما الحدث إلا ردود فعل فى النهاية. كما أن ذاكرة الليل فى بلدتنا أصبحت تحفظ من الغرائب والمدهشات مالا يكاد عقل يصدقه أو يستوعبه. ولهذا، ففى كل عام أرانى أكثر تلهفا على قدوم هذه الليلة أكثر من العام الماضى. ورغم أننى أصبحت أتوقع كل ماسيحدث بحذافيره؛ فإن مايحدث وإن تكرر لابد أن يكون دائما طازجا وجديدا وغنيا ؛ ومثيرا للذهول أكثر مما سبق . الحقّ أننى لم أعد قادرا على الحكم الصحيح فيما إذا كانت الغرابة كامنة فى هذا الحدث السنوى، أم فى بلدتى نفسها دون كل بلاد الله المنتشرة على الأرض ؟!..

* * *

فى المنحنى القائم بين الريف والحضر، جنوحا على خط البرارى فى شمال الدلتا ، تقع بلدتنا؛ تلك التى لم تترسخ

صورتها الحديثة فى ذاكرتى بعد. فما زالت كما كانت على صورتها القديمة، تبدو لى من بعيد؛ فيما أنا مقبل عليها من المدينة البعيدة التى أتلقى العلم فيها، ممتطياً ظهر ركوبه عجفاء؛ وقد بدأت الأراضى الزراعية الخضراء والصفراء والبيضاء تلد أخصاصا وأعشاشا مبنية بالبوص والخشب والطين؛ تأخذ فى التطور كلما أمعنت الخطى فى مدخلها الرئيسى الموصل إلى محطة القطار في بلدة أخري بعيدة ، إن هي إلا فراسخ قليلة حتى تتحول الأخصاص والأعشاش إلى بيوت ومنازل بعضها مبنى باللبن وبعضها بالطوب الأحمر : كلها من طابق واحد أو طابقين على الأكثر، تتخللها بضع مآذن وأبراج كنائس : حيث تبدو البلدة وهى ممتدة على رقعة عريضة بين المزارع كشكل طائرة ورقية مضلعة من جميع الجهات بارزة الأضلاع فى بعضها، كأنها - وهذا هو الأرجح - مبنية على تخطيط عشوائى، كحركة المياه عند الطوفان تنفرد تلقائيا على قدر ما تسمح لها قوة الإندفاع..

هى إسم على مسمى . إسمها سيدى سالم : هو قطبها الكبير له فيها مقام رهيب يتوسط مسجدا لا مثيل له فى الفخامة والإتساع وطول المئذنة ورخام الأرض وضخامة الميضأة : كأنه أعد لصلاة العالم أجمع، وهو لهذا مفخرة البلدة ومزارها .

وأسماء سالم وسليم ومسلم وسلامه وعبد السلام والمسلمانى شائعة بين العائلات شيوع النخيل وأشجار الصفصاف والجزورين فى أراضيها وعلى جانبى سككها وحول دورها ...

لنشأتها تاريخ مدون فى الذاكرة الجماعية يعرفه حتى الأطفال الصغار. فسيدى سالم، النائم جثمانه فى هذا المسجد الكبير فى وسط البلد، هو أول ساكنيها وكانت على أيامه بلقعا. كان من اهل الخطوة يمشى هائما فى حب الله يتخير أماكن بعيدة يختلى فيها بنفسه ليتريض ويجاهد نفسه يكسر أنفها فى مواجهة الله. أيا مذاك كان معروفا لكل صغير وكبير فى بلدان العب كله، وذا مهابة ومكانة مرموقة لها فى القلوب هزة، ولإسمه فى الأسماع وقع حميم. إنه من إحدى هذه العزب المتناثرة حول بحيرة المنزلة، إستوطن فيها أهله القدامى وكانوا من الأعراب الرحل؛ لكن استيطانهم قرب بحيرة المنزلة واشتغالهم بالصيد وصنع المراكب وتجارة البحر كان أساسه حرصهم على اكتساب رضاء الله : ذلك لاعتقادهم أن السكنى فى الموانى البحرية سنه: فكل ميناء أو مرسى يسمى عندهم بالرباط؛ وكل من يرابط فى بقعة كهذه له فى الجنة مكان يحسد عليه. إلا أن مرابطتهم قرب هذا الميناء لم يمنعهم من الترحال ثم العودة ثم الترحال فالعودة. كانوا جميعا من مريدى سيدى

إبراهيم الدسوقى، الذى كان على قيد الحياة فى خلوته بدسوق يجهز جيشا من الفدائيين يرسم لهم خطط الإنتقام من الجيوش الصليبية المغيرة على البلاد. فتيانه كانوا من أشجع الفتيان وأقواهم عزيمة وإرادة وقوة لأن صورة الدسوقى تمكنت من صدورهم فظلت مشعة فى أذهانهم ووجدانهم تحفزهم على طلب الإستشهاد فى سبيل الله والوطن. وحتى بعد رحيل الغزاة ظل فتيانه يتكاثرون فى جميع البلدان، وظلت عقيدتهم قائمة على التوثيق بين الله والوطن؛ وبما أن الغزاة قد انقشعوا بعون الله فليبق الجهاد مستمرا فى خدمة الوطن وأهل الوطن؛ فالعمل فى شق الترع والمصارف وتعبيد الطرقات وبناء المساجد والتكايا وإقامة الأسبلة فى الطرقات الطويلة وإغاثة الملهوف وهداية التائهين كل ذلك جهاد فى سبيل الله ...

وكان سيدى سالم طفلا فى العاشرة من عمره يوم ذهبت به أمه إلى سيدى إبراهيم الدسوقى تلتمس بركته لابنها شأن معظم الأمهات فى هذه البلدان الدسوقية. قال الراوى فلما رآه الدسوقى توسم فيه الصلاح الفطرى وسلامة القلب فوضع يده الشريفة على كتف الصبى وقال لأمه : دونك والطريق ، يعنى اذهبى واتركيه لى؛ فما كان من أمه إلا أن أطلقت الزغاريد المدوية، وظلت تزغرد وتغنى من الفرح طول الطريق إلى بلدتها. ومنذ أن

تركته نسيت أنه ابنها، باتت تزوره فى كل عام مرة أو مرتين ، فيسرها منظره وقد نما فأصبح شيخا مهيب الطلعة بلحية جميلة وجبين وضاء وعين يسكنها الحياء، فتلتمس منه الدعاء لها ثم تقفل عائده إلى دارها ..

فى أحد الأعوام – وقد صار ابنها من الفتيان – إشتاقت إليه وإلى شيخه فشدت الرحال إلى دسوق . بدأت المسير بعد أذان الفجر مباشرة؛ وصلت إلى خلوة الشيخ بعد الظهيرة بوقت طويل. لحظتها كان الشيخ يتناول غداءه داخل الخلوة، وكان ابنها سالم قد كبر وتغير شكله من شدة الإمعان فى الزهد حتى صار جلدا على عظم يتسربل بخرق باليه، لدرجة أنها لم تتعرف عليه وهو جالس وحده على باب الخلوة. إقتحمت الباب إلى الشيخ مباشرة، مالت عليه فقبلت جبينه ، سحبت يده المشغولة بالطعام طبعت على ظاهرها قبله ، إنخرطت فى الدعاء له. بنظرته الثاقبة عرفها الشيخ فإبتسم قال لها :

– «كيف حالك يا أم سالم ؟!»

– «بخير يامولانا طالما أنت راض عنى ! !»

– «لعلك تسألين عن أبنك ؟»

– «وعنك قبله يامولانا !»

بيده أشار إلى باب الخلوة، فنظرت فى الرجل الجالس على

الأرض يأكل هو الآخر . جمعت نظرتها ماأمام الشيخ فإذا هى دجاجة مشوية عطرة الرائحة، والشيخ يفصص لحمها على مهل شديد، يلوكه فى غير التذاذ . ثم انتقلت نظرتها إلى ابنها فوجدت أمامه طبقا من المش و اللفت ، وعلى فخذه رغيف مقدد وبعض أعواد الفجل . قلب الولية أكلها. عقلها الريفى البسيط عجز عن استيعاب هذه التفرقة من شيخ من كبار أهل الله الطيبين . إنفلت لسانها رغما عنها :

- « متأخذنيش يامولانا ! بقى ده يصح برضه ؟ تأكل فرخه مشوية ! والولد ياقلب امه ياكل مش حادق ! وهو بيخدمك ليل نهار ؟! أنا لمؤاخذه باسأل بس يعنى !»

نظر إليها أبو العينين باسما ؛ وكان قد انتهى من أكل الدجاجة فلم يبق منها سوى كومة صغيرة من العظم والشغت. قال :

- «تريدين معرفة السبب ياخاله ؟»

- «فقط يامولاى !»

فسحب أبو العينين نظرته عن أم سالم فألقى بها فوق كومة العظم الممصوص ، فشوح بذراعه صائحا فيها :

- « هش قومى !»

فإذا بالدجاجة قد نهضت من كومة العظم واقفة تقأقئ وتجرى إلى الخلاء. فنظر إلى المرأة المذهولة وقال لها :

- «حين يستطيع ابنك فعل هذه يحق له أن يأكلها !!»

فألقمت المرأة حجرا؛ سلمت على الشيخ طلبت عفوه، ثم على ابنها طلبت دعاءه، وعادت إلى دارها فى البلد. مرت السنون وابنها يتفانى فى خدمة شيخه ؛ إلى أن طلب شيخه للقاء ربه، فانطلق سيدى سالم يمشى فى حب الله إلى كل مكان؛ يهدف إلى نشر عهد سيده وقطبه بين العباد. أقام لنفسه خصا صغيرا فى بقعة نائية متاخمة لطريق ضيق بين الأحراش وأعواد البوص والحلفاء كانت تسلكه القوافل القادمة من القرى المجاورة فى اتجاه يقود - بعد مسيرة أشهر بالدواب والإبل - إلى شاطئ البحر المتوسط عند بحيرة البرلس ؛ أو عند نهاية مصب فرع رشيد بانعطافة يسيرة متفرعة منه ؛ وحيث كانت هذه الطريق مرتعا لقطاع الطرق فى الليالى السوداء لا ينجو منها إلا كل عتلٌ مسلح بشتى أنواع الاسلحة والرجال. أسبغ سيدى سالم على الطريق كثيرا من الأنس أشاع بدوره بعض الأمان ، إذ هو صاحب كرامات حقيقية، لا يفلت من سحر سيطرته على من يحتك به كل من يحتك به؛ حتى لقد استطاع أن يهدى الكثيرين من قطاع الطرق يحولهم إلى اتباع ومريدين يسهرون الليل خارج الخص فى تهجد وتسابيح؛ يقدمون المساعدات للقوافل والرواحل، يفسحون لهم أماكن لقسط من

الراحة، يتلقون الهبات من خبز وقروش وكبسوات من الخلع. فى مقابلها يقدمون الماء مع الشاى وربما الهداية؛ إذ إن ماحفظوه من كلام سيدى سالم كان يحلولهم إعادة ترديده كل بطريقته الخاصة؛ فتجد من الأسماع قبولا حسنا؛ مما أقام لهم صداقات عتيدة مع الكثيرين من التجار الأثرياء والمقاولين والصيادين أصبحوا يركبون إليهم لقضاء شطر من الليل فى صفاء صحبتهم وصحبة شيخهم الذى لا يتمكن من رؤيته سوى صاحب القلب السليم . لا يتأكد أحدهم من سلامة قلبه إلا إذا اصطفاه الشيخ وقربه إليه؛ فى حين لا يفقد الآخرون الأمل فى علاج قلوبهم على يديه بعد ماقدموه فى السابق من شرور ومساوئ ..

خضوعا لتعليمات شيخهم لم يكن ليتم لهم شفاء القلوب من أمراضها المتوطنة سوى بالإستغراق فى المجاهدة والترويض النفسى؛ أو فى العمل الشاق المرهق فى سبيل الله؛ أى فى خدمة أهل الله وأبنائه من كافة البشر. أقرب عمل اقترحه عليهم حمل الفئوس والكريكات لحفر قنوات وترع فى هذه المناطق الصحراوية تتصل بنهر النيل الذى أرسل لهم مندوبا عنه أسمه فرع رشيد يجب أن نضيّفه فى أرضنا ليفيض علينا من نعيم الله مايروى العطاش، وكان يحلو للشيخ عصر كل يوم أن ينظر

من خصاص نافذته واقفا يملأ صدره بالهواء المشبع بغبار الحفر، فيشعر بالرضا إذ يرى خطوط الحفر قد امتدت على مساحات عريضة إلى مسافات بعيدة جداً ؛ وأن اتباعه قد تضاعفت أعدادهم بشكل مثير للبهجة والفرح ؛ فلا بد أن كل مريد من مريديه قد صار له مئات المريدين. كان يشعر – يقول الراوى – بالسعادة كلما أبلغه كبار مريديه أن جميع أهالى العب كله قد باتوا يعتقدون أن التطوع بالمشاركة فى الحفر والتعبيد نوع من التوبة أو الصلاة أو طلب رضاء الشيخ والتوسط إلى الله لقبول توبتهم ؛ فكان الشيخ يبتسم فيضئ وجهه بنور أسيف فيما هو يقول :

– «هذا دليل على أن عدد الخطائين كثير مخيف ! لكن الحمد لله انهم ادركوا انهم خطاءون فجاءوا يلتمسون التوبة على أيدى العبد الفقير ! الا فليوفقنا الله أن نكون عند حسن ظنهم ! ومن ادراهم أن الله يتقبل منى وأنا اشعر بأنى لم أصل بعد إلى معرفة الطريق الصحيح إلى عتباته المقدسة ! اللهم تقبل منا جميعا ولا تردّنا بالخيبة والخسران !!»

من الواضح أن الله قد تقبل منه القربان بقبول حسن ؛ إذ ماكاد الشيخ يتأهب للقاء ربه ذات ليله قدر موغلة فى القدم؛ حتى كان مندوب النيل قد نشأت له جيوب كثيرة بعضها بارز

وبعضها سحرى يمتد فى قلب البرارى والمناطق الصحراوية البعيدة، فجاء ميسورون مريدون فأقاموا أخصاصا وأعشاشا ومنازل بحذاء خطوط المياه المنسابة فى اتجاهات كثيرة ، بدأت مشاريع زراعية. غيطان وحدائق وزوايا للصلاة راحت تتكاثر يوماً بعد يوم كلما أفلح مشروع وأنذر بخير وفير. مع المشاريع والمنازل نشأت طرق ومدقات ؛ جرى تمييز البقاع والطرقات بأنواع متعددة من الأشجار والنخيل . حتى إذا ماأقبلت تلك الليلة البعيدة من ليالى القدر كان خص الشيخ قد احتاطته بلدة محندقة خفيفة الظل تجرى من تحتها القنوات والترع والمحاصيل الزراعية...

ليلتها تمدد الشيخ فى خصه على الخرقة التى يفترشها. وكانت التمرة التى وضعها فى حنكه منذ الصباح لا تزال قيد المضغ تحت أسنانه الواهنة حين طلب جرعة ماء وافاه بها صبيه الجالس بجوار رأسه. ابتلع الشيخ بقايا التمرة فى جرعة الماء ثم شكر الله وحمد فضله العميم؛ ثم طلب كبار مريديه بالإسم. ففى الحال خفوا إليه سراعا. طلب لهم مزيدا من الهداية والتوفيق والترابط فى الجهاد فى سبيل الله. ثم أدلى بالشهادتين منغومتين على مهل، أطبق جفنيه. تهدل رأسه على الجانب الأيمن ، سافرت روحه إلى بارئها .

تناولت فطورى على عجل. قررت الإنصراف قبل أن يهجم طوفان التليفزيون بفوازيره الرقيعة وتمثيلياته الخرقاء؛ الدُّ أعداء الشعب المصرى فى العصر الحديث. كان قرين الخرافة فأصبح بديلا لها فى حياة أهل بلدتنا. لم يعد حديث السياسة هو الرئيس فى مجالسهم بل لم يعد لهم مجالس من الأساس اللهم إلا القعدة أمام التليفزيون إذ هم أفراد حتى وإن تجمعوا. حديثهم أنئذ هو طلاق سميه الألفى من فاروق الفيشاوى ، عدم زواج ليلى علوى، مغامرات أحمد زكى على الطريق الصحراوى، زواج شاريهان من الفاسى، طلاق صفاء ابو السعود من الشيخ صالح كامل المليونير السعودى. تراجعت كل الهموم وهى ماثلة. الحفاة الجباع مشغولون بالدورى العام لكرة القدم، وترقب المباراة الفاصلة بين الأهلى والزمالك، ترقب ماسيحدث اليوم فى حلقه المسلسل ...

ينتابنى الضيق أى مستقبل يمكن أت نتوقعه. لأى عمل جاد فى هذا الزمن المليء بالإنحطاط والفساد، وكائنات حمقاء لاهم لهم سوى الأكل والشرب والنكاح والتكاثر بصورة جنونية مخيفة..

العجيب أن هذه الصورة الكئيبة التى تدهمنى فى البلدة كلما زرتها؛ تتناقض تماما مع الصورة البهيجة التى تطالعنى فى

غرفة صديقى «عدلى بقُوش»، المهندس الضابط الذى فقد ساقيه فى حرب اكتوبر. وتكون الفرحة شاملة حين يتصادف وجود «جعفر العطار»، الشاعر الذى يجب على بلدتنا بأن تفخر بأنه من أبنائها؛ كان معلما فى معهد المعلمين بكفر الشيخ لكنه استقال وتفرغ للشعر والأدب فحقق شهرة كبيرة كصوت متميز فى حركة الشعر العربى الحديث، إلا أن غرامه بالبلدة لا يقاوم، وكانت السنوات التى أمضاها فى العراق موظفا بوزارة الثقافة العراقية قد غذت فيه حبه للقرية فلما عاد أصبح شبه مقيم فيها يمارس الزراعة وتربيه النحل فلا يمكث فى القاهرة إلا بضعة أمسيات كل اسبوع؛ فأمضى عمره يحمل حقيبة (هاندباج) على كتفه فيها ثيابه وكتبه رئحا غاديا بين البلدة والقاهرة ..

اغلب اليقين أننى تعجلت الخروج إلى الخلاء بعد الإفطار مباشرة لكى أذهب إلى مندرة عدلى بقوش. فأول شئ أشعر بالإشتياق الحقيقى إليه فور نزولى إلى البلد هو هذه الغرفة التى تشبه عشًا تفرخ فيه المشاعر انسالاً فى غاية الثراء. ربما كانت هذه المندرة هى الجانب الحقيقى الذى بات يشدنى لزيارة البلد، او على الأقل يفعمنى بفرحة غامرة.

فى الحال اتخذت طريقى إليها وقد تبدلت حالتى النفسية من

الكآبة الكاملة إلى البهجة المطلقة. فمجرد مرور صورة عدلى بقوش بخاطرى فيه إنعاش لكل الآمال المحبطة فى نفسى؛ تسرى فى كيانى رعدة لاذعة لذيذة كلذع المياه الغازية ؛ أشعر أن طاقة الأمل والقوة والتفاؤل الكامنة فى روح عدلى بقوش قد انتقلت إلى صدرى أشعرتنى بالخجل وتأنيب الضمير، بداخلنى اليقين بأن الدنيا لا تزال بخير رغم كل مانحن فيه من فساد وانحطاط..

لسوف نتندر الليلة ببغلة العرش حتى ننتشي من الفكاهة وتذوب كل الكلاكيع السوداء فى أعيننا إذ نستكشف فى أروقة النكت العميقة الذكية طيبة قلب أهلنا وخصوبة خيال الشعب المصرى المستمدة من روحه الحضارية الأصيلة ؛ تلك الروح التى طمرتها الأتربة الناتجة عن سنابك خيل الغزاة ومراوغات الزمن الرغد، وتضافر الأسباب الكونية على هذه الأمة تقف لها بالمرصاد ، تصيبها بالكساح كلما اشتد عودها ؛ كأن موقعها الجغرافى كان نعمة ونقمة معا؛ شعب مقهور على الإستسلام مجبول على المقاومة فى آن، مقاومة بالنكتة بالخرافة بالصلاة بالأغنيات بالبكائيات؛ لا يشغله أمر الدفاع عن أرض الوطن قدر انشغاله بأمر الدفاع عن قيمة الحضارية الخالدة التي أبت إلي بصيص جمر يحجبه الرماد. إنه الشعب الذى تبنّى فكرة نشر

السلام كسلاح مضاد للحرب، والضمير الإنسانى كسلاح مضاد للهمجية. حمل لواء الإنسانية فظل يدفع ثمنها حتى اليوم فلا يعتريه يأس أو كلال مهما لحقه من خراب ودمار : تلك النزعة التى تأصلت فيه أغرت به كل وحوش العالم فأغاروا عليه فامتلكوا أرضه وقتا، لكنهم أبدا لم يمتلكوه هو، ظل هو هو ، بل إنه طوى الغازى تحت جناحيه وتكفلت شمس مصر بتمصيره. لا يعرف التاريخ بسالة فى الحرب كبسالة ملوكه الأغراب الذين استوطنوه فدافعوا عن أرضه حتى الموت. فى كنفهم عاش المصرى ذليلاً مهيضا أى نعم؛ لكنه احتفظ بمصريته، بكونه تشخيص وتجسيد لفكرة السلام ويقظة الضمير الإنسانى. إلا أن هذه القيمة- من أسف - تحتاج الآن دما ثقافيا طازجا ووعيا سياسيا شاملا، على ضوئه يعرف المصرى كيف يحاسب ملوكه وأولى الأمر منه، يعرف أن هؤلاء وأولئك ليس ينبغى أن يعاملوا باعتبارهم أجانب كما كانوا . ماهذا ؟.. أكاد أتكلم بلسان عدلى بقوش وعبارات جعفر العطار الى غرستها فينا أخيلته ذات الأعصاب الملتهبة على الدوام.

الحارات تفضى بى إلى شوارع تميل بى إلى منعطفات وأزقة وسط زفة هائلة من أصوات المذياع والتليفزيون والكاسيت المتصلة بامتداد الطرقات كلها على المصاطب أمام الدور وفى

الدكاكين وعلى ظهور الحمير وفى أيدى السائرين ؛ حتى أن كلمة واحدة مما يذاع لم تغب عن أذنى ؛ من فوازير آمال فهمى إلى حلقات ألف ليلة ففوازير التليفزيون فأذان العشاء يقطع كل ذلك يتلوه حديث نبوى فقرآن كريم فاختلاط فزئيط هائل ؛ وأضواء الكهرباء تنبعث من الزرائب والحظائر تنفرش على أكوام السباخ وأقراص الجلة وأحمال القش والحطب ..

مندرة عدلى بقوش مطفأة !! لابد أن حدثا كونيا خطيراً طرأ عليها. هذه المندرة لم تنطفئ أبدا حتى وهو غائب عنها. فهو دائما أبدا إما هناك أو فى مشوار قصير يعود بعده ليجدد الدماء فى حلقة السمار التى تكون اكتملت فى انتظاره راحت تتصرف على راحتها. ماذا ياترى قد حدث ؟!..

طرقت الباب. لا أحد يرد. الدار كلها مطفأة ومن الواضح أن أهلها جميعا قد غادروها. جيرانهم قابعون فى شرفة بعيدة مبنية بالأسمنت المسلح داخل إطار من البناء القديم بالطوب اللبن، وصوت التليفزيون فى أقصى ارتفاعه بدرجة لابد أن تخرق طبلة الأذن ومع ذلك فإنهم يتحركون فى الشرفة فى الضوء الشاحب كأشباح بلهاء تمتد كروشها تتجشأ ولا أحد يسمع أحداً ..

وجدتنى أتخذ طريقى المعتاد نحو السكة الزراعية على شاطئ

ترعة السلمونية . وجهتى هى هذه القنطرة العريضة المبنية بالأسمنت المسلح، يتوسطها باب من الحديد غائص فى الماء إلى عمق بعيد جداً ؛ يمتد أمامه فى قلب الماء ممر صخرى طوله مترين وعرضه اكثر من متر. فوق القنطرة طابية دائرية جميلة الشكل جداً ؛ كأنها خشبة المسرح يحلو لنا وللجميع الجلوس فوقها. فبمجرد اعتلائها تنتاب الجالس فوقها حالة مسرحية منعشة مفعمة بشعور لذيذ بشئ من النجومية المضمرة فى كل واحد . لابد أن تحدث له بعض التجليات ، تهبط عليه بعض الأفكار ، يصاب بحالة مفاجئة من خفة الظل يروح يرسل النكتة تلو النكتة؛ أو بحالة من الورع يتخذ منها موقع الواعظ دون أن يدرى؛ ربما ألقى درسا أو موعظة أومحاضرة أو قصيدة شعر. جميع طلبة البلدة بجميع الأجيال السابقة علينا والتالية لنا طبعوا عليها بصمة خيالهم وطموحاتهم ونبكريات غرامهم واكتشافهم لرجولتهم. فوقها ولدت مشاريع لنواد رياضية وجمعيات ثقافية ؛ دبرت مؤامرات ساذجة، فسولات مضحكة؛ تبودلت الشتائم الرنانة والمناظرات الجوفاء؛ أفشيت أسرار؛ ألفت أسرار ؛ إنسردت قصص وحكايات وإشاعات وأشعار؛ ضربت مواعيد؛ أقيمت أمسيات ..

كل من يبتغى نزهة ليلية لابد أن يؤوب إليها فى أول النزهة

وآخرها. كل من أراد اجترار أحزانه حج إليها. كل مزهو بنجاح يمر بها ليستمتع بالأصداء. كل مكسور الخاطر يلجأ إليها طلبا للمواساة . كل واقع فى مصيبة فى مشكلة أتى يلتمس من يشاركه فى حمل عبئها ولو بكلمات التشجيع والمؤازرة الشفاهية. حتى سيارات الأجرة بالنفر من المركز إلى البلد تتوقف عندها كمحطة ملائمة لا يتجاوزها السائق إلا باتفاق إضافى مبالغ فيه. على كل مسافر أن يمشى من داره إليها ضامنا وصول سيارة ترجع به إلى البندر...

فى مواجهتها، وسط مساحة زراعية مترامية الأطراف يقف مبنى الوحدة الصحية المتناثرة وحداتها على أربع أفدنة ؛ يحوطها سور مبنى ومطلى مثلها باللون الأبيض الكريمى. فى وسطها ممرات أشبه بحدائق مزروعة بالأزهار والورود على جانبى ممرات مفروشة بالحصباء. تتصاعد من وحدات المبنى روائح الفنيك وصبغة اليود والزرنيخ والأحماض. تمتد أمام الوحدة الصحية ترعة المشروع ، المتعامدة مع ترعة السلمونية كشكل مفتاح الحياة عند المصريين القدماء. ذلك أن هذه القنطرة الكبيرة تحت هذه الطابية العريضة كطبلية خرافية الحجم، هى الباب الذى يفتح على هذه الترعة الفرعية الضيقة؛ عند اللزوم..

الذهاب إلى قنطرة السلمونية ليس محتاجا لرفيق. إنها هى نفسها الرفيق. إجلس إليها - لا عليها - وحدك فى العتمة وأنت

ضامن أنها تؤنس وحشتك ؛ ليس فحسب بصوت لطمات المياه لباب القنطرة ولغط الموج وهو يتمرد على حصاره فى الممر الصخرى ؛ بل بأصداء مادار فوق هذه الطابية عبر عشرات السنين، منذ أقامها محمد على باشا إلى اليوم. حتى هذا الباب الحديدى المشغول بالزخرفة لم يتغير ولم يتبدل.

تغيرت أشياء كثيرة وتبدلت طبائع أكثر؛ إلا هذه الطابية على هذه القنطرة بهذا الباب. هذه الطابية العتيدة يتعشقها الناس جميعا كأنها بيت العائلة..

سرنى جداً أن أكون أول القادمين إليها. فليس سهلا أن ينتزع الناس أنفسهم من حنك التليفزيون إلا بعد حلقة ألف ليلة وليلة على الأقل. ولا أظن أن فيلم السهرة مهما علا شأنه يمكن أن يشغلهم الليلة عن الفيلم الأكبر الذى سيشاهدونه ويشاركون فيه ابتداء من الهزيع الثانى من الليل ..

ماكدت أتربع فوق الطابية وأستشعر الوحدة الشاعرية فأنصت لمعزوفة الموج الخبيس فى الممر الصخرى حتى بدأت الأشباح تظهر من كل ناحية؛ تتلكأ عند الطابية قليلا، ثم تستأنف السير هنا وهاهنا لكى ترجع من جديد فى لحظة من اللحظات.. فمآب الرحلة هنا لا محالة . وكان أول الجالسين بجوارى بعد العواف والسلام، هو نجار السواقى «عبده الجحشه» .....

الهزيع الثانى

أباطيل وأسمار

١- مسأله

..« طول عمرى أحب الخير للناس أجمعين ؛ عمرى ماحقدت على أحد يعلم الله أنى دائما أطلب منه أن يسهل لعبيده. وحين أرى أحداً لا يستحق الغنى لكنه اغتنى لا أجرؤ على قولة اشمعنى، فهذه مشيئه الله سبحانه يرزق من يشاء بغير حساب. وقد شاء الله لى أن أكون نجارا يصلح السواقى فى مقابل ميسانيه؛ فى كل محصول يعطينى الزبون مااتفقنا عليه من كيلات قمح أو شعير أو ذرة ، لأكون رهن إشارته حينما يدعونى فى أى وقت لإصلاح تلف أو عطل فى ساقيته. هى مهنة ورثتها عن أبى وورثت معها زبائنه. بشطارتى أضفت كثيرا من الزبائن

«إستغنيت عن المدرسة لما حصلت على الشهادة الإبتدائية لأن أبى ساعة موته أوصانى بالورشة والزبائن وإخوتى. بفضل الله أصبحت أعيش واخوتى عيشة مستورة؛ زوجت بنتين؛ علمت

ثلاثة صبيان صرفت عليهم فى مدارس البندر حتى اصبح احدهم معلما فى بلدتنا والثانى تمورجيا ببلدتنا ايضا والثالث صولاً فى الجيش؛ فاستقلوا جميعا بأنفسهم..

«تزوجت فى الأربعين من العمر. رزقنى الله بالأولاد. كبروا فى غمضة عين. ظننت أن خلاصى من مسئولية إخوتى سيملأ صدرى بالهواء النقى ، لكنى أصبحت كمن يحمل على صدره جبلا. تعليم ولد واحد يقطم ظهرى فماذا سأفعل بالباقين وهم على عتبات المدارس الآن ؟!..

«من سوء بختى تغيرت الدنيا. قلّ عدد الفلاحين من يوم ما إنفتحت أسواق العمل فى ليبيا والعراق والخليج . أصبحوا جميعا مرفهين. ماكينات المياه دخلت البلد فكسد سوق السواقى. ليس سهلا أن أتعلم إصلاح الماكينات على كبر. سنى لم تعد مناسبة للسفر. ماذا تفعل ياعبده ياجحشة فى هذه الوكسة المهببة ؟! هكذا أسأل نفسى كل ساعه ..

« غصبا عنى بدأت أنتبه لحالات الناس؛ أجد أن الخير قد عم الكثيرين وابتعد عنى. ناس كثار فى بلدتنا أصبحوا اغنياء فجأة دون أسباب معلومة أو مفهومة .على أيامنا كان المرء يغتنى بعد عمر طويل من الكفاح والشقاء فى التجارة أو الحرفة؛ أما اليوم فإن المرء يغتنى فى غمضة عين. فجأة ترى الشخص قد ظهرت عليه النعمة بشكل يغيظ. والمضروب على عينه أنور السادات

يقول لنا لا تحقدوا ! فكيف لا نحقد يابن اللـ.. ؟! الحمد لله أن الولد الإسلامبولى نشّه وأراحنا منه لكن جرثومته بقيت عملت لنا مزرعة حرامية ..

«لما أفاتح الناس فى هذا الأمر مندهشا يبين لى أننى الوحيد المندهش كالأهبل فى الزفة. الناس فرحون بكثرة اللصوص. الدنيا انقلب حالها ياجدعان ؛ البلد واقفة على راسها وساقاها مرفوعان فى الهواء مفشوخان لكل من يطلب الحرام ..

«الذين سافروا بالإعارات أو بالمقاولين أمرهم مفهوم : كل واحد منهم جاء بقرشين فابتنى له دارا خارج البلدة وتزوج وأودع فى البنك مدخرا يدر عليه دخلا يتعيش منه إلى جانب وظيفته أو حرفته..

«ولكن ماالقول فى الذين أغتنوا من غير أن يسافروا ؟! خذوا مثلا الواد فتح الله خطاب : منذ أربع سنوات فقط كان يتسول الشغل كمساعد لأحد البنائين. ماالذى فعله الآن حتى يتزوج بدلا من الواحدة أربعا، ويبتنى لهن بدلا من الدار أربعا بالطوب الأحمر والأسمنت. لم يكن يجد حمارة يركبها؛ فاذا هو الآن يقتنى سيارة خطيرة الشأن اسمها المرسيدس، يتقنزح بها طول النهار فى البلاد، يتجرأ على أسياده القدامى فيخطب بناتهم فيرحبون به فى الحال !!..

« خذوا واحداً آخر : الولد سنوسى العبد، إبن بائعة الطماطم

المعفنة؛ يظل طول النهار يشتغل فى صنع الطواقى بعشرة قروش للطاقية. يوم موت السادات كانت بداية متاجرته فى الحبوب ؛ فهل تجارة الحبوب تغرقه بكل هذه الأموال فيقتنى عشرة أفدنه من الأرض الزراعية وعشرات الرءوس من الأبقار وسيارة ملاكى، وفى أخر المتمة يرشح نفسه لمجلس الشعب وينجح بأصوات الفلوس فيصبح بنى أدم عليه القيمة ؟!..

«دعنا من هذا وذاك ، وتعال نتفرج على دكان محمود المتولى. فى العام قبل الماضى فتح هذا كان بلبشة قصب وباكو شاى، يوم يضربه الدم لا يكسب أكثر من جنيهين فى اليوم. اليوم أقام عمارة ضخمة من خمسة أدوار ، تحتها دكان بطولها وعرضها للعرض والتخزين. بضائع أمريكا كلها عنده : تليفزيونات راديوهات ثلاجات غسالات بوتاجازات سخانات شفاطات مروحات دفايات فيديوهات مسجلات؛ أفندية وكتبه وقبضايات من أين كل هذا ؟ من لبشة القصب وإبر الوابور والدخان المعسل ؟! والله ماظنى .

« و.. هل نسيت صبيحه ؟ أه منها ، كله كوم وصبيحه وحدها كوم أخر. يراها من لا يعرفون أصلها فيظنونها بنت باشوات ورثت العز أبا عن جد ؛ تركب هى الأخرى هذه المسماة بالمرسيدس؛ لديها سائق خصوصى منظره منظر البكوات. من

كان يتصور أن محيى نصير بالذات يشتغل سواقا عند صبيحه ؟! منذ عشر سنوات كانت لا تجرؤ أن تكلمه؛ لأنه كان موظفا فى الحكومة فى كفر الشيخ فى مبنى المديرية نفسها وكان أهل البلدة يقفون حين يكلمونه فلا يقولون له إلا يامحيى بك. شف كيف انقلب الزمن الأهوج من حاله فينعوج عوجه ثانية لها العجب ؛ لدرجة أن محيى بك نصير يقبل الشغل سواقا لسيارة صبيحه بائعة الخضار. لكن لله فى خلقه شئون ؛ فكم تعطى الوظيفة لمحيى بك نصير ؟ مائة جنيه فى الشهر ؟ ططا ! صبيحه تعطيه مايقرب من الألف غير الكسوات والمأكولات والمكسرات والوظاويظ الفاتنات !!.

«أنتم تعرفون أننى السبب فى انكشاف سر البغلة ؛ فأنا قد صرت مسحوبا من لسانى من كثرة الغيظ : من صلاة الجمعة منذ أعوام طويلة مضت، والمسجد جامع لخلق الله أجمعين ؛ كان الشيخ جمعه الفقيه يخطب على المنبر. الناس تنصت إليه فى خشوع رغم أنهم سمعوا هذا الكلام بنصه الوف المرات، وتنهدوا نفس التنهيد ومصمصوا نفس المصمصات ورددوا نفس العبارات. وفى ركن بعيد من المسجد كان عيال آخر زمن يتجمعون وحدهم وقد أطلقوا لحاهم وجعلوا ينصتون لواحد منهم وقف يخطب فيهم هو الآخر بكلام غريب غير مفهوم لكنه

اميرهم وله عليهم الأمر والنهى. فى رأيهم أن فقهاءنا كلهم جهلاء كفار وأننا جميعا مثلهم فى الكفر..

«الناس فى شغل من أمر عيالهم هؤلاء ولكنهم فى حقيقة الأمر مزهوين بهم؛ لسان حالهم يقول هاقد أصبح لنا عيال كبار مشاكسون ؛ وكان الأولى بهم أن ينظروا فى أمر الخراب المستعجل الذى لن يعطى الواحد منهم بيتا يسكنه أو لقمة ياكلها..

« أما أنا فكنت فى شغل من أمر الجميع . الشيخ جمعه كان يقول إن عودتنا المباركة إلى الله قد نفعت وأكرمنا الله غاية الكرم ؛ فلما اتجه الجنود إلى الله وقالوا : الله أكبر ، نزلت ملائكة بثياب بيضاء حاربت معهم فجاءنا النصر فى أكتوبر. ولما بدأنا نعرف الله حق المعرفة بدأ يسهل لنا، ظهر الخير الكثير، جرى القرش فى أيدى جميع الناس باسم الله ماشاء الله. ولولا خروج بعض عيالنا عن طوعنا لكان لنا الحق أن نقول إنها الجنة ..

«فوّر الشيخ دمى ؛ قطعت الخطبة قائلا :

– ياشيخ جمعه لا تقل الجنة ! فالثراء يهبط على ناس – ناس ! فجأة ويشكل غير مفهوم ! ولا يحط إلا على ناس والعياذ بالله ! حاشا لله أن أكون معترضا على مشيئة الله ولكن ماهو السر فى نظرك ياشيخ جمعه ؟!

« فإذا بالشيخ جمعه يتنحنح ويقول :

– أنت أجبت على نفسك ياعبده ياجحشه ! هذه مشيئة الله ! سبحانه يريد أن يغتنى هؤلاء دون غيرهم فما شأنك أنت ياعبد ؟! أنت لا تستطيع القول إن إيمانك خير من إيمانهم فلا يعلم حقيقة الإيمان إلا هو ! خذ العبرة منى ! فأنا شيخ كما ترى أحفظ القرآن والسنة ولا أترك فرضا ومع ذلك لا أجرؤ على القول بأنى أكثر إيماناً من أحد !!..

«وكرر هذه الغمزة ليسمعها أولئك الشباب المنزوون فى ركن وحدهم ، ثم واصل :

– حينما اختار الله ناسا غيرى ليصيبهم بالغنى لم أعترض ! فربما كان إيمانهم أقوى من إيمانى مع أن بعضهم لا يصلى ولا يصوم !! لو أننا ياعبده ياجحشه فهمنا كل شئ وكل سبب لانعدم الفرق بيننا !! ولا تنسى ياعبده ياجحشه أن الله سبحانه قال : وجعلنا بعضكم فوق بعض درجات ! يعنى إنت تجار وأنا فقيه وهذا غفير وذاك وزير وهكذا ..

«قلت له مغتاظا :

– ولكننا يامولانا لا نعرف كيف يغتنى هؤلاء الناس بدون سبب !! عرفنا طول عمرنا أن الإنسان يصل إلى الغنى بسبوبة معينة ! اليوم ينزل الغنى على الناس بالبراشوت !!

« قال الشيخ جمعه :

– لماذا لا تقول إن بغلة العرش جاءتهم ؟!

– بغلة العرش ؟! بغلة العرش ؟! بغلة العرش ؟!

« هكذا راح المصلون كلهم يرددون . قال الشيخ جمعه :

– ألم تسمعوا عن بغلة العرش ؟!

« قال بعضهم إنه سمع. وقال معظمهم إنه لم يسمع. فقال الشيخ جمعه :

– بغلة العرش هذه ياأيها الناس ترسلها السماء للموعود فى ليلة القدر من كل عام ! تحمل خرجا ملآنا بالذهب الخالص ! وفوقه رأس قتيل يئن طول الطريق حتى يخاف منها غير الموعود فيتركها تمضى إلى حال سبيلها ! إلى أن تصل إلى بيت الموعود فتطرق بابه وتقول له : هذا حلال زلال عليك أرسلته لك السماء فخذه بالصلاة على النبى ! خذ الخرج برأس القتيل هذا شرط السماء !! فإن هو ترك رأس القتيل لم يأخذه فإن الله يعانده ويكشف أمره بأن يضع رأس القتيل على بابه فيراه كل مار ! ويقع هو فى تهمة لا يبرأ منها حتى تضيع كل ثروته وتصبح نقمة عليه !! أما إن أخذ رأس القتيل وداراه تحت تراب داره فإنه ينجو ! وعليه أيضا ألا يرد الخرج فارغا ! يجب أن يملأه من خيرات داره !! قولوا جميعا : يارب اوعدنا !!..

« ظهر البشر على بعض الوجوه وهم يرددون : إوعدنا يارب. وظهر الإمتعاض على وجوه أخرى. وكان الشبان فى ركنهم البعيد قد أقاموا الصلاة؛ مما جعل الشيخ جمعه يمط فى كلامه إلى أن ينتهوا من صلاتهم حتى لا يتداخل صوت المبلغ وصوت الإمام فتحدث ربكة أو لخفنة فى السجود والركوع..

« فى صلاة عصر ذلك اليوم البعيد كان جميع المصلين يتكلمون فى موضوع بغلة العرش هذه ، كأنها حقيقة فعلية. الشيخ عبد المقصود ابو غلاب- وهو رجل يحمل شهادة العلمية من الأزهر الشريف ومخه نير وعقله يزن بلاد الدنيا كلها - تعوّد أن يعطى درسا قبل صلاة العصر. ولأن البلدة كلها تحبه وتحترمه وتثق فى كلامه فإن مسجد العصاروة يزدحم فى صلاة العصر أكثر من صلاة الجمعة. فالشيخ عبد المقصود ابو غلاب يقول فى درسه كلاما يشرح القلب حقاً، أجدد من كلام الشيخ جمعه، وفيه حياتنا، فيه الناف والمحراث والطائرة والصاروخ وحرب إيران مع العراق واحتلال إسرائيل لجنوب لبنان لأنها تحتل فى الأصل عقولنا من الجنوب والشمال ومن كل الجهات ..

«لأول مرة لم يستمع الناس بانتباه لحديث الشيخ عبد المقصود فى ذلك اليوم. كانوا فى انتظار أن يفتح باب الأسئلة.

فما أن فتحها حتى خبطه الجميع بسؤال واحد يجيئه من كل ناحية : ماحقيقة بغلة العرش هذه ؟ هل ترسلها السماء حقا؟ هل الذين اغتنوا بسرعة فى هذه الأيام جاءتهم بغلة العرش فعلا؟ وهل دفنوا رءوس القتلى فى زرائبهم؟ هل هذه البغلة موجودة من قديم الأزل أم أنها حديثة عهد بهذه الأيام فحسب؟ هل .وهل..وهل..

«نزل الجميع هلهلة فى الرجل. طار صوابه . إتسعت البسمة الهفتانة على حكنه الواسع. صار يهرش فى لحيته الطويلة ؛ يرفع العمامة يهرش فى صلعته. إنه رجل مؤدب على الآخو، لا تطلع العيبة من فمه ، لا يطيق أى تخريف من أحد، واكبر شتمة عنده قوله : أنت مخرف..

« لما كف الناس عن الأسئلة بقى صامتا لوقت طويل. إحمر وجهه كوجه برام الأرز . ظهر عليه الغم والكدر.. أخيرا نطق :

- شوفوا يارجال ! هذا تخريف لم أسمع به من قبل ! وظنى إنه خيال فى خيال ! لكنكم نبهتمونى إلى شئ مهم : ذلك الثراء الفاحش الذى أصبح يحط على كل من هب ودب !! هذه بالفعل ظاهرة لا أستطيع إنكارها ! أنا مثلاً أزرع فى خمسة أفدنة من أجود الأرض وعندى من الأولاد رجلين اثنين غير البنات ! مع ذلك لم نعد قادرين على سد الرمق إلا بطلوع الروح !! ولقد ظللت سنين طويلة أتاجر بشرف فى الحبوب والأقطان فما أستطعت توفير ثمن البيت الذى بنيته على قناة القطان فرهنت

فيه فدانين !! فى حين أرى من كان بلا رسمال ولا شهادة ولا مواهب قد أصبح يركب سيارة يقتنى الثلاجة والغسالة الكهربية والفيديو مع أنه لم يسافر إلى بلاد النفط !! عقلى ليس مقتنعا ببغلة العرش هذه ! ولم أقرأها فى كتاب ! ولم تكن لتخطر لى على بال ! لكننى مستعد لتصديقها ! فلو أنها صحيحة من حيث الإمكانية لكانت هى المبرر الوحيد لهذه الظاهرة المستفحلة ظاهرة الثراء الفاحش الذى يهبط على ناس بعينهم !! وعلى كل حال فليس بشئ بعيد على الله سبحانه وتعالى ! إن ليلة القدر بالطبع ليلة مباركة مافى ذلك شك ! لكن أبواب السماء مفتوحة فى كل وقت !! ومن يدرى ؟ ربما كان الشيخ جمعه محقا فى كلامه لكن يبقى حينئذ أن تنظر فى أمر الذين اغتنوا فى السنين الأخيرة بدون وجه حق كما تتصور : هل هم فعلا من الذين يستحقون هذه الهبة السماوية الكبيرة ؟! آه !! هذا مالا أستطيع أن أقرره !فلابد أن فى كل منهم صفة غالية يحبها الله ويكافأهم عليها !! بهذا الشكل يحق لنا أن نفرح لأن عدد الطيبين المخلصين لله يكون كبيرا جداً !! ولكن رباه ! إن هذا سيضعنا فى إشكال اكبر ! إذ أين يتعبد هؤلاء الأثرياء ؟! إننا لا نرى أحداً منهم هنا إلا نادرا !! ولم نسمع عن أى مشاريع خيرية أقاموها أو تبرعوا لها !! ولكن من يدرى ؟ لعلنا جميعا مخطئون والله وحده يعرف الحقيقة !! على كل حال ياعباد الله عليكم بالصبر والتقوى ! واعلموا أن الله يحاسب الإنسان على ضميره قبل كل

شئ ! فمن كان منكم قد عمل عملا طيبا فى حياته فالأمل فى أن يكافئه الله كبير وموصول ! وكل شئ فى هذه الدنيا بأوان ! فأقم الصلاة !!..

«قامت الصلاة ؛ وقامت البغلة فى حياتنا من يومها أصبحت حقيقة أصبح عدد الأغنياء فى ازدياد مستمر. أصبحت ليلة القدر عيدا تسهر البلدة كلها فى مسائه تنتظر قدوم بغلة العرش. تسهر البلدة حتى الصباح، ولا أحد يرى لها منظرا. فى الصباح يبرر الجميع عدم رؤيتهم للبغلة أثناء قدومها ؛ فلابد أن الساهرين فوق الأسطح نعست عيونهم ولو لدقيقة واحدة. والمتربصون على مداخل الطرقات لابد قد انشغلوا فى أى شئ فتسربت البغلة دون أن يشعروا. ولماذا لا تكون جاءت من طريق سرى هى وحدها التى تعرفه ؟. فى عيد الفطر وعيد الضحية تبدأ بشائر الثراء على بعض من كانوا فقراء : ثياب جديدة ثمينة لم يعتدها أبناؤهم فى الأعياد السابقة ؛ خرفان تذبح فى دور تعودت أن تتلقى الإحسان فى أعياد ماضية، ينتشر الخبر فجأة بأن فلان الفلانى - الذى هو أجير فقير - إشترى ثلاثة أفدنة؛ إبتنى عمارة، إفتتح مزرعة للدواجن، إشترى سيارة نقل بمقطورة ، ألحق أولاده بمدرسة أجنبيه فى البندر تتكلف الشئ الفلانى..

«سنين طويلة وأنا أهزأ بهذه العملية من أساسها، وأستهيف الذين ينتظرون البغلة، أسهر مع الساهرين ليلة القدر لمجرد الفرجة والونس. أما اليوم فلا أعرف كيف جاءنى الإقتناع بأن

العملية جد فى جد . فى كل عام يتولى الناس تذكيرى بأن الليلة هى ليلة القدر. اليوم تذكرتها وحدى؛ أشعر بأنى مستعد للسهر، اننى يجب أن أنتظر؛ فهل يكون هذا فالاً طيبا ؟ لماذا لا ؟ اظن انى استحقها عن جدارة : لقد جئت على نفسى فربيت إخوتى علمتهم حتى توظفوا ؛ ترفقت بأمى أويتها ورعيتها حتى آخر لحظة فى عمرها فماتت وهى تدعو لى ؛ لم أفعل مكروها فى حياتى، لم اسرق ، لم ازن، لم اكذب، لم افتن، لم اغش، راعيت شعور جيرانى تسترت على فضائحهم ، لم يقصدنى مزنوق إلا حاولت فك زنقته بكل ماأستطيع. زد على ذلك اننى اربى أولادا كثار على الحلال ؛ هدفى أن يكونوا صالحين لخدمة الله والوطن؛ فلابد أن الله يعرف كل ذلك جيداً ويقدر موقفى ..

«ماالسر فى اننى اتذكر كل هذا الآن ؟ أليس من الفال الحسن ؟

أليس ذلك هاتفا من الله سبحانه وتعالى لكى ينبهنى فامتنع عن الخروج من دارى الليلة حتى إذا جاءت البغلة. تجدنى فى انتظارها ؟ وهكذا أردت البقاء فى حوش الدار لكننى تذكرت شيئا مهما : قلبت فى أوراقى فوجدتنى أستأهل النجاح عند الله بنمر كبيرة؛ وهنا جاءنى الهاتف يقول : طالما أنت سليم هكذا فلن تجئ لك البغلة أبدا ؛ لأنها عمرها ماجاءت إلا للساقطين فى الإمتحانات . لكننى تحيرت وقلت لن أستطيع التفكير فى هذا الأمر على رواقه إلا فوق هذه الطابية ؛ والحمد لله أن بدأ الحبايب يهلّون؛ ...

٢- زلْـزَلَهْ

« جازاك الله ياشيخ جمعه - هذا ماجعلت أقوله لنفسى قبل لحظات من مجيئى إلى هنا ضائقا كربانا - خلقت لنا أسطورة لم يعد من الميسور مناهضتها. ياأيهذا الرجل المخرف متى تكف اذاك عن القوم ؟ الحق علينا إذ تركناك تصعد المنبر لتبث هذه الجهالات فى أفئدة الأبرياء . شرع القانون عندنا لعقاب كل جريمة إلا جريمة صعود المنبر بغير أحقية - مالنا نفرط فى هذا الأمر الجوهرى إلى هذا الحد ؟ إذا كان المتصافقون دوو الوجوه الكالحة المكشوفة لاحياءً يعطلهم عن اقتحام المنابر فلابد أن يكون ثمة قوة توقفهم عند حدهم ولكن فيمن تكون هذه القوة ياترى ؟ فى أفراد الشعب ؟ فينا نحن المتعلمين ؟ فى الحكومة ؟ أما الناس فقد عودناهم على احترام وتقديس كل من صعد إلى المنبر ليخطب فيهم باسم الدين بكلمة الله ؛ فلم يعد من اللائق بل ولا من العقل ان نعود فنوعز إليهم بتحقير أى أحد مهما بلغت جهالته؛ لأن هذا سيكون بمثابة سلوك مشروع يجرى تطبيقه

فيما بعد بشكل عشوائى يشمل من يستحق ومن لا يستحق فتكون الفوضى .. فالأوفق والحالة هذه أن نستفيد من هذه الميزة الشعبية المتأصلة، ميزة احترام صاحب الكلمة ؛ لأن هذه الميزة هى المعبر الوحيد إلى قلوبهم وعقولهم. وأما نحن المتعلمين أصحاب الأحقية فى الصعود إلى المنبر فلا يحق لنا، بل لا يصح أصلا، أن نطعن فى كفاءة زميل اعتاد أن يتصدى لخطبة الجمعة كما اعتاد الناس أن يصدقو ويأخذوا كلمته على أنها كلمة الحق والدين.

لو فعلنا هذا، فماذا نترك لهؤلاء الصبية الصغار الذين طلعوا علينا هذه الأيام بجماعات وإمارات يطعن بعضها فى بعض ويحارب بعضها بعضا دون هوادة ؟! كأن عدونا الحقيقى قد بات ممثلا ماثلا فينا نحن أنفسنا. إن هو إلا موقف صعب بالغ الحرج. وأما الحكومة فليس من المصلحة أن تتدخل فى مسائل الوعظ والخطب المنبرية. إننا جميعا نعانى منها الأمرين ، فكيف بأنفسنا ندعوها للتدخل أو للفصل فيما هو صحيح وماهو خاطئ من شئون الفكر والعقيدة ؟ هذه ليست شغلتها ولن تكون أبدا. وإننى لأكون أول المدافعين عن الشيخ جمعة فيما لو تدخلت الحكومة وحاولت إبعاده أو الحيلولة بينه وبين المنبر لأى سبب من الأسباب؛ فواعظ جاهل فى نظرى خير من سجان؛ وخطيب ساذج أفضل فى النهاية من جلاد. هذا مع يقينى من أن

الواعظ الجاهل والخطيب الساذج خطرهما يفوق أعظم الأخطار قاطبة لأنهما يخربان العقول. إلا أننى - وهذا رأى شخصى خاص بى أنا الشيخ عبد المقصود أبو غلاب - أعتقد أن السجان والجلاد كلاهما أداة لتدمير الكرامة الإنسانية وهذه فى نظرى جريمة لا تغتفر . والإنسان ذو العقل المخرب يكون هناك بصيص من أمل فى تعمير عقله ؛ أما الإنسان المدمر الكرامة فهو الشر بعينه ولا رجاء فى إصلاحه ..

«إذن فماذا يكون الحل ياعبد المقصود يابن أبى غلاب ؟ الحل كما قلت وأقول دائما يكمن فى الإرتفاع بمستوى الناس وتكبير عقولهم بحيث يصبحوا قادرين على صد الجهلاء واستبعاد الأدعياء بأنفسهم. إن دعياً من الأدعياء يكفيه انصراف الجمهور عنه مرة واحدة يكف بعدها عن صعود المنبر. العقبة الكأداة هى كيف يتم تكبير عقول الناس وتوعيتهم ؟ بحديث العصر الذى أقدمه ؟ إن ماأتعب فى نشره فى دروس كثيرة يحطمه الشيخ جمعه فى خطبة واحدة. لقد عدت من تعليمى الأزهرى منذ سنوات فوجدته يعتلى المنبر منذ سنوات؛ فمنعنى الحياء من محاولة تنحيته والحلول مكانه، إكتفيت بدرس العصر. وحتى لو تنحى هو من تلقاء نفسه عن المنبر. ولو طبعت من نفسى آلاف النسخ ووزعتها على جميع منابر المساجد فى أنحاء مصر؛ ولو تضافر شيوخى وأساتذتى الأفذاذ وخولوا للمنابر إلى ساحات

درس؛ فإن المذياع والتلفاز يقضيان على كل بذورنا فى مهدها. هذا إذا افترضنا جدلاً أن جميع المنابر قد تحررت من سيطرة الحكومة وأذنابها من لابسى العمائم وحاملى الشهادات والأوسمة والألقاب والنياشين !..

«قل الحق ياعبد المقصود وأمرك إلى الله. قل إنك متشائم من مستقبل المسلمين الذين يقتتلون الآن بسبب الثروة لا بأى سبب آخر مهما أعلنت الأسباب. العدو الأزلى لم يرحمهم وهم كذلك لم يرحموا أنفسهم. كم ذرفنا من دماء وأموال فى حرب العراق مع إيران ؟ كم تقطعت منا القلوب والأوصال فى حرب الخليج ؟ أصبحنا نضرب أنفسنا ونستغيث بالعدو الأجنبى ليحمينا من أنفسنا فيالها من نكسة وياله من عار..

«لم يعد خافيا سر هذا الإقتتال. بات واضحا أنه لن يتوقف بسبب الثروة. فلمن تكون الثروة هذا هو السؤال. جازاك الله ياشيخ جمعه؛ فرغما عنى أرانى أفكر على طريقتك فى هذه البلوى التى نغرق فيها جميعا. إنها الموضوع الأساس والقضية الأولى والأخيرة قبل أن تقوم للمسلمين قائمة تعيدهم إلى سابق عزهم : لمن تكون هذه الثروة التى طفحت بها أرض البلاد ؟ أتكون للأغنياء حتى يزدادوا غنى ويزداد الفقراء فقرا وعددا ؟ تكون لمن يملك القوة ؟ أم لمن يملك الحق فيها ؟ أهو حق إلهى؟ لو سألنا الشيخ جمعه رأيه لقال إن من يهيمنون على الثروة

جاءتهم بغلة العرش بل بغال عرش تحمل أخراجاً ملآنة بالذهب الخالص وفوقها مالا يُحصي عدده من رءوس القتلى تم دفنها تحت الآبار او تحت الخيم أو فى حدائق القصور، فهم إذن يملكون الثروة بحق إلهى ؟! ولكن أتراهم يملكونها حقا ؟ إن حرب الخليج قد أثبتت لى أنهم مجرد حراس عليها، وإن مالكها الحقيقى هو من جاء على عجل لتدمير الفقراء المتذمرين المعترضين، ليكسر شوكتهم يقلّم أظافرهم يهد حيلهم يعلمهم درسا فى الأدب يردعهم إلى الأبد؛ فيا لنكبة الحراس قبلوا رءوس القتلى وآلت الأخراج إلى الجلاد؛ فحينما يقتتل الإخوة يكون النصر للجلاد، يكون هو الفائز الأعظم ..

ولكن مابالى أهرف بكل هذا الآن فى هدأة هذا الليل المخنث الشرموط؟ أأقول هدأة ؟ من قال إنه هادئ ؟ ماالهدوء إلا قشرة سطحية تمور تحتها مراجل مضطربة بين الغضب والحقد والتوقع والإنتظار . الكل ساهر ينتظر قدوم بغلة العرش. الكل يتوهم أنه الأحق بها من غيره . كل واحد يمسك الآن بملف خدمته يستعرض أوراقه، حتى أنا لم أسلم من البهتان. وإنى لأسال نفسى : ماذا لو ظهر أن البغلة حقيقة ؟ ماذا لو ظهرت البغلة بالفعل ورآها الناس متوجهة إلى دار الموعود ؟ هل يتركها الناس فى حالها ؟ ياإلهى إنه ليكون مشهدا فى غاية العظمة والخطورة.. فكم أن مشوق لرؤية مشهد كهذا ..

« ماهذا ؟ الكون قد اقتنعت انا الآخر بأن ثمة بغلة اسمها بغلة العرش تبعثها السماء بالفعل للموعود قائلة له هذا حلال زلال عليك ؟! إننى إذن لأشد بلاهة من هؤلاء القوم ؛ ولتذهب كتب الفقه والشريعة والقانون والعلوم التى أفنيت بصرى فى درسها إلى أم القرى تنعى من أقامها. فمالى إذن أسهر هذه الليلة على غير العادة وأعصابى مشدودة إلى عقارب الساعة وإلى الخــلاء ؟! لماذا صغر عقلى فصعدت إلى السطح مثل الدهماء وبعــثرت عينى فى كل مداخل البلدة قبل أن أجئ إلى هنا ؟! لا يحق لى إذن أن أسخر من زوجى وأولادى والذين يترصدون الطرقات الآن بعيون صقرية وعن يقين راسخ بأنها قادمة. تقول إنك صعدت إليهم لكى تحملهم على النزول ؛ فلماذا إذن لم تعنفهم ؟ بل لماذا جلست وسطهم ؟ يجب أن تعترف بأنك أنت أيضا قد صدقت الحكاية. عيني فى عينك أيها الشيخ المتعلم العاقل. إنك لم تصدقها فحسب، بل يداخلك الأمل فى أن تكون محظوظا. انسيت أنك اليوم اندمجت فى مراجعة لبعض حساباتك وأوراقك فى سنيك الماضية ؟ لماذا رحت تتساءل عن ذنوب ربما تكون قد اقترفتها دون أن تدرى ؟ لماذا اقشعر بدنك لحظتها وأخذت تدعو الله أن يغفرها لك ؟ يارجل العلم لقد اقشعر بدنك الآن ثانية وانت تسخر من فكرة الشيخ جمعه؛ إعتبرت أن مجرد السخرية تعريض بقدرة الله على فعل المعجزات !!..

«نعم ! نعم ! أنت معذور إذا أصابك اليقين بأن ثمة بغلة قادمة. فحينما يصبح الجميع على هذا اليقين الراسخ وهذه العقيدة الصلبة، لا يملك الفرد – أياً كان وضعه – إلا أن يكون على دين الجميع. إن العدوى لابد أن تصتيبه وتقضى على فرديته. ماذا أفادنى علمى الآن ؟ كيف أطمح فى أن أفيد به المجتمع ؟ إذا كنت عجزت أن أفيد به نفسى وأسرتى – هاأنذا قد تساويت بالدهماء ؛ الدهماء فرضوا علىّ قانون الخرافة فامتثلت له دون أن أدرى ، حتى لو دريت فماذا بوسعى أن أفعل ؟!..

«يبدو لى أنه لا مفر من الإعتراف بأنى انا الآخر أنتظر بغلة العرش . لقد دخلت الكهرباء البلدة، أصبحت الزوائب تضاء بالكهرباء؛ أصبح معظم الذين كانوا يطبخون على الكوانين بوقود الحطب وقش الأرز والجلة يطبخون على البوتاجاز ؛ إنقرضت الأزيار من الدور، القلل القناوى العظيمة لم تعد تظهر فى الشبابيك لأن الثلاجات الكهربية انتشرت فى القرية فلم يعد باعة الفخار يحوبون القرى؛ بل انقرضت الدور المبنية بالطوب اللبن ذى الكفاءة العالية فى ترطيب الجو؛ حلت محلها بيوت مبنية بالأسمنت المسلح يضاعف من قيظ الشمس ومن صقيع البرد. الأدهى من كل ذلك، ذلك المسمى بالفيديو لدرجة أن تنتشر فى البلدة محلات تسمى بالنوادى تبيع الشرائط الحاملة لبذرة الخطيئة فأصبح متاحا للأولاد رؤية العرى والتهتك عيانا

بيانا. محلات أخرى للسخانات والأدوات المسماة بالصحية. فكيف أعيش أنا وأولادى محرومين من هذه النعم ؟! ولكن كيف سمحت لنفسى أن أصير من أهل الدنيا فأفكر فى مثل هذه المتع المؤقتة الرخيصة ؟! هل أقدر على منع نفسى من التفكير فيها ؟ طب وأولادى ؟ إذا نجحت أنا فى إتقان الزهد فماذا عن أولادى ؟ رجلين وأربع عرائس، لا أستطيع أن أمنعهم من الحسرة وهم يرون أضرابهم وأندادهم يستمتعون بكل هذه الأجهزة التى تؤنس دورهم ؟ يافرحتى أن بنيت لهم البيت بالدين والرهنية وأدخلت فيه الكهرباء والمياه المكررة شأن فقراء الناس فى البلدة. ظننت أنى قد أنهيت مهمتى واسترحت. كيف بحق الله نسيت أنى لابد أن أزوج هذين الرجلين فيتعين على أن أبتنى لكل منهما مطرحا يستقر فيه، وأن أدفع مهر عروسين، وأجهز عفشا وأقيم حفل زفاف ؟! كيف فاتنى أن عندى أربع عرائس يلزمهن أربع عرسان وكل واحدة يلزمها عون ووجع دماغ ؟! غدا أو بعد غد يتقدم لهن أولاد الحلال فماذا يكون موقفى ؟! عندك ياشيخ عبد المقصود قف، أنت أساسا يجب أن تفكر أولا وقبل كل شئ فى فك الرهنية ؛ هل ستترك أرضك مرهونة إلى مالا نهاية ؟ فكيف إذن يعيش هذان الرجلان اللذان لم يفلحا فى التعليم فاشتغلا فى الفلاحة ؟ مابقى من الأرض لا يكفينا لسد الرمق فى الحال فما الحال فى قابل الأيام والأسعار فى ارتفاع جنونى ؟! لقد

اعتمدت على الله يوم رهنت الأرض، ومازلت أعتمد عليه فى فك الرهنية ولكن من أى مصدر يجئ مبلغ كبير كهذا الذى أفك به الرهنية ؟ صحيح أن الإعتماد على الله واجب ولكن السماء لا تمطر ذهبا ولافضة. أعرف هذا جيداً وأقوله للناس فى كل درس. الآن تذكرت، لقد كان عشمى أن يسافر أحد الولدين أو كلاهما إلى العراق أو ليبيا أو الخليج مثلما فعل كل أبناء البلدة بغير استثناء؛ ولكن هاهو ذا النحس يتعقبنا؛ ماكاد الولدان يستعدان للسفر حتى قامت حرب الخليج من ناحية، واشتدت حاجة الأرض إليهما من ناحية أخرى بعد أن انعدم الأنفار الأجراء الذين كان من الممكن أن أعتمد عليهم فى زراعة المساحة المتبقية فى حوزتى من الأرض...

« يالله ! إن قلبى ليقع الآن بين مفاصلى . لعنة الله على هذا الشيخ المضلل وبغلة العرش فقد أيقظتنى فجأة على كل هذه الهموم التى كانت مختبأة تحت عباءتى. الستر يارب. أنت سبحانك عالم بكل شئ. أما أنا فلست فى حاجة لتقديم مسوغاتى فهى واضحة جلية اللهم إنى لست طامعا فى بغلة أو فرس؛ لكنى أطلب – فحسب – أن تجنبني أى فضيحة ؛ أن ترزقنى برزق هؤلاء الأولاد الذين ربيتهم على الإخلاص لك ولدينك الحنيف. اللهم إنهم ليسوا كأبناء هذه الأيام، لا شوكة لهم ولا قدرة على الإنتهاز، ماأخيبهم فى مسائل الكسب

والتهليب، وماأطيب قلوبهم وماأنقى سرائرهم فهل تراهم بعد ذلك أهلا للبهدلة والهوان ؟! لا أظن فأنت سبحانك أرحم الراحمين..

« أفقت فجاة على نفسى وأنا فى منحدر الطريق إلى الكفر بالله دون أن أدرى أنا الذى لم أجرؤ يوما على مناقشة الله الحساب. وجدت أن جلوسى وحدى فى الدار هو الخطر بعينه؛ فسحبت الصرمة لأضرب بها الشيطان على أم راسه ؛ فما دريت إلا وأنا أدس قدمى فيها وأطفش من الدار، كالطفشان من نفسه . خشيت أن يسكننى إبليس فقادتنى قدماى إلى هذا »..

٣- مَشْغَلَهْ

«.. وصرت أبرم سيجاره وأقول : اتصدق هذا الكلام ياعبد السلام ؟ عيب عليك يارجل. أنت رجل لافف وداير؛ قطعت السمكة وذيلها ؛ عقلك يزن بلداً بحالها ثم تصدق هذا الكلام الفارغ ؟ بغلة ماذا يارجل وعرش ماذا ؟! هذا سرح فى سرح ويظهر أن الشيخ جمعه أكل ثلاثة أنلجر من الفتة كبست على نافوخه فخطرف بهذا الكلام. وأنت لا يصح أن تأكل من هذا الكلام . إياك أن تقع فى الفخ وتظهر فى طرقات البلدة أو السكك المعروفة. لا تنسى أنك قاطع طريق مشهور، ومطلوب ضبطك وإحضارك منذ مايزيد على عشرين سنة ولم تستطع الحكومة أن تعرف لك طريق جره ، كما أن واحدا من أهل البلدة لا يجرؤ على أن يبلغ عنك؛ فالناس فى بلدنا لا يمكن أن تخدم الحكومة أبدا؛ إلا إذا كان لهم عدو يريدون التخلص منه وأنت لم تصل بعد إلى أن تكون هذا العدو ؛ بالعكس فأنت تخدم أهل بلدتك تنتقم لهم من صياع البلدان الأخرى ولا يستطيع أى صايع أن يهوّب

نحو البلدة خوفا منك ..

« معنى الكلام أنك تستطيع أن تتدحرج نحو البلدة الآن لترى. فأنت فى كل عام تخاف وتختبئ لظنك أن الحكومة تنتهز الفرصة وتحفر للبحث عنك. فماذا لو فعلتها هذا العام؟ افعلها يارجل. إتكل على الله وافعلها فإنها لابد أن تكون فرجة مابعدها فرجة. ففى كل عام تقول لنفسك هذا الكلام فتضيع عليك الفرجة؛ والشائعة تزداد يقينًا عاماًبعد عام كأن الجميع قد رأوها رأى العين مع أنهم لم يروها إلا فى صورة أراض تشترى وعمائر ترتفع ومحلات تنتعش . وكلما ازداد الغنى بغير سبب إزداد اقتناع الناس بفكرة البغلة. الكل ينتظرها. عشم إبليس فى الجنة. الدجاجة تحلم بأنها فى جرن ملئ بالغلال. قيل للأعمى : إيش تتمنى ؟ قال : قفة عيون. قاطع طريق أنا كما يصفوننى ؟ والله إنى لطفل يلعب أمام اللصوص الذين انتشروا بيننا هذه الأيام يمصون دمنا يقطعون رقابنا. إنزل يارجل وشف حكاية البغلة هذه فربما يصادفك خير فى الطريق؛ وهاأنا ذا أصادف وجوه الناس الحلوة على هذه الطابية ؛ هم وهى عندى أحسن من كل البغال حتى ولو كانت تحمل أخراجا من الذهب..

«الأمر ومافيه يارجال أن الشيخ جمعه يدافع عن أهله. هو عدم المؤاخذة يعرف اكثر من غيره أن أولاد أخته الأربعة من اكبر أغنياء البلد، وغناهم من النوع الكافر : أكبرهم مريس-، يتاجر

فى الحشيش والأفيون والبودرة والبرشام والبانجو لكنه لا يحمل شيئا، فكل مايفعله ان يبيع ويشترى فى الهواء، وناس أخرن يقبضون ويسلمون . أما أخوه مرسال فإنه يتاجر فى شرائط الفيديو الممنوعة، وكافة البضائع المهربة، منذ عشرين عاما، وأنتم تعرفون سرايته التى هى أنقح من سراية أخيه مريس. أما الآخ الثالث ششتاوي فعينى عليه باردة؛ يملك ست عربات نقل تريلات اقتناها بالرشوة والكوسة والفهلوة؛ حكايته تنكتب فى جرايد : كان طباخا عند مدير جمارك الإسكندرية؛ مدير الجمارك هذا حرامى عتل ، نادى عليه ذات يوم وقال له ياششتاوى تعال غدا وادخل فى المزاد الذى سينعقد فى الجمرك؛ فذهب ، ففهم أن المزاد مقام لبيع السيارات المحجوزة منذ شهور طويلة وعجز أصحابها عن تسديد جماركها أو تخليص أوراقها أو ماشابه ذلك من حفر ونقر يبتدعها الموظفون أصحاب الحل والربط للإيقاع بعباد الله لمص دمهم؛ الولد ذكى، فهم حقيقة الملعوب فدخل مشتريا لسيارتين من التريلات؛ المدير هو الذى دفع، لكن الولد جاء إلى البلد وباع نصف فدان هو كل نصيبه فى الميراث، وخلص مع المدير وأخذ السيارتين؛ كانتا قديمتين فى الأوراق لكنهما جديدتان على الزيرو كما يقول السواقون ؛ أطلقهما على الطرقات ؛ النقلة بالشئ الفلانى؛ العجل قواد يس تصب الفلوس بغير توقف؛ شهر والثانى جمع الولد ثمنهما

واكثر ، طغى وتجبر؛ مخه الشيطانى دبر له خطة ونفذها فى سيارة منهما كانت انهكت وعمرتها حراقه، فركبها ذات ليل ودخل بها فى صخرة من صخور جبل المقطم فعجنها ثم تركها وانصرف إذ إنه قد أمن عليها ؛ وبواسطة محامية طويلة اليد تعمل فى شركة التامين كسب القضية بالبولس طبعا واشترت له الشركة واحدة مثلها جديدة؛ وبواسطة نفس المحامية اشترى القديمة كخرده، فأصلحها؛ فى ظرف عام واحد أصبح يملك أسطولا للنقل الثقيل. الدور الباقى على أصغرهم باهى، إنه لعنة من لعنات الزمن وآفة من آفاته؛ شغلته صنع الطوب وتحميره وبيعه بالألف لأهل البلاد الذين ركبتهم عفاريت الرغبة فى البناء برا البلد فوق الأرض الزراعية؛ كل من سافر إلى العراق وعاد اول شئ يطلع فى دماغه بناء دار جديدة برا البلد، فلوس صدام حسين شوهت بلدتنا، إرتفعت جدرانا وأسقفا من الأسمنت؛ الولد باهى اذكى من جميع إخوته ؛ يركب دماغ العائد خاصة إذا كان يملك قطعة ارض زراعية، يقنعه أن العيش فى داخل البلد لم يعد يليق بمثله ، وأنه يجب أن يطلع على وش الدنيا، يقدم له قصراً مرسوما على الورق ببلكونات وترسينات - عقدة أهل بلدتنا كلهم - يشترى منه طين قطعة الأرض بمبلغ معقول ؛ يذهب رجاله فيخرطوا من قلبها مترين أو ثلاثة من الطين يحولوها إلى بركة لا تصلح للزراعة ؛ لا بأس طالما أن صاحبها

سيبنى فوقها؛ المصيبة انه عمل عملته السوداء هذه فى أرا ض لا ينوى أصحابها البناء لكنهم أرادوا فك عذرهم بمبلغ فانهد جبل الأرض وباظت؛ الولد الملعون لديه خبرة بأمور البناء والبنائين؛ وانت مدرس أو موظف لا خبرة لك بشئ عدم المؤاخذة؛ هو يريحك من كل شئ سيبنى لك هذه الدار مقابل مبلغ كذا؛ يسلمها لك على النجارة فحسب؛ وإلى أن يسلمها لك يكون قد سحب منك أضعاف ماتفق عليه، فالأسعار فى ازدياد كل يوم؛ يسلمك الدار بعد طلوع الروح لتقوم انت بصرف دم قلبك على الفقق والبياض والترميم؛ هو مع ذلك لا يتركك فى حالك مكتفيا بما سرق ونهب، لكنه يعرف متى يظهر ومتى يختفى ؛ يظهر فى عزّ ماأنت مزنوق تحاول تخليص نفسك من ورطة استكمال البناء الجديد؛ يحدثك عن هذه الدار القديمة وقلة جدواها، وأنها يمكن أن تنقذك من هذه الورطة بدلاً من مد اليد للذى يسوى والذى لا يسوى ؛ هو فى النهاية لابد أن يشترى دارك القديمة أنقاضا وبتراب الفلوس؛ يطلع منها بأخشاب تعتبر ثروة : أبواب وشبابيك وعروق وقضبان يبيعها وحدها بمبلغ كبير، غير الطوب الذى يجمعه ليعجنه من جديد ويحرقه؛ هو الآن لا يستعنى - عدم المؤاخذة - أكبر شخصية فى البلد، مع أنه لم يدخل مدرسة ولم يحمل شهادة ..

• كلنا نعرف هذا، وأخيرا يجئ خالهم الضلالى ويقول إنهم

وامثالهم من اللصوص جاءتهم بغلة العرش بأخراج الذهب مبعوثة من الله، ياسلام !.. المصيبة السوداء أن الناس يصدقونه مع انهم يشاهدون ويعرفون البير وغطاه . آه يابلد تولّد البغلة !..

«ولكن ماذا تقول ياعبد السلام إن رأيت البغلة قادمة بالفعل متوجهة إلى دار من دور البلدة ؟ جسمى يقشعر ، قلبى يدق كأننى اراها. هذه والله تكون اكبر نكتة فى الدنيا، ولو صحت تكون حياتنا كلها غلط فى غلط. أستغفر الله ، هى بالفعل غلط فى غلط ولا يفهم هذا سوى العيال المخلصين الصياع فيفوزون بكل شئ . أعطونى رجلا طيبا واحدا فاز بأى شئ فى هذه الدنيا الدنية...»

«إن كانوا يسموننى قاطع طريق فالحاج على داوود قاطع رقاب . هذا مايعرفه كل فرد فى البلد. الحاج على داوود ؟! ياخلق الله !! اللهم لا اعتراض . سبحانك وتعالى نهيت عن الربا، والحاج على داوود يعطى بالفايظ، يسلف المحتاج بكمبيالات يحجز على المحاصيل يأخذ بثمن الأردب الواحد ثلاث ارادب. مخازنه ليس لها حدود ؛ المحاصيل المخزونة لا تظهر إلا وقت الشدة لتباع بأضعاف أضعاف ثمنها وبتقبيل اليد. اليوم ظهرت له حيل جديدة؛ هذا الملعون المرضى عنه من السماء ضحك ويضحك دائما على عقول الناس؛ فالناس فى بلدتنا

العجيبة هذه على استعداد للإنضحاك على ذقونهم من الأغنياء؛ فكلما كنت غنيا - وإن تكن لصا - يثق فيك الناس ويصدقون كل ماتقول حتى وأنت تنصب عليهم ؛ فى يقينهم وهم ازلى بأن النصب والإحتيال صفة الفقراء المعدمين وحدهم أما الغنى فليس محتاجا للنصب والإحتيال ..

«من أول مابدأت الفلوس الكبيرة تجرى فى يد بعض الناس كان هو قد دبر لسرقتها - من أيام حرب اليمن، لما أولاد الفلاحين المجندين فى الجيش سافروا مع الجيش إلى اليمن بماهيات كبيرة جداً جعلت الأموال تهطل على البلد. بعد ذلك جاءت هوجة السفر إلى ليبيا والخليج والعراق.. تعال ياولد يافلان - هكذا يتدحلب الحاج بلحيته الشقراء المدببة المخططة بالأبيض الجبرى ، وبصوته الناعم - يأخذ الولد المسكين على جنب فى ركن من المسجد أو على المصطبة المواجهة لدكان السمنو دى : الدنيا لا أمان لها ياولدى ، والفلوس عصافير مالن توضع على الكف حتى تطير خاصة إذا وضعت على كف محتاج لم يرها من مدة طويلة ؛ القرش الأبيض ياولدى ينفع فى اليوم الأسود والقرش فى اليد لابد أن تظهر له كلاب الحاجة فتنهشه، القرش إن وجد يخترع لنفسه خرما يضيع فيه؛ فبدلا من ترك القرش يمشى على مزاجه فيذهب إلى غير عودة ؛ نمشيه نحن على مزاجنا فإن ذهب يعود بخلفة ذرية كثيرة تنفعنا؛ وأضمن

خزنة تضع فيها قرشك وانت مطمئن البال هى خزنة التجارة؛ فإن كنت غشيما فيها فهناك من هو أنور منك وأحرف؛ إعط العيش لخبازه ولو أكل نصفه؛ شف لك تاجراً أميناً يتقى الله وأعطه القرشين يضعهما فى عشه فيبيضان ، بشرط أن تتخير تاجرا شاطرا وغنيا وعينه ملآنه حتى لا يطمع فيك؛ هذه نُصيحة غالية لا تسمعها إلا ممن كنت عزيزا عليه؛ إن كنت تشعر انى محل ثقتك فإنى على استعداد لخدمتك بشرط أن يصبح هذا سرا بيننا ؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : استعينوا على قضاء حاجاتكم بالكتمان ؛ واللقمة التى تُفتش لا تؤكل ؛ والمكسب يحب الستر؛ والرزق ينفر من الفضيحة والفشخرة الكذابة؛ انا أعطيك فى السنة نسبة قدرها كذا ؛ لك أن تصرفها كل حول او تتركها مضافة إلى الرسمال الأصلى فيزيد المكسب بزيادة الرسمال ؛ هذا نظام ؛ فإن لم يعجبك فعندى نظام ثانى ؛ أشركك فى بقرة فى جاموسة فى أغنام فى جناين فاكهة ؛ يكون معروفا أن لك النصف، مكسب النصف نصرفه أولاً بأول أو تتركه لتشترك به فى شئ أكبر..

«مجرد قول هذا الكلام من الحاج على داوود فيه سحر للمستمع، خاصة إذا كان من الفقراء الأصلاء الذين لم يمسكوا فى حياتهم ورقة خضراء فتعودوا على الفلس؛ إنه يصير فى غاية الإستمتاع وهو يستمع إلى هذه النصيحة التى تضعة فجأة فى

موقع الرجال المهمين ذوى الأموال لدرجة أن الحاج على يحادثه نداً لند؛ يالها من لذة ؛ إن الفلوس الكبيرة إذا نزلت فجأة على الفقير المعدم فإنه لا يصرفها بسرعة نظراً لاحتياجاته المزمنة كما يتوهم المغفلون ؛ الواقع أنه ربما لا يصرفها ، وربما دفنها ليستمتع بوجودها ، ولا يقدر على انتزاعها منه إلا ثعلب كالحاج على ...

« رزق الهبل على المجانين يإخواتنا والمثل لا يكذب، فطالما أن هناك مجانين تصرف تتبغدد تعيش حياتها بالطول وبالعرض فلابد أن يكون هناك هبل حرموا أنفسهم من أرزاقهم لينتبه إليها المجانين الأذكياء فيستولون عليها بصنعة لطافة. الحاج داوود هو أعقل هؤلاء المجانين ؛ يستولى ولا يصرف ، داؤه جمع الفلوس بأى شكل ، زاهد مع ذلك لا يحب المظهر ؛ يستطيع أن يركب الطائرة والصاروخ فى تنقلاته الخاصة؛ لكنه نبذ كل أنواع المواتير واعتبرها رجسا من عمل الشيطان؛ إشترى لنفسه بغلة عفية ، يركبها فى جميع مشاويره وتنقلاته ، فوقها سرج منجد نصف تنجيد ؛ فى إحدى يديه لجام وفى الأخرى شمسية تتحول إلى عصا فى معظم الأحيان؛ فيبدو لمن يشوفه من بعيد كأنه عطار سريع ينتقل بين الأسواق . الأكادة أنه الوحيد الذى يحرص الجميع على حياته ؛ لأن مصارينهم فى بطنه من جهة ، ولأنه دحلاب ناعم من جهة ثانية؛ وكل الناس يحبونه حتى الذين

يشتمونه فى غيابه هم أول من يمدحه فى حضوره. ولو تجرأ أى مخلوق ورفع صوته عليه بالزعيق يطلع فيه ألف كلب ينهشونه . كما أن له قبيلة من العيال؛ قسما بالله لا يعرف أسماءهم إلا إذا اكتشف دم أمه على وجهه وهنا يسهل عليه مناداته بقوله إزيك ياواد يالبن فلانه ؟ ولو قلت لواحد من الناس إن الحاج نمته واسعة ، يهب فى وجهك مائة واحد : ياراجل حرام عليك ! إنه يستخسر فى نفسه كوب الشاى والسيجاره ! فلوسك فى الحفظ والصون لا تخف !!.. فما يغيظ فعلا أن كل واحد يتوقع أن كل واحد له فلوس عند الحاج ؛ حتى كدت أقتنع أننى الآخر لى فلوس عند الحاج المديوب هو الآخر يتقنها بالورع والتقوى. أمنيتى الآن أن أعرف : ماالذى سيفعله بكل هذه الأموال ؟ هل سيبنى بها دولة جديدة ؟..

« الحاج على داوود ؟! إستعنت عليه بالله .. ولكن على مهلك ياعبد السلام . شف كيف دحرجك إبليس حتى صرت فى مدخل البلدة علنا دون أن تخاف ؟.. طب.. تصدقوا بالله ؟ والله ومالكم علي يمين، إننى أشعر أن البغلة ستجئ لى ، باعتبارى قاطع طريق إبن ليل. وإذا لم تجئ لى هذا العام، فمن عاش يرانى أشد وساخة من كل الذين جاءتهم »..

٤- خَلْخَلَهْ

«.. والله إنى ليمنعنى الحياء من قوله إنى أستحقها . لست من البجاحة والصفاقة حتى أستدرك على الله سبحانه ؛ فسبحانه يعرف إن كنت أستحقها أم لا ...

«صحيح أننى أشعر بينى وبين نفسى أننى أستأهلها عن جدارة واستحقاق، وبمسوغات كثيرة. لكن الله له تصريف آخر، ورأى آخر؛ فلربما كنت فى نظره أستحقها ولكن الأوان لم يئن بعد. إننا فى وزارة التربية والتعليم ننتظر حقوقنا فى الترقية سنوات وسنوات، ومع ذلك لا نشكو؛ أو بمعنى أصح لا نلحف فى الشكوى مع أننا نشكو العبد للعبد؛ فمن باب أولى يتعين على العبد منا أن ينتظر دوره فى الترقية الإلهية بكل أريحية وسرور، فلا نستعجل ؛ لأن فى استعجالنا سوء أدب على الله سبحانه وتعالى ، فهو يعرف متى يبعث الفرج ومتى يسحبه تبعا لتصاريفه التى لا نفهمها نحن العبيد ..

«ثم علينا أن نتذكر شيئا ربما غاب عن فطنة هؤلاء المجانين

من أهل بلدتنا : هل البغلة قاصرة على بلدتنا فقط ؟ أم أنها مجهولة لكل الموعودين فى كل البلاد ؟ وهل هى بغلة واحدة ؟ أم أن لكل بلدة بغلة خاصة بها ؟فى ظنى - وبعض الظن إثم - أنها أكثر من بغلة ؛ تتوجه جميعا فى ليلة واحدة فى اتجاهات متعددة، لأنها لو كانت بغلة واحدة لما جاءت بلدتنا إلا كل قرن من الزمان ؛ وهذا ماينقضه الواقع، فالواضح أنها فى كل عام تجئ لواحد من أهل هذه البلدة ؛ وإلا فمن أين يثرى كل هؤلاء الذى كانوا كحيانين لا يملكون اللضى ؟! مابين فقرهم المدقع وثرائهم الفاحش غمضة عين، لا تتسع لتجارة تقيم الأود بله أن تجمع ثروة. فهى إذن - ولابد أن تكون كذلك إذ لا تفسير لها غير ذلك - ثروة هابطة عليهم من السماء وليست نابعة من الأرض ..

« سأفكر معك .. سأفترض أنهم لصوص سرقوا هذه الثروات فمن أى نبع ياترى يسرق كل هؤلاء كل هذه الثروات ؟! حتى لو اقتنعنا بأنهم سرقوها ؛ فإن السرقة نفسها لابد أن تكون قد تمت على مدى زمن طويل. وإلا فمن غير المقبول منطقيا أن هناك نبع لا ينضب يسمح للسارق أن يغترف منه بسهولة وبساطة مايشاء فى أى وقت يشاء بالقدر الذى يشاء. لابد من مغارة كمغارة على بابا الشهيرة فى برنامج الراديو الذى لا يكف عن إذاعتها باستمرار كأنها القرآن الكريم. ولابد أن هذه

المغارة قد اكتشفها الوف الكحيانين من أمثال على بابا، الذى بات - بعد الضنى - لا بسا حريرا فى حرير. والكنز طالما قد أصبح معروفا لكل هذا العدد من المحظوظين ؛ فإنه لابد أن ينكشف أمره لعامة الناس؛ ولو كان هذا صحيحا لكان زمانهم اكتشفوه من وقت مبكر...

« قناعتى أن للسماء دخل بالفعل فى إثراء هؤلاء الناس، لأنه لفحشه ثراء لا يتحقق إلا بتأييد إلهى، تحميه السماء وتحفظه من الضياع تنفخ فى صورته باستمرار، تحوطه برصد سحرى يمنع عنه عيون مصلحة الضرائب ومنافذ الخسران؛ وتلك لعمرى معضلة لا يملك غير الله تفسيرها؛ إذ كيف لا يدفع الضرائب فى بلدنا سوى الفقراء والمعوزون ؟! إن أراد واحد منا تدخين سيجاره دفع ثلاثة أضعاف ثمنها للضرائب؛ وإن جاع لقطعة لحم دفع عقابا شديدا للضرائب ، حتى لو اشتاق من نفسه لدخول السينما فى البندر دفع فوق التذكرة غرامة باهظة للضرائب؛ الضرائب تلاحق الواحد منا حتى فى فراشه؛ والذى غطى ووطى هو ماستجد علينا ولم نكن نسمع به من قبل واسمه ضريبة المبيعات؛ يعنى أنت تدفع ثمن الشئ الواحد عشرين مرة ؛ فإن حصلت عليه وجدته تالفا مغشوشا ؛ فى حين يتمتع هؤلاء الأثرياء بكل شئ بالمجان بل ويأخذوا أجرا على استمتاعهم..

«أليست هذه – بالعقل يعنى – مشيئة إلهية ؟ وإلا فهل يعقل – بمنطقنا الدنيوى القاصر– أن رجلا مثلى انفق عليه أهله دم قلوبهم ليتعلم فى المدارس حتى أصبح معلما له ملف فى الدولة مكتوب عليه بالخط الكبير : راضى افندى العسلى ؛ ثم ناظر مدرسة ابتدائية تتخرج على يديه الأجيال ؛ ثم يصبح بكل علمه مجرد برطوشة فى قدم زبال لا يفك الخط ولا ينفع المجتمع بأى شئ ؟..

«نعم ! فإذا كان الزبال يدفع مرتب راضى افندى العسلى كله فى غدوة ، ويأتينى ليلحق ابنه البليد القذر بالمدرسة فيشترى التخت والمدرسين ويأخذ إبنه فرصة ولد نجيب لبيب إبن ناس طيبين محترمين أهل علم طول حياتهم .. إذا كان الزبال هذا وضعه فلست أنا ومفتشى ووزيرى نفسه إلا برطوشة قديمة فى قدميه..

«ولكن منذ متى كانت بلدتنا تعرف نظام الزبال ؟ طول عمرنا نرمى بالقمامة على الأكوام وفى الغيطان فكانت تخصب الأرض؛ لكننا أردنا أن نقلد أولاد البنادر ؛ أول ماشطحنا نطحنا ؛ جاءت المدنية على دماغنا ؛ فبدلا من أن يشكرنا الزابل على القمامة التى سنعطيها له ليستخرج منها أشياء يبيعها بالذهب ؛ أصبحنا مطالبين بأن ندفع له فوق القمامة أجراً شهرياً ثابتا يحق له أن يزيده حسب مزاجه وقتما يشاء . لو كنت أعلم أن الزمان

سينقلب على دماغنا هكذا بمجئ وجه الشؤم أنور السادات لامتنعت عن شقاء الدراسة واشتغلت زبالا ، ولأصبحت الآن مليونيراً مثله ..

« دعك من الزبال فهو ليس أسوأ من غيره. المصيبة أننا انفسنا قد صرنا قمامة ؛ وغدا نأكلنا ديدان الأرض ممتعضة من طعم لحمنا المزز الفج. مصيبة بلادنا الآن جاءت من تسهيل العلم؛ بغير نظام، وبغير حدود، وبغير فلسفة معينة تحكمه. لست طبعا ضد انتشار التعليم وأنا معلم كنت فى الأصل ابن صياد يصطاد السمك بشبكة يحملها مع العليوة على كتفه ليجول بها بين شطآن المصارف والأبحر البعيدة؛ ليؤوب فى هدأة الأصيل قبل مجئ الشفق؛ فتخرج أمى بعد قليل حاملة على راسها بعض أطباق غطيان حلل ومصاف وزعت عليها الأسماك بحسب أحجامها وأنواعها وقد غطيت جميعها بأوراق الخروع الخضراء. ماعليها – أمى – سوى أن تسير فى شارع داير الناحية ؛ فلسوف يصادفها من يستوقفها ليتفرج على هذه الشروات الطازجة . من شروة قراميط إلى شروة بلطى إلى شروة شرّ صغير تقفل أمى عائدة بثلاثين أربعين قرشا، ندخر منها ثمن الطحين وثمن الكسوة وثمن الأسبرين وثمن مصروفاتى المدرسية.. فلا يعقل إذن أن أكون ضد انتشار التعليم، إنما أنا ضد عدم تنظيمه وعدم تخصيصه. الحاصل أننا

فتحنا أبواب الجامعات والمعاهد العليا على مصاريعها، حولناها إلى مدارس كمدارس القرى تدلق كل عام ألوف الخريجين باسم الحقوق والطب والهندسة والآداب والعلوم والزراعة ؛ والمجتمع أمي مع ذلك ليس فيه مؤسسات تستوعب كل هؤلاء ؛ فضلا عن أنهم أكثر أمية من الذين لم يدخلوا الجامعة. حولنا الشباب إلى طلاب؛ حرمنا هم من الأعمال الميدانية والحرفية تحت أرض من العلم الملائم . لدينا الملايين من حملة الشهادات والألقاب والأوسمة لا تأثير لهم ولا وجود إلا فى حدود وظيفية صرفة. فكيف نستغرب حين نظل طول عمرنا - نحن الذين تعلمنا- مجرد كائنات هامشية من الدرجة السفلى؛ أما الزبال وأمثاله من السباكين والعربجية والبلطجية وتجار المخدرات والسوقة والسماسرة فهم الذين يقودون المجتمع كيفما يشاءون ؛ لأنهم قوام الحياة الفعلية كما أنهم نتاجها ووقودها ومحركها. أما نحن وأمثالنا ، فلنا أن نشتغل بالسياسة فنقيم الأحزاب لتتطاحن بعضها البعض مختلقة أعداء وهميين إذ إنها لا تجرؤ على معاداة الحكومة وفى نفس الوقت لا تحب فقدان المركز والمظهر والمأوى. لنا أن نكتب فى صحف وفى كتب ونؤلف ونغنى ونمثل ونفعل كل مايحلو لنا ؛ ولكن لن يكون لنا أدنى تأثير فى تغيير المجتمع أو عدل موازينه فلا .. إبقى قابلنى ..

«تعرف ماالسر فى انحطاط الرجال الآن ياراضى افندى ؟

هكذا أسأل نفسى دائما وأجيب : السر فى منتهى الوضوح يارجل : إنفتاح الجامعات بالمجان جلب كافة أبناء الدرك المنحط من المجتمع فأعطاهم شهادات عليا أعطتهم جوازات المرور إلى مراكز كان يشغلها من قبل أمثال طه حسين وعلى عبد الرازق وسعد زغلول وعرابى ومكرم عبيد وطلعت حرب وغيرهم من الرجالات الأفذاذ. المركز لا يعطى لشاغله الكرامة ياأفندى ؛ إنما شاغله هو الذى يضفى على المركز مركزه كرامته احترامه لنفسه. مافائدة أن تكون فى مركز لا يصح أن يشغله إلا المحترمون وأنت عدم المؤاخذة أصلا غير محترم لا تعرف معنى الكرامة لم تجرب طعمها يوما واحدا لم تذق حلاوة العزة حلاوة الحرية المرتبطة بالرجولة بالثبات على المبدأ ؟!..

«إنهارت كل المراكز ياناس، منذ شغلها المنهارون أولئك الملعوب فى أساسهم . فرّطوا فى كل شئ دونما شعور بالحرج بله الشعور بالمسئولية . لا بأس - ولا جناح فى نفس الوقت - أن يرتشى القاضى ليسكن فى شقة يركب سيارة توصله إلى شغله كأى زبال. فلأول مرة فى تاريخ مصر ياجدعان، وربما فى تاريخ العالم، يعجز المرتب الشهرى عن توصيل المواطن إلى مقر عمله. قديما كنا نسخر من ضعف الأجور بقولنا إن الواحد منا يعمل بأكله فحسب؛ اليوم حق علينا القول إن الواحد منا يعمل بأقل من أجرة مواصلاته إلى مقر العمل !!..

«ياناس ، من ذا الذى يحاكم المفسدين فى الأرض غير الأكثر فسادا وإفساداً ؟ اللص الكبير هو الذى يحاكم اللص الصغير وأحيانا العكس ؛ فما أسهل أن يكون زيتنا فى دقيقنا . كم عدد الذين نهبوا الملايين وهربوها ثم هربوا أنفسهم وراءها إلى الخارج ؟ إنهم بعدد أوراق الصحف منذ قيام حكومة الإنفتاح إلى اليوم ؛ منذ رحيل الذى كان يضفى على المركز احترامه ، وقيام الذى يستمد من المركز احترامه . منذ ذلك التاريخ ، لا اللصوص والمختلسون كفوا عن السرقة والإختلاس ، ولا المسروقون تذمروا !! أصبح الفساد باباً ثابتاً فى الصَحف ، أصبحت أخباره ضمن أخبار المجتمع ؛ فخبر اختلاس فرد لمؤسسة كاملة أو لوطن بأكمله يتساوى مع خبر فوزه فى انتخابات النادى الأهلى أو مجلس الشعب كلاهما مجرد خبر؛ وانكشاف المستور عن السارق لا يعطله عن السرقة، ولا يغلق فى وجهه أبواب المناصب بل ربما يرقيه إلى منصب أعلى !!.

«كيف بحق الله أرى كل هذا وأدركه ثم أحاول فرض الضبط والربط على المدرسين الغلابة الذين يعملون تحت نظارتى ؟! بأى عين أقول للمدرس لا تعطى دروسا خصوصية ، لا تمارس نظام المجموعات ، لا تقبل أى تبرعات . منذ وقت طويل كنت أؤنب نفسى دائما لأنى لا أفعل هذا ، ويأكلنى ضميرى على تسامحى فى مصلحة التلاميذ النجباء الغلابة ينصرف عنهم اهتمام

المدرسين إلى أبناء الأثرياء رغم بلادتهم. هل ترانى الآن أستحق أن أضرب نفسى بالحذاء لعلمى أن هناك مدرسون يمارسون الفحشاء مع تلميذاتهم الصغيرات فى دورات مياه المدرسة ، ومع أمهاتهن فى البيوت أثناء الدروس الخصوصية ؟ وأن هناك تلاميذ أطفال من أبناء تجار المخدرات والزبالين يشربون السجائر الملفوفة على الحشيش والبانجو ، ثم يلوطون بزملائهم من الضعفاء المحتاجين ؟ وأننى قد كتبت التقارير وشكوت وفصلت حتى انقلب الميزان ضدى وكاد الأشرار ينجحون فى إقصائى. إن البنت المفعوصة التى صرخت تستنجدنى لإنقاذها من هجمة الغول فوقها قالت فى محضر التحقيق إن هذا لم يحدث !!

أليست هذه من علامات الساعة ؟! ولولا أن الفراشين وبعض التلاميذ سمعوها وشهدوا بصدق الواقعة لكنت الآن فى حيص بيص..

«المصيبة أن السكوت السلبى فى مثل هذه المواقف يشجع الفاسدين على التضافق عليك ومحاولة إغوائك ليطول الدنس ثياب الجميع فلا أحد أحسن من أحد. الحمد لله انى لا ازال قادرا على شكمهم وردهم خائبين بفضل قوة إيمانى وصدق ونقاء سريرتى وحسن تربيتى . إنى لم أعد أنتظر المكافأة إلا من الله إنه عليم خبير ...

«كثيرا ماراودتنى نفسى فى أمر السفر إلى بلاد النفط، فلى

دور رسمى مثل زملائى فى الإعارات . لكن المناظر التى أراها فى غيبة الرجال تمنعنى تلقى فى قلبى الرعب : نساء يتلقين عرق أزواجهن المغتربين لكى ينفقنه على عشاقهن فى وضح النهار.. أطفال يتشردون بغياب الرادع.. صبيان تفسدهم كثرة الفلوس فى أيديهم بعد حرمان .. شبان يعودون من السفر شيوخا تغضنت وجوههم وهزلت قواهم ولمْ يفوزوا بأكثر من مطرح للسكنى . فهل كنت أقبل ترك أولادى وهم فى سن حرجة من أجل أن أعود لهم بحفنة من الدنانير ؟ إن أى مال مهما عظم حجمه لا يعوض الإبن فقدان الأب شهرا واحدا ؛ ولا يداوى جراح امرأة محروقة ، ولا يبث الحياة فى فتاة أنفقت زهرة شبابها فى انتظار مسكن تبدأ فيه العد التنازلى لشبابها. وعلام السفر وقد توفرت فى البلاد فرص الكسب بغير حدود ؟.. صحيح أن الكسب الكبير داخل البلاد ربما جاء من طرق غير سليمة غير مشروعة فإن الكثيرين من الناس قد أصبحوا يؤمنون بحقيقة أنك إذا عشت فى مجتمع لا يعرف الله فلا يكون هناك تهمة بالكفر. وسواء جاء المال بالغربة أو بالنهب فإن النتيجة واحدة ؛ فى كليهما يخسر الإنسان نفسه وأهله وبلده ، يتحول إلى شخص آخر..

«شوفوا ياجماعة : ليس أشنع ولا أخطر على الإنسان من الثروة المفاجئة التى لم يثاقلها فى الكفة المقابلة جهد وصدق

وعرق وتقوى..

« شوفوا ؛ هى كلمة : لا توجد فى الدنيا كلها ثروة بريئة . الثروة المنزهة عن الإثم لم توجد بعدولن توجد. وهذا المعنى الذى أومن به هو فى الواقع مايجعلنى أميل إلى تصديق حكاية بغلة العرش هذه صحيح أكاد أعرف الأسباب الحقيقية وراء ثراء كل ثرى فى بلدتنا وأكاد أحدد مصادر كل ثروة غير طبيعية ظهرت فى بلدتنا ؛ إلا أن الحكمة فى بغلة العرش واضحة ورمزها جلى؛ فالبغلة تحمل الخرج الملآن بالذهب ؛ وتحمل فوق الخرج رأس قتيل حى يئن طوال الطريق. وفى يقينى أن الشيخ جمعة قد أخطأ فى تفسير هذا الرمز ؛ لقد تبنىّ التفسير الشعبى الذى روته لى جدتى قطيفة وأنا طفل صغير حينما روت لى قصة هذه البغلة حينما شاع ثراء الحاج على داوود المفاجئ ، حينما وجدوه فجأة يشترى الفدادين ويبنى المخازن والدكاكين والدور؛ وهو الذى كان منذ قليل يجلس أمام داره بلبشة قصب يبيعها بالعود مقابل حفنة من القمح أو كوزين من الذرة. وإذا كان قد تحول إلى تجارة الحبوب فإن أحداً لم يكن يتوقع له هذه القفزة الشنيعة . وعندما سألت جدتى عن الحكمة من وجود رأس قتيل حى يئن طوال الطريق فوق خرج الذهب قالت : لكى يخيف من يرى البغلة فيتركها فى حالها ويتوارى بعيدا عنها درءا للتهم..

«كنت قد نسيت هذه الحكاية لكننى لم أنسها تماما ؛ بقى

منها فى ذهنى رأس القتيل الحى الذى يئن. الآن انتبهت إلى هذا الشرط الذى بَرْوَزَتْه جدتى بقولها على لسان البغلة : الشرط قبل الحرث ! تاخد الجمل بما حمل ! يعنى الخرج ! وراس القتيل !.. طب وإذا أخذ الموعود الخرج وترك راس القتيل ؟.. تقول جدتى : ها ...ا.....ا....ه ! تظنها سايبه ؟ إذا ترك راس القتيل فإن البغلة تظل واقفة به حتى الصباح وهو يئن ويفضح فتتحول الهدية إلى جريمة فى عتبة الدار ..

« الآن فقط أفهم حقيقة مايعنيه رأس القتيل الحى من رمز . كدت أشرحه للشيخ جمعه فى خطبة الجمعة، أن أقول لكافة المصلين : إن السماء بعدالتها تضع الثروة مقرونة برأس القتيل أى بالجريمة ؛ والسماء إذ تخير الموعود بين أن يقبل الجمل بما حمل يعنى الثروة والجريمة ، أو يرفض الصفقة من أساسها ، معناه أن الثروة ملوثة بالدم؛ ومن يقبلها مدان ؛ يكفى أنه يدفن فى عقر داره رأس قتيل سيظل منظره ماثلا فى عينيه إلى يوم يقابل ربه ، فيسبب له الكدر والقلق يجلب له الأمراض، يكون نذيراً بأنه أصبح على استعداد لأن يقبل الكثير من رءوس القتلى ؛ فمن يدفن رأس القتيل فى عقر داره مرة يظل طول عمره يدفن رءوس قتلى مع كل قرش يكسبه أو ينفقه ..

« كان لابد من شرح هذا للناس ، لكى يعلموا أن مجئ الثروة على هذا النحو ليس يعتبر هدية سماوية يتعين على الموعود قبولها شاكرا حامداً ؛ إنما هى اختبار إلهى واضح تمام الوضوح

هل تقبل الذهب ومعه رأس القتيل ؟ فإن هو قبل الصفقة المدنسة فهى ليست حلالا عليه كما يتصورون . من يقبل البغلة فإنما يكون قد قبل الجريمة وحمل مسئوليتها النهائية إلى الأبد. وإذا كان أثرياء بلدتنا فى هذا العصر المنفك الأواصر قد قبلوا رأس القتيل من أجل خاطر عيون الذهب فإنهم بالضرورة مجرمون. ولابد أن الأنين الصادر عن رءوس القتلى تتردد أصداؤه خلف كل مظاهر الثراء الفاحش التى أغرقت بلدتنا؛ غير أننا لا نسمعها من شدة الضجيج والصخب ؛ حيث يمتلئ الأثير بأصوات لا حصر لها وكلها زاعقة مدوية ..

« آه لو تمكنت من تنبيه كل هؤلاء المجانين إلى أنهم جميعا مستعدون لقبول رأس القتيل ظنا منهم أن السماء تشرعه وترضاه . كيف يعرفوا أنهم إن كانوا مؤمنين حقا وعلى شئ من التقوى فإن السعادة تغمر السماء لو أنهم اعتذروا عن قبول الثراء المشروط برأس القتيل ..

«منذ متى كان الله يحب عباده الأثرياء ثراء فاحشا ؟! إنه سبحانه يحب الزاهدين الأتقياء ؛ عز من قنع وذل من طمع. كان لابد لشيخ يقف على المنبر أن ينبه إلى هذا. تلك هى مصيبة الخطباء الجاهلين . اليوم فقط عرفت السر فى أن البغلة لا تجئ للشرفاء أبداً، ولا للأتقياء المؤمنين الذاكرين؛ لأن السماء واثقة من صدق إيمانهم ؛ ولعلها جاءتهم ورفضوها ؛ إنما هى تجئ

دائما لأولئك الضعفاء ، لكى تضاعف من ذنوبهم ؛ تعطيهم سلاح الفسق والعصيان. لقد وجدتنى اقول لنفسى بعد اقتناعى بهذه الحقيقة : الأفضل ياراضى افندى ان يراك عدد كبير من الناس تسير الان فى الشوارع ليعرفوا أنك لا تنظر شيئا؛ وأنك من الزاهدين العقلاء ؛ فلعلهم بك يقتدون . أجمل من هذا اننى كنـــت واثقا بأنى ســــأجد نظائر لى تســهر الآن على هذه الطابية »...

٥- زَغْلَلَةْ

«مالكم تبحلقون فى هكذا ؟! نعم أنا الدكتور عبد العال الشريف طبيب هذه الوحدة الصحية. دخلت سريرى بعد الفطور لكنى أرقت ارقا سخيفا سمجا. جلست فى الشرفة ؛ رايتكم تتجمعون على الطابية ؛ أعجبتنى الفكرة ؛ إشتقت لهذه القعدة؛ جئتكم . أنتم إذن لا تنتظرون بغلة العرش ؟!..

«أنا ؟! لا شك طبعا أننى أتمناها ؛ لكنى لست فى انتظارها ، ولن أكون . أنا على فكرة سمعت حكاية هذه البغلة منذ مدة ؛ أظن أن أمى حكتها لى؛ وأبى أيضا، مساه الله بالخير، حكاهالى فى شبه اقتناع بوجودها. هو عمدة لكنه شيخ طريقة كما تعرفون لا أدرى كيف يجمع بين الحاكم والمتصوف !.. الجمع بين هذين النقيضين مستحيل إلا فى أبى فإنه أعجوبة الأعاجيب لأنه استطاع أن يحول كل أهل البلدة من مواطنين خاضعين لحكمه إلى مريدين منجذبين إلى طريق الله على يديه ..

« المناسبة كانت ابن بلدكم الحاج على داوود. أظن أنه يومها

كان فى بلدتنا ؛ أقصد فى دوارنا ، مع أبى، يكتبان عقد بيع قطعة أرض يشتريها من ابن عم لى. وكان أهل بلدتى كلهم مندهشين من دفعه للثمن كله نقداً؛ لأن الجنيه أيامها فى حنك سبع ؛ والحاج على داوود كان معروفا لنا من قبل كرجل كحيان لا وراءه ولا قدامه. الآن كل فلوس أهلكم فى عبه، يتاجر بها ، يدخل فى مشروعات يكسب منها الملايين، يعطيكم فى النهاية لقمة من الفائض. أصبح الآن يتاجر فى كل شئ؛ يصدر البصل والثوم والأرز والقمح والفاكهة إلى بلاد الكفرة ويحرمكم منها.. المهم أن أبى حكى لى أن بغلة العرش جاءته أكثر من مرة، وأن داره القديمة تحت أرضها كنز وعدد من رءوس القتلى ..

« الله يسهل لعبيده لكن مايدهشنى أن الناس ينتظرون هذه البغلة على الدوام . أعرف بين مرضاى ناسا طيبين ينتظرونها منذ عشرين سنة، بل يعتمدون على الله وعليها فى تسديد ديونهم وتزويج أبنائهم ؛ واثقون هم من قدومها..

« والله لا أعرف لماذا الإنتظار مع أنها تقابلهم فى الحياة كل يوم وكل ساعة ؛ فى إمكان الواحد منهم أن يأخذها متى أراد ؛ كل ماعليه أن ينتبه لوجودها.. انا شخصيا قابلتها فى حياتى العملية كثيرا لكننى هربت منها وجئت إلى بلدتكم هذه !!..

«سأقول لكم كيف. ولكن، عفوا؛ أحب أن أقول ، وفيكم من هو اكبر منى سنا وتجربة : إن كل واحد منكم يلتقى بغلة العرش

هذه فى شغله ولكن بصورة أخرى. هل تفهموننى ؟ بغلة العرش منتشرة فى بلادنا من زمن طويل؛ وبأشكال متعددة..

« أرجوكم لا تندهشوا هكذا، فأنا لا أتفلسف فلسفة كدابه. هذا ليس كلام أفندية مثقفين ؛ فأنا كما تعلمون مازلت فلاحا إبن فلاح ..

« الحكاية ومافيها أننى صدمت فى المدنية وأفنديتها؛ أنا ابن شيخ الطريقة أعدنى أبى لأكون خليفته ولسوف أكون فى يوم من الأيام إن أعطانى الله عمرا حتى لو صرت أشهر الأطباء. الطب فى نظرى مهنة الملائكة والقديسين..

«لم أخرج عن الموضوع ولكن هذه مقدمة لابد منها قبل أن أقول ماسأقول..

«تعرفون أننى جراح ؛ تدربت على الجراحة طويلا؛ ساعدت أشهر الجراحين ؛ الطريق لا يزال مفتوحا امامى لأصبح جراحاً شهيراً لكننى نفرت من الشهرة والمكاسب الطائلة لأن ضميرى نقح على بشدة فكرهت القاهرة كلها ؛ فلقد أصبحت الآن مستعمرة لكل الموبقات والمحرمات ..

«إستمعوا لى من فضلكم . اول مستشفى خصوصى كبير اشتغلت فيه كان كل شئ يسير على مايرام فى الظاهر : الزبائن كثيرون ، فالمستشفى أشبه بالفندق الفاخر كنموذج مصغر للجنة إلا انه غير مخلد مثلها . فيه عيادات لأمراض

النساء والباطنة والأسنان والعيون والنفس، وصاحبها ثرى مشهور، من عائلة كبيرة معروفة بالعز قبل ثورة يوليو، ومتزوج من إبنة وزير داخلية سابق، إستطاع الحصول على الأرض المقامة فوقها المستشفى بثمن بخس فى أهم منطقة فى العاصمة ؛ كما أنه أستاذ فى الجامعة ويرشح نفسه كثيرا فى انتخابات النقابة ويكتب فى الصحف والدوريات الطبية.. لاحظت أن تسعين فى المائة من زبائن المستشفى - بعد السياح العرب المتمارضين بلذة كبيرة - فتيات صغيرات ، مابين السادسة عشرة والعشرين من العمر؛ بعضهن يبدو عليهن الثراء الفاحش. وبعضهن غلبانات رغم الملابس الثمينه التى يرتدينها؛ معظمهن يصطحبن الأثرياء من رجال الأعمال؛ بكوات أجلاف يركبون المرسيدس ..

« راقبت الأمر ؛ لاحظت أن هؤلاء الفتيات فى عيونهن عهر أصيل، والفحش واضح فى حركاتهن وملابسهن الشفافة وأجسادهن المتهتكة - وعشرات المرات حضرت لحظة دفعهن للفوزيتة ؛ فإذا بالواحدة منهن تدفع من ثلاثة آلاف جنيه إلى خمسة آلاف ؛ مع أن العملية التى يختفين لإجرائها فى غرفة مستحكمة لا تزيد عن دقائق معدودة تخرج بعدها البنت موردة الخدين تندب فى عينيها رصاصة.

«المهم ظللت أدقق فى البحث حتى عرفت الحقيقة. ظننت فى

الأول مايظنه بعضكم الآن : أن يكُنّ يجرين عملية إجهاض . لكن عملية الإجهاض يعقبها هزال وتعب ورقاد ؛ كما أن الصبيات ليس يبدو عليهن الحمل..

«هل تعرفون ماالذى اكتشفته ؟!.. حضرة الطبيب المحترم ، الذى من المفروض أنه أب يعلم الأجيال فى الجامعة مبادئ الأخلاق والمثل العليا قبل تدريس الطب ؛ كان يجرى لهن عمليات ترقيع..

«ترقيع ماذا ؟ أقول لكم : هؤلاء الفتيات فقدن غشاء البكارة نتيجة ممارستهن الجنس فى الحرام؛ فجئن إلى الطبيب النطاس ليخيط لهن غشاء البكارة بوضع رقعه تسده من جديد الطبيب المحترم، وهو يعرف أن هذا ليس تخصصى؛ لما رآنى مهتما بمنظر فتياته فهمنى خطأ ؛ ظن أنى من بتوع النسوان. فلما تأكد انى لا أؤجل فرض الصلاة دقيقة واحدة ظننى من هواة عمله، فإذا به يعرض على أن يقوم بتدريبى ؛ حاول إقناعى بأننى يمكن أن أدرس أمراض النساء والولادة فأحصل فيها على دبلومة إضافية فأحوّل بذلك مجرى حياتى إلى كنز من الأموال لا ينفد..

«الحق أنه أغرانى. قلت : فلأجرب ؛ خاصة أنه أغرانى بعمولة كبيرة لقاء مساعدته. حذرنى بعض الزملاء الطبيين ولكن بطريقة مرحة ساخرة ، وغامضة ، ومريبة أيضا. قالوا لى : لقد ظنك تتجسس عليه فأراد شراءك من ناحية وتلويثك بنفس

الفعل من ناحية أخرى ؛ فكأنهم أثاروا اشتياقى لمعرفة مايفعل من أفعال غير مشروعة ..

«دخلت معه غرفة العمليات مرة واحدة . رأيت مالا يمكن لمثلى أن يتقبله : الفتاة الجميلة كالقمر كالغزال تبدو بنت ناس؛ تتعرى تماما، تتمدد على طاولة العمليات رافعة ساقيها كما لا ترفعها إلا زوجة لزوجها فى الفراش فى الظلام. الأضواء المبهرة تسلط على فرجها الذى انفتح عن أخره بعد أن ربطت كل ساق فى ذراع حديدى. وبعد بنج موضعى ثقيل ؛ يمتد المشرط ليكشط من كل شفرة من الشفرتين – اللتين من الواضح انهما اندعكتا حتى تورمتا – يكشط شريحة رقيقة جدا فى رقة ورقة البافرة ؛ يضم الشريحتين إلى بعضهما على هيئة كوبرى؛ يخيطهما ، فيصنع بذلك غشاء بكارة يزداد تماسكا بعد أيام قليلة؛ وسرعان مايلتئم الجرح ببعض عقاقير بسيطة. فى ظرف شهر يصبح من حق هذه الفتاة أن تتزوج باعتبارها عذراء بختم ربها لم تمس !!..

«صدقونى انى نادم على رؤية هذا المنظر حتى الآن.. والله كدت أضرب نفسى بالنار ذات لحظة. أنا الذى أستغفر الله إذا رأيت فخذا عاريا لفتاة عفوا، كيف رضيت برؤية العورة كلها هكذا ؟! يومها كاد يغمى على ؛ ولولا أننى شاب أعزب مكبوت الغريزة لفتحت الباب وخرجت، أو على الأقل داريت عينى. لكنه

الشيطان . بعد العملية ضحك – أقصد الطبيب – من اضطرابى ودهشتى ، وقال ماأذهلنى : فمن بين هؤلاء الفتيات من قامت بهذه العملية ثلاث أو اربع مرات على مدى بضع سنوات ..

« هاأنتم تشمئزون ؛ كان الله فى عونى على مارأيت . ماأثار فزعى أن الزملاء الذين نصحونى بعدم مطاوعة الطبيب إياه هم أنفسهم يتكالبون عليه ويتمنون مساعدته واختطاف الشهرة منه. إنهم تلاميذه لكنه لا يثق فيهم لأنه يرى فى عيونهم وحوش المستقبل الذين سيأكلونه فى أول طلقة حينما تكبر أنيابهم ولهذا فهو لا يعطيهم سره ولا يوزع عليهم إلا عمليات بسيطة ، ولكن هذه العمليات البسيطة تدر عليهم الألوف كل يوم ..

« آه لو تعرفون كيف يعيش هؤلاء الجزارون على حساب النساء الغلبانات الحالمات بالحمل والولادة. إنهن لقمة سائغة. الطبيب من هؤلاء يعرف أن الواحدة منهن فيها عيب لا يمكن إصلاحه طبيا على الإطلاق إذ أنه عيب خِلْقى. مع ذلك يظل يوهمها بإمكانية العلاج حتى يستنزف كل دمائها ودماء زوجها الحالم بالولد ..

«أحكى لكم حادثة رأيتها بعينى، طبيب من هؤلاء يعمل فى جهات متعددة. فى الصبح أستاذ وبعد الظهر جزار، بمعنى الكلمة من مستشفى إلى عيادة إلى مستوصف إلى خزينة البنك يكدس فيها الأموال . جاءته حالة ولادة متعسرة؛ قيل إن الحامل

ينتابها ألم المخاض منذ عشرة أيام بلياليها دون جدوى، وأن الداية يئست ، وأن زوجها الثرى شاء أن يلحقها بمستشفى استثمارى فى العاصمة نفسها متخطيا مستشفيات المركز والمحافظة، يعنى عنده أموال رخيصة عليه فنحن إذن – يقول الجزار – أولى بها ؛ فمادمنا نستطيع أخذ الفلوس بسهولة فلما نتركها ؟!.. المهم جاء الزوج بزوجة فحولها الطبيب الكبير – لكثرة انشغاله – إلى الطبيب نصف الكبير الذى أحدثكم عنه. حتى ذلك الحين كنت لا أزال صديقه. وكان له مساعد من عينتى . صاحبنا فحص حالة الزوجة فى الإستقبال وقال إنها محتاجة لعملية جراحية لا مفر منها، وأن هذه العملية تتكلف عشرين ألف جنيه، خلاف إيجار السرير فى المستشفى وبقية الخدمات. وافق الزوج فى الحال، فأحيلت الزوجة إلى غرفة العمليات، جهزت ، جئ بطبيب التخدير ليمارس عمله. ثم تركها فى رعاية مساعده المتدين؛ واستقل سيارته البويك إلى عيادة أخرى لينهى عملية أخرى تم تجهيزها له. قال إنه سيعود بعد ثلاثين دقيقة بالضبط، هى المدة التى تستغرقها عملية سريان المخدر. ماكاد صاحبنا يخرج حتى شعر مساعده أن حالة المريضة أخذة فى التحسن، وأن آلامها الظاهرة هذه هى آلام الوضع الفعلى؛ فتفاءل خيرا؛ إستمهل طبيب التخدير بعض الوقت لعل وعسى. طبيب التخدير هو الآخر خنزير ، كادت نظرته القلقة تقول : أنا جئت فلابد من

تقاضى الأجر على أى وضع. الزوج كان متعلما وذكيا وجميلا ، إنتحى به جانبا وأعطاه أكثر من أجره. إن هى إلا دقائق معدودة حتى حزقت المريضة حزقة أعقبها ألم ثم صراخ ساذج جميل الوقع؛ لقد تمت الولادة بسلام ..

«حينما دخل صاحبنا مشمرا عن ساعديه استعداداً لإجراء العملية وقبض الألوف الخمسة التى هى عمولته، فوجئ بالممرضة ممسكة بالمولود تحميه بالماء الدافئ. لا أستطيع وصف حالة القهر التى حطت على وجهه ؛ إختفى قناع الطبيب الرقيق الإنسانى، وظهر وجه الجزار المتوحش؛ لم يقل : حمداً لله على سلامتها ؛ بل اتجه إلى مساعده فقبض على ذراعه وانتحى به جانبا يجز على أنيابه قائلا فى غضب مكتوم :

– بدين أمك منش قادر تفتح بطنها وتسيبها لحد ماأرجع ؟!..

« قال لى المساعد وهو يوصلنى بعربته السيات إلى مسكنى :

– تصور أن هذا الجزار المتوحش يحترف هذه العملية ؟! يفتح بطن المريضة ثم يغلقها فى الحال دون أن يفعل أى شئ لأن المريضة أصلا ليس بها أى مرض وليست محتاجة لأى عملية !! لكن مجرد فتح البطن وتخييطها يعطيه خمسة آلاف جنيه !! عشر سنوات فقط عمره فى الطب ومع ذلك يملك عددا من العمائر فى مدينة المهندسين ولديه توكيل من إحدى الشركات العالمية لتوريد الآلات الطبية ! وله فى كل أسبوع عزومة كبيرة

فى فندق من الفنادق يعزم عليها محرري الصحف والفنانين حتي يظل اسمه مشهورا محاطاً بالبريق .. المجرم يسعى دائما لما يرفع ثمن جريمته !!..

« المصيبة ياإخوان أن الآفة تنتشر الآن بين أطباء من جيلى. ياإخوانى لا تلوموا الجماعات الإسلامية على ماتبديه من رغبة فى الحرب مع المجتمع. لو سألتمونى رأيى اقول لكم بصراحة : إذا كانت هذه الجماعات متحررة من الإنفاق الأجنبى ؛ إذا لم يكونوا أدوات فى أيدى قوى أجنبية تهدف إلى تدمير مصر؛ فإنهم يكونوا ظاهرة صحية فى عرفى ومذهبى. وعلى فرض أن هناك قوى أجنبية تحركهم فإن هذه القوى وجدت منهم استجابة سريعة. لماذا ؟ هل من أجل الفلوس ؟ لا، لأن مايرونه يثير غضبهم ، يقتل الأمل فى نفوسهم . فأى شاب لن يكتب له الحب والزواج وتكوين أسرة فى مصر إلا إذا كان لصا ومحتالاً وسفاحا وغشاشا وخائنا لبلاده. فأمثال هؤلاء هم الذين يعيشون الآن فى مصر ..

«أسمعتم أن نقابة الأطباء سيطرت عليها الجماعات الإسلامية بمجلس إدارة منتخب هذا فى عرفى ومذهبى سببه مايراه الأطباء الشبان من ظواهر الفسق والفجور والإجرام بين الأطباء. فليقل البعض فى الصحف إن الإخوان المسلمين تغذى هذه الجماعات بواسطة بنك التقوى الثرى الموجود فى بلاد الفرنجة

والمعمول خصيصا لهذا الغرض. ليكن ، فهذا لا ينفى أن الجو الفاسد لابد أن يجد من يتصدى له ويقاومه؛ وإلا فعلى الدنيا السلام. من حسن الطالع والله ياإخوان أن نقابة المحامين هى الأخرى سيطرت عليها الجماعات الإسلامية بمجلس إدارة منتخب ايضا، بانتخابات نزيهة لأول مرة بشهادة أحمد الخواجه نفسه والقضاة الذين ترأسوا اللجان. آخر ماسمعته أن الحكومة تفكر الآن فى سحب الأرض من تحتهم بتغيير قانون النقابات، للإطاحة بهذه المجالس ومنح الفرصة لعملائهم ..

« أنتم تعرفون لا شك أننى لست من أى جماعة ، جماعتى هم أبناء الطريقة الشرنوبية التى يتشيَّخها أبى وهى فرع من الشاذلية لكننى لست متشائما مثل كُتَّاب الحكومة وصحافتها من طغيان هذه الجماعات الإسلامية كخطر يهدد البلد. رأيى أن الله يسلط أبداناً على أبدان. يقولون : الإرهاب؛ وهل ماتفعله الحكومة فى الشعب ليس إرهاباً ؟! من منكم دخل نقطة البوليس شاكيا ولم يخرج منها مهانا مضروبا بالصرمة القديمة ؟!.. ويقولون : التطرف ، ويريدون أن نساعدهم فى القضاء عليه؛ فهل نقضى على التطرف لمصلحة الإرهاب الحكومى والفسق والفساد واللصوصية والإنتهازية ؟! هذه ولا مؤاخذة حكومة هبلاء تظن الشعب أطفالا يسهل الضحك على ذقونهم بقطعة شيكولاته. إنهم – بالضبط بالضبط يخوفونا بأبى رجل

مسلوخة ..

« ربنا يولى من يصلح . وعلى كل حال؛ فكل واحد منّا عليه أن يصلح نفسه ويخلص لله ولضميره وللتقوى ..

«أعوذ بالله من قولة أنا ، طهقت من القاهرة ؛ فجئت أعالج أهلى الفلاحين الفقراء ؛ وبدون أجر. رفضت الطريق إلى الثراء الفاحش السريع وهو مفتوح لكل من يحلم بالثراء. لست ضد الثراء بالطبع ياإخوان ؛ ولست زاهداً فى بهجة الحياة. أهلا وسهلا بالثراء الطاهر، أما الثراء المشروط برأس القتيل فلا. إن كل واحد منا يجب أن يطهر نفسه من الدناءة والشر فيرفض قبول رأس القتيل ؛ يرفض بغلة العرش هذه. إننا لا يصح أن ننكفئ على وجوهنا هكذا فى انتظار بغلة العرش؛ إنما يجب - إن كنا مؤمنين حقا وجديرين بالحياة الكريمة - أن نبحث عن رءوس القتلى وراء كل ثراء فاحش يظهر لنا . إن رءوس القتلى ضوعفت وتتضاعف كل يوم ؛ والدنيا من حولنا أصبحت مليئة بالوجع لكننا لا نسمع الأنين؛ فالهواء كله محشود بالصخب. والترانزستور على ظهور الحمير، والميكرفونات تزعق ليل نهار فى كل ناحية؛ المسجلات، الفيديو؛ كل ذلك يشوش علينا. خصلتنا أن كل واحد منا يشوش على الآخر وعلى نفسه فلا يسمع الأنين الذى فى جوفه هو ..

« أركم تبتسمون فى خبث. كلامى لا يعجبكم طبعا. أنتم

أحرار ؛ لكن صدقونى أننى لست طبيبا فاشلا كما يتهامس بعضكم فى «مجالسكم». القاهرة لم تطردنى لأنى لم أنفع فى الطب، فأنتم :تعرفون أننى طوال دراستى من الأوائل. كل مافى الأمر أننى نجوت بنفسى ؛ وليس يعلم بخافية النفوس وسلامة القلوب إلا الله سبحانه وتعالى »

٦- بَهْدَلَةْ

«.. ديك بغلة العرش وديك الذين خلفوها .. ياماجاءنا من وراء بغلة العرش.ياماكسبنا . فليجئ هؤلاء الذين يحسدوننا لينظروا كيف نعيش وكيف نهنأ بالنعيم الذى أصابتنا به بغلة الزفت هذه. وعلام ينظرون ؟ إنهم يعرفون كل شئ ويرون كل شئ؛ فما نهاية هذا القر الذى يهرى أبداننا ؟!..

«كل من التقانى من اقاربى يقول لى :

– ياعبد المجيد متى نفرح بك ؟ متى تكمل نصف دينك ببنت الحلال ؟!..

« طيب، إن شاء الله ، كله على الله ، اقفل مهما اقفل ولا فائدة فى وقف الكلام. بل يتطوع بعضهم ويرشح لى بنت الحلال التى فيها دوائى الناجع. بنت فلان الفلانى حورية من الجنة لا يغرنك فقرها؛ خذوهم فقراء يغنيكم الله.. بنت فلانه اجمل بكثير وأمها وارثة لعشرة أفدنة فهى الوحيدة التى تليق بك .. ولماذا لا تكون بنت عمك هى الأولى ؟ أفى البلد أجمل منها ؟ يكفى أن الدم

واحد، وأبوها رغم فقره بناء ماهر ورجل ينفع فى الزنقة وعنده ذمة وضمير ، وابنه عمك هى الوحيدة التى تحمى ثروتك وتستر عليك..

« ايها الأغبياء أليس فى عيونكم نظر ؟! ألا ترون الجلباب الذى لم يفارق جسدى منذ الشتاء الفائت ؟! أصيع واحد فى البلد ، الشحاذ ، عنده بدلاً من الجلباب ثلاث وأربع ؛ أما أنا ؛ ياابن الحاج على داوود، الذى جاءته بغلة العرش مرات عديدة، ليس عنده سوى جلباب واحد للشتاء وأخر للصيف ؛ ومداس عبارة عن صرمة قديمة أليست هذه مصيبة ؟!.. هل تصدقون إذا قلت لكم أننى وأمى وإخوتى البنات العانسات لم تذق طعم اللحمة من عيد الضحية الماضى ؟ قرابة عام؛ ولولا شطارة أمى فى تربية الدجاج والبط والأوز ماوجد هذا الرجل الظالم جسدا بساعده فى الشغل كجسدى..

«هم لا يصدقون بالطبع. يلمحون من طرف خفى وأحيانا بصريح العبارة أننى بخيل كأبى ؛ إذ ليس من المعقول أن يكون أبى عائما فى كل هذا الثراء كبنك متنقل ، ثم لا أجد أنا وأمى وإخوتى قطعة لحم نأكلها. معهم حق وحق كتاب الله . وأنا فى الحقيقة صبرت بما فيه الكفاية. أخيرا طهقت؛ خرجت أشم الهواء على قنطرة السلمونية فى هذا الجو البديع..

«هل تتصورون كيف تركت أمى الآن ؟ تركتها موقنة من أن

بغلة العرش التى جاءت لأبى كثيرا سوف تعرف طريقها الصحيح هذه المرة وتجئ إليها فى دارها. لقد رات بالأمس فيما يرى النائم امها الميتة منذ ثلاثين عاما، كانت شابة كحورية، محملة بالذهب فى يديها وأذنيها ورقبتها؛ إحتضنت أمى وقبلتها؛ ولاحظت أن أمى تنظر بإعجاب شديد إلى فرع ذهبى فى رقبتها يحتل صدرها كله بعدة أدوار كل دور يتكون من حوالى عشرين حبة ذهبية كحبات الفول السودانى ؛ فخلعته من رقبتها واعطته لها قائلة : مايغلاش عليكى ياأختى . عطية الميت فى المنام خير، ولابد أنها نذير إلهى بقدوم البغلة إليها كى تظل هى ساهرة فى انتظارها..

« مسكينة أمى؛ عندها من الأسباب مايعطيها الحق فى مجئ البغلة إليها . يكفى أنها احتملت أبى ؛ هى التى كونته ؛ هى أول زوجة فى حياته. كانت تدبر قوته بملاليم؛ توفر له ؛ كان إذا اشترى شيئا أو استرد حبوبه التى أعطى ثمنها قبل الحصاد، تذهب هى نفسها إلى الأجران فتنقلها بالقفة على راسها نقلة بعد نقلة. وعندما يطلع سوق البلد أو أى سوق ليبيع هذه الحبوب أو يشترى غيرها كانت أمى هى التى تبكر فى الفجر فتسبقه إلى السوق لتفرش وترش المكان بالمياه وبالبخور والكلمات الطيبة وهى التى تلاطف الزبائن حينما يعاملهم أبى بغلظة كالعادة. لولاها ماتاجر ولا أفلح . لقد تزوجته وهو نفر تملى

يسرح الغيطان التى تم حصدها فيجمع ماتبقى فيها من سبلات أو لوزات قطن نسيها الحاصدون أو سقطت منهم؛ يعود آخر النهار بصرة صغيرة مليئة بالسبلات أو الكيزان أو حفنة قطن أو حزمة برسيم؛ أو إذا لم يجد شيئا من هذا يقوم بتقطيع الحشائش الخضراء من على شواطئ القنيان والزراريق؛ يبيعها لمن يربون الأرانب أو المعيز بقرشين ثلاثة اربعة بالكثير. فلما تزوج أمى نجّرته وحفظت له كرامته. إخترعت له وسيلة كريمة للرزق؛ بأن يخرجان معا صباح كل يوم قاصدان الكريم، هو يمشى امامها بأجولة فارغة مطبقة تحت إبطة؛ وهى من ورائه تحمل فوق راسها قدرة مليئة بالعرقسوس المخمر تبرع فى تخميره لدرجة أن من يذوقه لا ينساه مدى الحياة. ينزلان الغيط على الأنفار الذين يحصدون القمح أو يضمون الأرز أو يجمعون القطن. هم فى هذه اللحظة ميتون من العطش؛ فما يكاد منظر أمى يهل عليهم حتى يحمدو الله ويشكروا فضله؛ فبدلا من شرب مياه القنيان العكرة الساخنة المليئة بالواغش ساق الله إليهم العرقسوس الشافى المزيل للعطش طول النهار. السلام عليكم، هكذا يفعل أبى. فيتوقف الأنفار فى الحال مرتصّين فى خطوطهم حتى بدون إذن من صاحب الغيط لأنه هو نفسه أول المرحبين .. الكوز النحاسى المجلو بالرماد حتى لمع، المخروط الخصر بمقعدة بارزة وأذن تشبه علامة الإستفهام شكله شكل

امرأة تضع يدها فى خصرها؛ منظره وحده مثير للعطش. ترفع أمى ذراعها به، تميل بالقدر فى حكمة وتؤدة ، يفرغ البزبوز فى الكوز شخلوبا فى لون الشاى يزغرد صوته فى الكوز صانعا رغوة عالية . لابد من الصب هكذا بصنعة حتى ترتفع الرغاوى عاليا فلا يأخذ الكوز أكثر من نصفه والباقى رغاوى تصل إلى حافته. يمده أبى لصاحب الغيط، فيكرعه مغمضا عينيه مائلا برأسه إلى الوراء فى لذة. يلف الكوز على الجميع . فى النهاية يمد صاحب الغيط يده بالمقسوم : حزمة سنابل تملأ الحضن ، حفنة قطن تملأ الحجر. وهكذا من غيط إلى جنينة إلى عشة قيلولة، يعودان آخر النهار محملين بكل مافى الغيطان والجناين من خير، وبعض قروش. هى قدرة واحدة فى اليوم لكن الحصيلة باسم الله ماشاء الله لا تخلو من طماطم وبامية وكرمب وملوخية وجرجير وبطيخ وشمام وخيار، يعنى حتى الطبيخ تدبره أمى بالبلاش وماعليه هو سوى أن يأكل حتى يمتلئ ..

« من محصلة العرقسوس أصبح لأبى مخزن كالنجار كأصحاب الحصاد؛ أصبح يبيع. تعلم كيف يخفى الصنف ليوم شدة، كيف يبيع قدح برسيم التقاوى بالشئ الفلانى. بعد الكيسة الدبلان التى كان يطويها على القروش فى جيب الصديرى أصبح يحمل محفظة كالبرطوشة تنطوى هى الأخرى وتغلق بكبسولات تطرقع فتصيبه بلذة، ولها جيب بطولها وجيوب

أخرى كثيرة. فلما امتلأ بالفلوس أصبح يفكر فى الخلفة، أصبح ينتبه إلى أن خلفة أمى كلها بنات. ظلت الولية المسكينة تصبره حتى جئت أنا بعد نذرٍ نذرته لسيدى إبراهيم الدسوقى. نذر أبى أن يعلمنى فى الأزهر الشريف حتى أحصل على شهادة العالمية. بالفعل دخلت كتاب الشيخ جمعه فحفظت القرآن الكريم، بعده دخلت المعهد الدينى فى دسوق وكنت من الناجحين فى كل عام حتى حصلت على ثانوية المعهد وتجهزت للسفر إلى مصر لاستكمال التعليم فى الأزهر الشريف. لكن أبى عمره مانذر نذراً ووفى به ؛ وجد أننى أصبحت ذاكرته التى لا يستغنى عنها، يصحينى من عز النوم ليسألنى : هل فى المخزن ألف كيله أم ألف كيلة ونصف ؟ فأذكره بأن هذا النصف ينقص ملء كوز اختلسته أمى للفراخ ..

«علمته أن كل شئ بدفتر؛ وكل الدفاتر تصب فى النهاية فى دفتر واحد. علمته الجمع والطرح والضرب والقسمة على الورق؛ فاتسعت دائرة شغله؛ واتسعت ذمته أيضا؛ وهذا هو سر نقمته على أمى وطرده لها . كانت دائمة الزن على أذنه : يارجل إتق الله ! لا تسقى أجولة القطن بقطرات الندى والمياه ليثقل وزنه بضعة أرطال هذا حرام! لا تستعمل هذه الكيلة فى التكييل بها عندما تبيع الحبوب للناس الغلابة ! إستعمل التى تشترى بها ! عيب عليك الصلاة فجرا وأنت تعلم أن الكيلة التى تبيع بها مخصوم

من قعرها ما يساوى شبرا كاملا ! النجار الذى قطبها لك هكذا بوضع قعر لها فوق القعر الأصلى تاركا بينهما فراغ سوف لن يرد على جنة ! وأنت قبله ! عيب على هذه الزبيبة فى جبهتك ! عيب على لحيتك ! تذكر شباك النبى الذى زرته وملست عليه بهذه اليد التى تأكل حق الغلابة !.. فما كان منه إلا أن بات ينهال عليها ضربا. وكان فى حقيقة الأمر قد نوى على الزواج من عزبة نصيف من امرأة من عائلة تلبس الألفرنكة وتسرح شعرها وتدهن وجهها بالبوية الملونة ؛ ولعائلتها إسم كالطبل سوف يحتمى به ليفتح لنفسه أسواقاً جديدة ..

« طرد أمى إلى دار أمها وأنا معها طبعاً ؛ ولكن بشرط أن أجئ إليه صباح كل يوم لأشتغل فى الدكان وفى آخر النهار أعود لأمى. خصص لأمى نفقة لا تكفى كلبا؛ وعيّنّى نفراً عنده باليومية ، مثل أى نفر غريب ؛ ونصحنى بأن أدبر حالى بهذه اليومية فأدخر منها كسوتى وزواجى وعلاجى وكل شئ أطلبه؛ وكلما طلبت منه ولو قرشا واحدا زيادة ، يمشط لحيته يقول :

– منين ؟! بتاع الناس وانا حارس عليه إياك فاكره ملكى !! إياك تكون طمعان ! أنت لابد أن تعتمد على نفسك ! مثلما اعتمدت أنا على نفسى ! لا تركن على ثروتى وتقول ياولد سوف ترث ! لا ياحبيب امك ! أنت يجب أن تكون خشنا من الآن ! تواجه مصيرك من الآن كى تنفع نفسك وتنجح فى حياتك !

إنس انك إبنى وأنت تنجح بعون الله !!..

« و.. فى الحقيقة لم اقدر على هذا النسيان أبداً ؛ رغم اننى صرت اكرهه كره العمى؛ ولو لم اكن واثقا من شرف امى لقلت إنى بذرة غريبة عنه، خاصة أن ملامحى كلها ملامح خالى عبد الجواد يرحمه الله ..

« زهقت والله ياجدعان . مابى قحطى الذى أعيش فيه ؛ ومابى قر الناس على حصل فاضى. د برونى ياجدعان؛ ياعم الشيخ عبد المقصود؛ ياناس يامتعلمين ياحافظين كتاب الله : هل فى الدينا رجل يعامل ابنه من صلبه هذه المعاملة ؟! أما أن بغلة العرش قد جاءته فهذا ماتؤكده أمى؛ رغم أنها لم تر البغلة نفسها؛ إنما كانت تفحت ذات يوم تحت شجره الجميز الواقفة فى دارنا القديمة فعثرت على جمجمة قتيل كانت مدفونة تحت جذر الشجرة؛ يومها صرخت وكادت تقع من طولها، لكنه سد فمها ؛ وقال لها: هذه هى رأس القتيل التى جاءتنى مع بغلة العرش منذ مدة! فهل تتصورين أن هذه النعمة كلها كانت تجيئنا من طلوع الأسواق الكحيانة ؟! إنه الكنز الإلهى يالمرأة !!..

« على قولك ياعم الشيخ عبد المقصود : بحثت عن شغل عند غيره بماهية تكفينى انا وأمى ؛ لكن مع الأسف لم أجد ؛ على رأى المثل : ياسايب بلدك حزينة حتلاقى الفرح عند مين ؟! هزؤ الناس بى وتريقتهم من ناحية ؛ وزن أمى من ناحية ثانية ؛ تطلب

منى أبقى مع أبى ولو بالعيش الحاف؛ لماذا ياشملوله ؟ لكى تبقى دائما على علم بحقيقة ثروته حتى لا ينهبنا أولاده من زوجاته الأخريات . طيب ياشملوله ياغلبانه : ها أنذا بقيت لكنه لم يطلعنى على شئ؛ خصصنى لمخزن التبن فحسب ؛ وكل ماأعرفه الآن من ثروة أبى الكبيرة الضخمة المتشعبة هو حجم ثروته من التبن، الذى يكفى لعلف ماشية القطر المصرى. يافرحتى، أما المشاريع الكبيرة والمحلات والفابريقات ومصانع الكبريت ومناشر الأخشاب ومزارع الحيوانات والدواجن وأراضى البناء ومعارض الذهب المشغول والجزارة ، فى طنطا وكفر الشيخ ودسوق وكفر الزيات والمحلة الكبرى ودمنهور والإسكندرية ؛ فكلها يديرها موظفون بشهادات عالية لا أصلح أنا خادما عندهم، يشرف على كل هذا أولاده الذين خلفهم من زيجة عزبة نصيف وزيجة طنطا وزيجة المنصورة.. حتى الأولاد الذين طلقت أمهاتهم كزيجة عزبة نصيف وزيجة طنطا وزيجة دسوق ضمهم إلى شغله وصرف عليهم فى الجامعات واستأجر - أقصد بنى - لهم الشقق والفيلات وزوجهم على صغر ليكسبهم فى صفه. أمى هى الأخرى مطلقة كما تعلمون. ولم يبق فى عصمته سوى زوجة المنصورة لأنها محامية كبيرة تعرف كيف تريحه وتمشى على هواه ، ثم إنها تنوب عنه فى مقابلة كل الرءوس الكبيرة والتفاهم معهم فى كل الشئون ،

وهى نافذة على كل الهيئات الحكومية خبيرة بتخليص كل أنواع الأوراق الصعبة؛ إلا أنها عجوز. ولهذا فقد تزوج أخيرا من تهانى بنت عبد الجليل منصور؛ بنت كفلقة القمر، عمرها لم يصل إلى العشرين بعد، وخريجة كلية التربية ؛ وعبد الجليل منصور كما تعلمون ليس عبيطا؛ إنه كتاجر أخشاب وسمسار كبير له أسهم كثيرة فى إحدى شركات أبى، وقد أراد أن يضمن أبى فى عبه، فرضى بتزويجه من ابنته ؛ وهى الآن تعيش فى قصر لم يحلم به أبوها، ويخدمها فيلق من الخدم؛ وأما هى فلا تخدم إلا سريره فحسب؛ قطعة الشيكولاته هذه تقدم نفسها له عارية غرقانة فى العطور؛ إلا هى يطفحها ؛ فلولاها مارأينا وجهه ؛ إنها المسمار الذى يربطه ببلدتنا الآن ومن أجلها يجعل من بلدتنا مركزاً رئيسياً لشغله بعيداً عن أنظار الحكومة فى بلاد النور..

« فى مرة قابلت واحد من ابنائه الأفندية المتعلمين تعليما عاليا؛ أظنه من زوجة عزبة نصيف؛ وكان من المفروض أن أقابله فى العزبة لأتسلم منه عشرين رأسا من الماشية لنذبحها فى عيد الأضحى ليشترى منها الناس ذوو الجيوب الثقيلة تصوروا أن مدحت بك - أخى - لم يكن يعرف أنه أخى ؛ ومن يدرى ؟ ربما كان يعرف ولكنه عاملنى كأنى مجرد نفر، كان يشخط فى . ولما نبهته إلى أننى أخوه لم يتغير وجهه ولم يسلم على ، لكنه خفف

من شدته قليلا؛ كل مافى الأمر من ترحيب أنه أشار لى على كرسى وطلب منى الجلوس حتى يفرغ الرجال من تحميل الماشية على عربة النقل الكاميون. عزم على بسيجارة مكن؛ فأخذتها، ولما أشعلها لى بولاعته الذهبية أردت أن أمسك بحبل الود فأستبقيه- شكوت له ظلم أبيه لى ولأمى، فرسم علامات الإشمئزاز على وجهه - لا أعرف إن كان منى أم من أبى - ثم راح يشكو هو الأخر ، يحكى أشياء يقشعر منها البدن؛ إعترف لى - والله يعلم صدقه من كذبه - أن كل شئ فى يد أحدهم إنما حققه بنفسه من عرق جبينه ؛ فقد علمهم الشطارة فحسب وتركهم يعتمدون على أنفسهم ؛ لكنه اعترف بأن أبى كان يعطى كل واحد منهم مبلغا بسيطا يبدأ به مشاريعه..

« إشمعنى أنا ؟ أليس من حقى أن يعطينى أنا الآخر مبلغا أبدا به حياتى فى التجارة ؟ هل جزائى أننى أخلصت له بكل أمانه ؟ فلأترك الزواج الآن مادمت قاربت سن الأربعين بغيره ؛ ولكن على الأقل دعنى أعيش اليومين الباقيين لى فى هذه الدنيا بكرامة. ولكن تقول لمن ؟ من يقرأ ومن يسمع ؟ لقد أتقنها ونفع ؛ رسم الورع والتقوى ونفع ؛ بخله الشديد خدمه خدمة كبيرة ؛ وكل الناس يعتقدون أنه يربى لهم أموالهم بكل أمانة؛ لكن إذا ذهب واحد منهم يطلب حسابا، أدار رأسه بالكلام الذى أعطاه الله موهبة فيه لم يعطها لأحد مثله. إن أى كلام يقوله يصدقه الناس

فى الحال مع أنه كلام تافه ؛ وظنى أن الطريقة التى يتكلم بها هى المهمة ، فشر أكبر ممثل فى السينما :

- ثروتك عندى ضوعفت إلى كذا ! أصبحت ياعكروت مساهما فى كذا وكذا ! دعه يكبر ولا تتعجل ! أما إن كنت فى احتياج شديد فخذ لك سلفة تردها حين ميسرة ! بعمولة بسيطة لا تذكر ! أما إن كنت على الحديدة فهذا أمر آخر ! شف لك واحداً يشترى نصيبك فى المشروع الفلانى وهو الآن يساوى كذا يعنى أضعاف أضعاف مادفعت فى زمن مضى !! ..

« شخص غيرى كان جديراً بركوب المرسيدس مثل صبيحه . لكن ؛ إذا كان هو نفسه لم يركبها فكيف أحلم أنا بركوب ولو عربه كارو ؟.. يوهم الناس أنه زاهد ولهذا يفضل ركوب بغلته العفية ليعرفوا أنه لم يتغير ولم يتبدل . وحقيقة الأمر أنه يخاف من جميع أنواع المواتير ويعتبرها حراماً ؛ وطول عمره يخشى ركوب القطار والسيارة ولا يسافر إلا بالركوبة لأنها فى نظره أعقل من الآلة المجنونة . لكنى أظن أنها عقدة الناظر خفاجه ، ناظر زراعة الوسية التركى الغشيم إذ ينجعص على حصانه ويضرب الأنفار بالكرباج ومن ضمنهم أبى. وأظن أيضا أنه لا يستعمل الركوبة إلا فى بلدتنا ونواحيها فحسب ؛ ويحدثنى عقلى أنه يتركها فى مكان من أماكنه العديدة ويركب أى سيارة من عشرات السيارات التى يملكها فى محلات تبيعها وتشتريها

فى طنطا..

« أنتم بصراحة تخنّتُم أذنه بقولكم إنه زاهد ولم يقبل حياة الرفاهية فى المدن. إسألونى أنا ؛ إنه يدمن عشق الفتيات الصغيرات يسرح وراءهن فى كل مكان. وأنا بصراحة ؛ لا تؤاخذونى فى ذى الكلمة ؛ أصبحت أشك فى حقيقة أصلنا؛ أقصد أصله هو. أقطع ذراعى إن ماكان من أصل يهودى قبل أن يسلم أبوه أو جده البعيد.طباعه طباع اليهود الخالق الناطق. ومن حسن حظى أن طباعى هى طباع خالى عبد الجواد. إعذرونى ياجدعان . لا تلومونى ؛ فلقد أصبحت أشعر أنى يجب أن أتبرأ منه؛ بعد أن لمست وتأكدت أنه يستعبدنى ويستبيح عرقى مثلما يفعل مع أى نفر لا يعرفه. وظنى أن البغلة هى التى أفسدت قلبه. وهذه هى مصيبة بغلة العرش يامن تحلمون بمجيئها إليكم : إن الإمساك برأس القتيل ودفنه عملية تميت القلب؛ والخرج الملآن بالذهب لا يساوى موت القلب أبداً ؛ فمال قارون كله لا يقدر على إحياء القلب ثانية؛ بل بالعكس كلما ازداد المال انقلب صاحبه إلى وحش مفترس يأكل أولاده !! ديك البغلة وديك شورتها السوداء !! »..

٧- شَعْلَله

».. هيّج القمر دماغى وأنا متمطرق على ظهرى فى حوش الدار. كانت نفسى فى الولية من صبيحة ربنا. جهزت نفسى على سنجة عشرة ؛ ضربت النفسين الحلوين ؛ طحنت بلحة جوز الطيب فى حفنة من السكر سففتها عند أذان العصر ؛ صرت أشغلها بالشاى لكن، فرحة ماتمت؛ تصدر الدكر فى الموضوع مادرى كيف؛ فبدلاً من مجئ الفرح والإنبساط يزحف كالبراغيث تقرصنى فى أجنابى . ! إشتغل القرص فى قلبى وصدرى فما قدرت على الإمساك ببرغوث واحد؛ فالغم كالبرغوث الخبيث يلدعك ويختفى ، ولو كنت جدعا تمسكه. خلعت دماغى رحت أفليه فى نور القمر؛ فصارت براغيث الغم تتطاير فى كل ناحية أمام عينى ؛ وكلما ظننت أنى قبضت على واحد لأدعكه وأميته ظهر أنى قبضت على الهواء ..

« طهقت من نفسى. الولية المنجوسة هى الأخرى لم يكن منظرها مشجعا؛ فكانت هى أكبر برغوث من براغيث الغم

الأزلى. جنس الكلب لم تعمل بالوصية التى اتفقنا عليها فى العصارى وهى بنفسها تطحن لى البلحة فى الهاون. لم تسرح شعرها المجلد؛ بقيت بنفس الجلباب الزفر الملطخ بالعجين الناشف وبقع الزيت، ما صدقت أن شالت الأكل حتى دخلت القاعة فرمت جثتها على المصطبة وقال شخيرها : اللى يعرف يصحينى يبقى جدع. هى دائما تفعلها ؛ وأنا دائما أكون جدعا فأصحيها من عز النوم لأحكم عليها بتسريح شعرها وتغيير جلبابها ؛ لكننى الليلة حلفت ألا أهتم بها حتى أشوف آخرتها مع هذه المرأة القحباء بنت الرفضى..

« زردة شاى وراءها زردة شاى مع كرسى الدخان مع سيجارة نسيتها ؛ وشلْت عبد القادر على دماغى، فاشتغل القرص الموجع يكاد يصيبنى والعياذ بالله بلطف. الكلمة الوحيدة التى زغدتنى بها قبلما تروح فى النوم كانت :

– العيد دخل ياابن جبرية وأنت ماافتكرتنى بجلباب جديد يسترنى فمنك لله !

« الهزار الذى طيب خاطرى فى عبارتها قولها ياابن جبرية بدلاً من قولها : ياوهدان ياعقل ؛ على أساس أنها لا تلقبنى بابن جبرية إلا ساعة الإنبساط . جبرية هى أمى، وعقل هو أبى، ماقلنا فى ذلك شيئا؛ لكن الكلمة أوجعتنى فى ليلة مفترجة كهذه ؛ مع أننى وحق هذه الليلة ومساها كنت حاسبا حساب

جلبابها قبل كل شئ ؛ غير أننى شلت الخبر لوقته المعلوم يجئ مع الإنبساط ؛ فلما زغدتنى كلمتها فى أجنابى وأنا أستعد للإنبساط عملت بالعند من غيظى ولم أرحها برد؛ لا من فوق ولا من تحت ، وصممت أن أسوق فى العند فأعطيها ظهرى إذا جاءتنى ؛ لكن المنجوسة بنت المنجوس لم تجئ وتركتنى ساهرا فى حوش الدار وحدى، منى للقمر ..

« بركة ياجامع . أنا الآخر شعرت بدوخة. حلّ علىّ التعب الذى تعبته طول النهار فى العزيق بالفأس لكى أضع اليومية التى سأقبضها فوق الفلوس التى حوشتها لأقطع لها الجلباب فى الصباح فى حالة انبساط . القمر هو الآخر منجوس خبيث مكار، ليس سهلا؛ قال لى : ياوهدان ياابن جبرية أنت تأخرت فى مجيئك بالجلباب ، فالعيد لم يبق عليه غير يومين والخياطون مزحومون على الآخر يعنى سوف تعيّد روحية بجلبابها القديم ولن يكون للجديد فرحة .. ياقمر ياابن ديك الكلب هل أنت معى أم معها ؟ هل أنت تائه عن البير وغطاه ؟.. فغمز القمر بعينيه غمزه خبيثة ودارى نفسه فى بطاطين السحاب، وصار يساهينى ويطل برأسه من السحاب بغمزة خبيثة ويختفى قبل أن أنف فى وجهه . صار يرمينى بالحصى.. هو من ناحية والبراغيث من ناحية ثانية. فلما ارتفع غضبى إلى عنان السماء ملامسا أطراف السحاب ظهر القمر الشقى كأنه يصالحنى : إختفت الغمزة

الخبيثة من وجهه فبقى رائقا وبقيت متوجسا من شقاوته؛ لكنه جعل يتنزل يتنزل حتى قعد على حجرى كطفل ملظلظ تفوح مه رائحة اللبن؛ فشعرت فى الحال بأنى يجب أن ادلعه أهشكه أرمى به فى الهواء كالكرة لألقفه بسرعة واضمه أطوى عليه صدرى. استكان القمر على صدرى محدقا فى السماء بنظرة بريئة ؛ فرأيت الله سبحانه وتعالى كالفانوس يرفع قلبى على قراطيس ضوئه الملون بألوان الزهور؛ فصحت هاتفا : الله اكبر ؛ فجاوبنى هاتف أقوى : الليلة ليلة القدر أفق يابجم يامن تدعى وهدان ؛ فهذه هى طاقة الضوء التى تسمع طول عمرك أنها تنفتح فى السماء علامة على ليلة القدر، فمن قُدر له أن يشهدها فعليه أن يدعو فى الحال بالدعاء الذى يريده يتوجه بالأمنية التى يحلم بها فإذا هى متحققة فى الحال. هى طرفة عين من عمر الزمن انسدلت عليها الأجفان قبل أن اتملأها. سرب من طيور الأمنيات والأحلام هب فزعا من أعشاش دماغى ، لا أعرف لأى منها ابدأ بالدعاء لكن الفانوس انطفأ كما انبثق فى لمح البصر؛ فاختفى سرب الأمنيات ولم أعد أرى سوى ظلام الفقر والعوز وشخير روحيه..

«إختفى القمر فلم أجد على صدرى غير هذه التلفيعة السمراء التى عاشرتنى نصف عمرى على الحلوة والمرة وهاهى تشهد على صدق ماأحكى. خلعتها ، نفضتها، فرشتها تحت دماغى

جاءتنى لذة فى أن أنام بغير سحور عامدا متعمداً ، لتحس بنت الرفضى فى الصبح كيف أنها نكدت علىّ وعلى نفسها. زن البراغيث يسابق قرصها : أنت مكتوب عليك الشقاء ياوهدان ياابن جبرية ؛ أنت شقيت كحمار السباخ لم تهنأ حتى بالتبن الحاف بغير فول. لكن عيبك فاضح جداً ياوهدان وكل الدنيا تعرفه . أنت تشاقيت على شقاء ؛ فعلت كل مايغضب الله ؛ ياما ارتكبت من ذنوب؛ ياما اندفعت ياماستهترت ؛ ياما فسقت. لكنك تبت ياوهدان وأصلحت غلطتك ؛ كفّرت عن ذنوبك فلابد أن الله يقبل التوبة وإلا مافتح لك الليلة طاقة القدر. صحيح أنك لم تلحق بها دعاءً إنما الله يعرف ماتريد وتهوى : أن تعيش لك يومين فى راحة وبغددة تعوض شبابك المحروق كله فى الكوانين ..

« وحدى فى حوش الدار، وشخير روحية ؛ لكن طرف التلفيعة الحاجز بين عينى والقمر لم يحجز عن دماغى صحوة الناس فى الشوارع . الدنيا صامتة أى نعم ؛ إنما فيها نفَس صاح ، ودب أقدام على الأرض رائحة جائية، همس وضحك وكلمات طيبة يبين منها أن الدكاكين كلها سهرانة والناس أسهر ؛ كأنهم ذاهبون إلى فرح أو قادمون من عرس فلابد أنه عرس كبير فلإبن من هو ياترى مع أنه لا طبل ولا زمر ؟.. هتف الهاتف : شفت ياوهدان ياناائم على أذنيك ؟ شغلت نفسك بتجهيز الإنبساط هذه الليلة

مع بنت الرفضى فنسيت أن البلدة فى انتظار بغلة العرش. يه ..يه..يه .. قف عندك ياابن جبرية واعرف مركزك أتظن أنك أنت، ياابن جيرية ياكحيان ياضلالى ياابو ديل نجس، يمكن أن تجيئك بغلة العرش ؟! ياأخى دهده.. ياشيخ اتلهى. أولى بك أن تدعو الله أن يقبل توبتك. معقول هذا ياابن جبريه ؟ بعد كل مافعلته يقبل الله توبتك ؟ والله ماظنى . مشى النمل فى عروقى كلها ؛ فالأكلان فى ساقى والقرص فى دماغى وأجنابى..

« نفضت نفسى واقفا ، ماالذى يبقينى جنب بنت الرفضى هذه والبلدة كلها ساهرة ؟ والله لأخرجن فلا أعود حتى الصباح. مشيت كالدهل ؛ فى رأسى قنطرة السلمونية ؛ القِعدة فوقها تخيف جميع أنواع البراغيث فتهرب. الحمد لله أن وجدت الناس المتعلمين أهل الصلاح؛ ليلتنا فل بإذن الله ؛ هذا أول فال براحة القلب؛ ياما نويت الذهاب إلى الشيخ عبد المقصود ابو غلاب فى داره لأفتح له قلبى ، لينورنى . أنا محظوظ ؛ طلبت الشيخ عبد المقصود وحده فنولنى أهل العلم كلهم . فوحق من جمعنا على غير ميعاد فى هذه الليلة المفترجة أنى سأحكى كل شئ بصراحة كاملة لأعرف هل يمكن أن يقبل الله توبة منجوس مثلى بمجرد أن أطلبها ؟ أم أن الأمر يحتاج منى إلى أعمال أعملها وكفارات ؟ طب ماذا يكون الأمر لو أننى عجزت عن هـذه؟!..

جسمى لم يعد خالصا ياعم الشيخ عبد المقصود.. تلقيت من الله رسالة : فتح لى طاقة القدر ولخمنى لخبطنى فى نفس الوقت ليحرمنى فرصة الدعاء فهو سبحانه يكيد لى إذن ؛ لأنى طرمخت على ذنوبى الكثيرة كأنها ماكانت .. ذنوبى كثيرة ياجدعان وثقيلة ، وأنا ابن ناس طيبين ..

– « أبوك يرحمه الله كان درويشا فى مشيختنا ! وقد بكى عليه أبى يوم وفاته !» ..

« .. أكرمك الله ياعم الدكتور ؛ هذا من أصلك. لكن. ماذا أقول ؟ النار تخلف رمادا كما يقول المثل. الذنب ذنبى أى نعم لكن المسئول هو إبليس ، أقصد صبيحه بنت عمى . كل العائلات فيها الخير والشرير.

وإذا كانت الملعونة إسمها صبيحه جابر عقل ، فإن القِدْر إذا انقلبت على فمها تطلع البنت لأمها ، وقد طلعت صبيحه لأمها بالفعل ، ودم العقالوة برئ منها ..

– « إخز الشيطان ياوهدان فأنت الآن تخرم فى سيرة الناس وأعراضهم ! فلا تحملنا ذنوبا لا ذنب لنا فيها !» ..

« .. هذا والله ماحسبت حسابه يابو نجم قبل أن أتكلم ؛ لكننى لابد أن أتكلم حتى أزيح الحمل عن ظهرى وقفاى . كونك من عشاق صبيحه ؛ وكونها تفتح لك دارها ورجليها لكى تحميها ليس له دعوة بما أتكلم فيه، وعموما فعمى الشيخ عبد المقصود

هو الذى يقول إن كنت أتكلم أو أسكت ...

- « دعوه يفضفض ! فما يقوله ليس أكثر مما يقوله الناس كلهم !» ..

- « ياعم الشيخ عبد المقصود نحن فى ليلة مفترجة وحرام أن نقول مثل هذا الكلام فنرتكب الذنوب !» ..

- «الذى يخاف الذنب يمشى من هنا ويتركنى مع الشيخ فأنا بصراحة لابد أن أتكلم ! الجدع فيكم يجب أن يسمعنى ليعرف ماليس يعرفه فيستفيد ! ماسأقوله يهمكم جميعا ! وأنا لو سكت فأنتم جميعا تغلطون فى حق أنفسكم وبلدكم ! هيه ؟!» ..

- « تكلم ياوهدان ! لت واعجن كما يحلولك !» ..

«.. شف ياعم الشيخ. شوفوا ياجدعان. الحكاية من أساسها حرب سبعه وستين السوداء . يومها صحونا من النوم على الصوات فى أغانى الراديو ؛ فعرفنا بالفهلوة أن البلد حاربت وانهزمت . لم يحاربنا ثلاث هذه المرة كما حدث يوم كنت أنا فى التجنيد ؛ إنما الذى حاربنا وكسرنا وكسر عظمنا دولة واحدة اسمها اسرائيل عدد سكانها كعدد أهل بلدتنا وحدها . صفوان ابن عمى زوج صبيحه كان فى الجيش وكان عريسا لم يمض على فرحه أكثر من شهر؛ يعنى أن يده التى أمسكت بالبندقية فى العريش وسيناء كانت مصبوغة بالحناء. كل العساكر عادوا مكسورين مشوهين إلا صفوان ابن عمى لم يعد بتاتا. صبيحه

زوجته - ربك والحق - بقيت تنتظره سنين طويلة لا تخلع الجلباب الوردى حتى تخيلنا أنها مجنونة. فى كل ليلة كانت تمسح زجاجة المصباح وترتب فرش السرير وترشه بالعطر وتتزين لاعتقادها أنه عائد؛ سيطرق الباب فى عز الليل كما كان يفعل فى كل عودة، ويدخل ليقضى أربعا وعشرين ساعة فى حضنها ..

« تعلمون أنها كانت أجمل صبية ، طول بعرض ، الوجه فلقة بدر، الصدر رمان، البطن عجين خمران، عود ولا غصن البان بلطية. شبان البلاد كلها دارت عليها قدمت الفدادين مهرا لكنها تزوجت صفوان ابن عمها عن حب ، منذ كان تلميذا فى كلية الحقوق وهى متعلقة به وهو يكتب فيها الأغانى. أبوها مات مطمئن البال قبل عرسها بسنتين وهو يعلم أن البنت مستورة بإذن الله. وصفوان ابن عمى أجل تجنيده حتى ينتهى من الكلية. فلما تخرج تأجل فرحه حتى ينتهى من خدمة الجيش لكن أمه لم توافق ؛ الله يرحمها شعرت أن تجنيده سيطول، وفرحت ببذلة الضباط التى جاء بها بعد التجنيد لائقة عليه تزغرد على جسده . أبوه كان مستعدا له بالمطرح المبنى فوق الدار من أجله، وبالعفش من دمياط ؛ وكان رحمه الله هو الآخر يعرف أن البنت مصيرها إلى داره حتى لو لم تتزوج ابنه ؛ فعجل بالزواج ؛ ووافق صفوان لأن الزواج يفيده ويعطيه حق الإجازات الكثيرة،

كما أن شوقه لصبيحه كان قد فاض . المسكين لم يكن يعلم أن شهر العسل بالنسبة له سيكون شهر المر والكوارث ؛ فهو لم يهنأ بحضن زوجه غير بضع ليال جاءته الإشارة بعدها ليتوجه إلى كتيبته ، فسافر وهو مقهور، لأن المحرمة البيضاء التى كان من المفروض أن تتبقع بدماء البكارة كانت لا تزال بيضاء. ولما سألناه بانزعاج عن الأمر قال إنه من شدة حبه لصبيحه لم يتمكن من القيام بهذه العملية لشدة خوفها منها فتركها حتى يمهد لها التمهيد الجيد، فالمرحوم كان مُستعدا بإجازة طويلة ولم يكن يعلم أنهم سيستدعونه فى الليل على هذه السرعة المفاجئة ؛ فكانت آخر سفرة لم يعد بعدها ..

« بعد سنين اضطرت الحكومة فأبلغتنا بأن إبننا مفقود ومعدود بين الشهداء ؛ وصرفت لصبيحه تعويضا وراتبا شهرياً. الجرح لا تداويه تعويضات ولا مرتبات ؛ سقط أبوه ميتا من الصدمة والحزن ؛ بعده بقليل لحقت به أمه ؛ أما أخوه الصغير الذى كان سببا فى تجنيده فقد مات هو الآخر فى العراق. بعدهم جميعا ماتت أم صبيحه . بقيت صبيحه وحدها فى الدار كقرد قطع ؛ الجلباب الأسود يزيد بياضها بياضا ؛ الحزن يلهلب خديها بجمرات حمراء ؛ يظلل عينيها الواسعتين بحرمان وكتمان . لم يكن أتخن تخين فى رجال العب كله يقدر على النظر فى عينيها إلا ويقع من طوله؛ فيعرض عليها المهور الغالية فى سبيل أن

تتزوجه ؛ وهى صامدة كأرجل الرجال بصورة أعجبتنا ولابد أنكم تتذكرونها فى تلك الأيام ؛ أيام أن أرادت ! إغلاق باب الأمل فى وجوه الجميع ، فجعلت من المندرة التى كان المرحوم ينوى أن يحولها إلى مكتب للمحاماه فى البلد؛ دكانا لبيع الخضار والفاكهة تتسوقها من دسوق نفسها. أصبحت معلمة قد الدنيا، ولم تفكر فى الزواج احتراما لذكرى المرحوم. لكن بلدتنا هذه عجيبة ؛ لم تصدق أن صبيحه تصبر كل هذا العمر بغير رجل، ولابد أنها ترافق أحد الرجال فى الخفاء وإلا كان زمانها انطفأت وذبلت؛ فليس من سر لهذه الرعرعة فى جسدها وخديها سوى أنها تجامع الرجال في السر. صاروا يتجسسون عليها، ضايقوها ، ألفوا لها حكايات شنيعة؛ قالوا إنها ترافق جنياً من أهل تحت الأرض؛ وقالوا إن شبانا من تجار دسوق يجامعونها. سافروا وراءها وعادوا بغير عقولهم لأنهم وجدوا تجار دسوق يحترمونها ويخشون بأسها. أنا نفسى سافرت وراءها بالخنجر والبندقية فلم ألاحظ عليها أى شئ يغضب الله. لكن الدوى فى الآذان أقوى من السحر، لدرجة أننى كذبت عينى وصدقت الإشاعات مثلما صدقها كل الناس فلو حلفنا لهم على المصحف أنها بريئة ماصدقوا..

« صبيحه رأت نفسها فى عيون الناس خاطئة مهما ثبتت براءتها ؛ فدار فى عقلها أن تشوف حالها قبل أن يموت شبابها

موتته الأخيرة . فى هذه النقطة كانت براعتها التى أذهلت الجميع وجلبت عليها الحقد والحسد، لأنها كما يقولون : وقعت واقفة . قال بعض الطيبين إن الله عوض عليها طول صبرها . وقال الخبثاء إنها عاهرة محترفة وإلا ماأوقعت بهذه الضحية الثمينة . وفى ظنى أنها لم تكن عاهرة ولا محترفة ؛ إنما هو النصيب لا ذنب لها فيه ولا يد. الحاج على داوود زارها فى الليل بعد صلاة العشاء . وكانت هى حصيفة؛ فتحت باب الدكان أضاءت الكلوب قعدت أمام الحاج متربعة بجلبابها الأسود. ركن عندها أكثر من ساعتين مندمجا فى كلام وودوده ؛ وهى محمرة الخدين ترد بهزة من رأسها أو بتشويحة من ذراعها . شقَّرتُ عليها أكثر من سبع مرات؛ أفوت على الدكان فأقف قليلا؛ أطمئن على أن الوضع بينهما لم يتغير؛ أتقرفص فى الظلام على المصطبة المحاذية لباب الدكان لعلنى أسمع شيئا ، فلا أسمع؛ فأقوم وأمشى فى البلد ثم أعاود المرور ؛ مصلحة ؛ أطرد الواغش الذين يتلكعون على باب الدكان .. صعب على أن أفاتحها فى الأمر ؛ فهى مهما كان من لحمى ودمى؛ لا أرضى أن أجعلها تشعر أنى أشك فيها مثل بقية الناس؛ أما الحاج داود فهو فى النهاية حاج ، وتاجر ؛ وهى أيضا تاجرة ، والشغل بينهما جائز. لكن زيارات الحاج على الليلية تكررت؛ كل يوم و الثانى أرى بغلته مربوطة فى حديد الشباك وبوزها مدفوس فى مخلاة

العليق . ربك والحق فار دمى؛ لعب الفأر فى عبى؛ قلت لابد أن الحاج على يعرض عليها الزواج على سنة الله ورسوله؛ وقلت لو أن الموضوع هكذا يادار مادخلك شر. فلماذا لا ؟ وقلت يجب أن اسألها خبط لزق من غير لف ولا دوران :

– ماذا يريد منك الحاج قرد ياصبيحه ؟!

« إحمر وجهها ؛ قالت :

– سأقول لك ولكن ليس الآن !

– يعرض عليك الزواج ؟!

« قالت وهى تعيد لف الطرحة حول رأسها :

– ليس الآن !

– صارحينى ياصبيحه ! لابد أن يكون معك رجل يسندك فى موضوع كهذا !

« إعتدلت أمامى على المصطبة :

– شف ياابن عمى ! هو فعلا يعرض على الزواج ! ولكن ! ولكن !..

– ولكن ماذا ؟ فسرى !

« وجهها صار كركية النار :

– ليس هو العريس !!

– فمن يكون العريس ياترى ؟ هل يشتغل خاطبة على أخر الزمن ؟!

« إرتاعت ؛ وضعت يدها على فمى :

– ستفضحنا ياوهدان ! إنه مجرد كلام !

والكلام ليس عليه جمرك !

– أحب أن أعرف شخصية العريس !

« تمهلت قليلا ؛ قامت فأتت ببراد الشاى من فوق المنقد ؛ صارت تصب الشاى فى الكوبة. جعلت أرقب وجهها ، فأعرف انها مهمومة لكنها فرحانة. قدمت لى الشاى :

– الرجل ياابن عمى مجرد رسول ! واسطة خير !

كتّر الله خيره

– أريد أن أعرف شخصية العريس ! لا أحد يمنعك من الزواج على سنة الله ورسوله ! لكن بشرط أن نتأكد من شخصية العريس ! فمن هو ؟ من بلدتنا ؟ من أولاده ؟ من أقاربه ؟..

« طفح وجهها بالخجل :

– يقول إنه أمير عربى من السعودية !

« فكأنها خبطتنى بمنقد النار فى دماغى. وقفت على حيلى :

– ماذا قلت ياصبيحه ؟!

« شوحت بذراعها الملفوف وقد ظهر عليها الندم لمصارحتى :

– ستفضحنا ياوهدان !

– وأين رأك هذا الأمير العربى ؟!

– رأنى حسب كلام الحاج على فى دسوق ! فهو

يعرف التاجر الذى أشترى منه ! فسأله عنى فقال له كلاما طيبا ! واتضح انه يعرف الحاج على أيضا ! التاجر قال له : عليك بالحاج على فهو يخدمك ويكلمها ! فجاء الرجل يكلمنى !!

– وهل وافقت ياترى ؟

– كل مرة أقول له سأفكر سأشاور ! وهو يقول لى كلاماً كبيرا يوقف شعر راسى ! سيبنى لى سراية فى مدخل البلد ! سيشترى لى سيارة ويعلمنى السواقة ! سيكتب باسمى رصيدا فى البنك ! سيبقينى فى البلد ويجئ لى كل وقت ! سيجعلنى أميره ! مستعد لتقديم كل ماقاله قبل أن نكتب الكتاب لكى أصدقه ! فما رأيك فى هذا الكلام ياابن عمى ؟ شاورنى !

« مخى شت ؛ لكنى قلت :

– والله ياابنة عمى هذا كلام ولا فى الحواديت !

وعلى كل حال خلك وراء الكذاب لحد باب الدار !

أنت فى النهاية وراءك رجال وكان يجب أن يخطبك منهم لا من الحاج قرد ! و...

– هو يريد أن يعرف رأيى فى الأول وبعدها يجئ ليطلبنى منكم طبعا !

« بصراحة شاورت نفسى فرأيت أن أميرا سعوديا من رجال المال حين يناسبنا يكون فى ذلك مصلحة كبيرة لنا كلنا ، وقلت أيضا إن الدنيا لم يعد فيها مستحيل ؛ وقلت لها :

- وافقى ياصبيحه ! دعيه يجئ ليقابلنا !

« ضميرى ساعتها أننى أضعها فى مزنق هى والحاج قرد. ولم أصدق أذنى لما أخبرتنى صبيحه بعد أيام قليلة أن العريس قادم يوم الجمعه ليقابلنا. طرت هنا وهناك أكلم الأهل والأقـــارب . يوم الجمعه امتلأت دار عمى الكبير فى شرقى البلد بالرجال. حضر الحاج على ومعه رجل عريض ضخم الجثة كالفيل يتدفق المال من ثيابه ويديه ؛ بجملْ هدية للعروس عبارة عن فرع ذهبى ثمنه عشرين الف جنه عربون الموافقة ، إذ أنه عرف أن صبيحه بنت بنوت. المقصود إبتنى لها السراية بالفعل، واشترى لها السيارة ، علمها السواقة، جعلها أميرة. لم نصدق أن هذه الحورية الأميرة هى صبيحه التى نعرفها ؛ صار عندها خدم وطباخون وسفرجية يقبضون ماهيات كبيرة ..

« حكايتها أصبحت حدوتة مثل حواديت الشاطر حسن وست الحسن والجمال. إتضح أن الرجل لم يكن أميرا، إنما هو من كبار التجار الأثرياء؛ أراد أن يجعل لنفسه دارا فى مصر يقضى فيها أيام عمله فى حضن امرأة صبية لن تكلفه فى الشهر مايتكلفه الفندق فى ليلتين. ويظهر أنه وجد الأجمل منها فى بلدة أخرى فانتقل إليها وترك صاحبتنا. إنقطعت زياراته . داخت وراءه . إستطاعت المنجوسة أن تتوصل إلى عنوانه فى السعودية ؛ ذهبت إليه ؛ عادت بورقة الطلاق ومبلغ كبير لا

اعرف كيف انطق رقمه ، فأصبحت هى من أصحاب الأرصدة الكبيرة فى بنك مصر لكن جوعها للفلوس والعز لا يتوقف..

« كان لابد أن أبدأ كلامى بما تعرفونه لأصل إلا مالا تعرفونه . السراية فى مدخل البلد لا شأن لها بالبلد؛ حراسها كلاب متوحشة لا تعاشر ولا تأمن لأحد غيرى؛ تتركنى أمشى فى الممر الطويل الكثيف حتى أصل إلى باب السراية فأضغط بأصبعى على الزرار. تفتح لى إحى الخادمات؛ أجد الصالون ملآنا بالخلق من كل الأشكال والألوان تجعلنى أتلذذ من محاولة ربط كل منهم بإحدى السيارات الراكنة حول السراية : أفندية وجلاليب ودشداشات ودائما أبداً يتضح لى أن أصحاب المرسيدس هم من لابسى الجلاليب المترهلة . العزائم لا تنتهى كل ليلة. من هؤلاء ياست ؟! هم ضيوفى ياوهدان ولا شأن لك بهم أو بأى شئ فأنت لست وصيا على لكنك تستطيع أن تأكل الشهد من ورائهم إذا لينت مخك الناشف هذا. فعلا أنا لست وصيا عليها. صبيحه أصبحت تعرف الكلام الكبير كما تعرف الناس الكبار فاقل واحد فى ضيوفها - كما قالت لى - يستطيع أن يتاوينى تحت الأرض ..

« ربكم والحق سكت . فمن أنا حتى أقف فى وجه واحدة انفتحت لها طاقة القدر فأصبحت ينام تحت قدميها مأمير وحكام وأعيان وأمراء وقطاع طرق ؟! أنا فى النهاية مجرد نفر يشتغل

باليومية عند الناس؛ ومادام الكبار فى العائلات يسكتون فليس يحق للصغار أن يتكلموا . قلت : ياولد فتح مخك وعش ؛ شف أخرتها مع الست التى طلعت لنا فى آخر الزمن . وأخيرًا جاء ذلك اليوم الذى لا أقدر على نسيانه أبداً : تعشيت مع الضيوف على ترابيزة السفرة ديوكاً رومية وحماما محشوا بالمكسرات ؛ شربت مما يشربون من زجاجات تساوى الزجاجة وهى فارغة ثقلها ذهبا فما بالك وهى ملآنة . فى عز الليل غمزتنى كالعادة بطرف عينها تذكرنى بواجب الإنصراف. فلما استأذنت ومضيت نحو الباب سحبتنى إلى غرفة جلوس أخرى داخلية . أضاءت نجفاتها كأشجار فى الجنة. دعتنى للجلوس فجلست . جلست أمامى كالحورية قدمت لى سيجارة أجنبية ؛ صارت تشرب السجائر هى الأخرى كبطلات الأفلام. أعطتنى علبة السجائر كلها ومالت نحو رأسى هامسة :

– انت تعرف عبد السلام كحك طبعا !

– بتاع عزبة العرب ؟

– هو !

– طبعا أعرفه !

– فيه عريس لقطة لبنته محاسن !

– محاسن هذه طفلة ! تلميذة فى سنة أولى إعدادى !

– لا يهم ! إذا جعلته يوافق ينفتح له باب السعد ولك أيضاً !!

– كيف ياست ؟!

– سيدفع العريس عشرة آلاف جنيه مهرًا للبنت ! ويجهز كل شئ ! يأخذها بهدمة البيت ! وإن طلب أهلها أى مساعدة سيقدمها ! أما أنت فلك مائة جنيه عندما تجئ بالموافقة ! ومائة أخرى عند كتب الكتاب ! تأخذهما منى !

« ماكذبت خبراً . من صبيحه ربنا -- ركبت إلى عزبة العرب ؛ فالتقيت عبد السلام كحك حدثته فى الموضوع. المنجوسة عرفت كيف تُختار ؛ العروس حورية ؛ والأب فقير لا يجد اللضى . ماأن سمع رقم العشرة الالاف حتى وقع مغشيا عليه من الفرح. نفس الشئ حدث لزوجته ؛ أعلنت فى الحال موافقتها ؛ لكنها كانت أكثر حصافة من زوجها الدغف ؛ طلبت منى – إن كان العريس جادا فى طلبه – أن يرينا كيف أنه اشترانا – كيف ؟ قالت : عندى ولدان أطلب لهما شغلا فى الكويت. نقلت طلبها للست صبيحه ؛ فلم يمر أسبوع إلا واشتغل الولدان بدبلوم التجارة فى محلات فى الكويت بمرتب كبير. ثم جاء العريس فاذا هو رجل فى السبعين من عمره أو يزيد . خيل لى أنه سيخطبها لحفيده؛ فلما اتضح أنه هو نفسه العريس تململ الكل فى قعدته ؛ لكن رزم الفلوس حينما القيت على الطبلية خيط الجميع أفواههم . بعد جمعة واحد انتقلت البنت المسكينة إلى الكويت حيث لا أحد يعرف عنوانها بالضبط؛ من يوم سفرها لا

حس ولا خبر . بعد بضع شهور عادت إليهم بشنطة هدومها رفيعة كالعصا، مصابة والعياذ بالله بأمراض حار الحكماء فى معرفة علاجها؛ فى يدها ورقة الطلاق؛ وفى اليد الأخرى مبلغ من المال خلصه الحكماء فى جمعتين ..

« لم يعد لنا شأن بهذه ، تمرض أو حتى تندعق ؛ إنما اللعبة احلوت ؛ زينها لى إبليس ، صارت بئرا من الفلوس لغرف منه بالحفان فالست صبيحه لا تهمد ؛ كل يوم ترسلنى إلى بلدة من البلاد والعزب والكفور المجاورة لبلدتنا . تنشن على البنية فلا أعرف كيف عرفتها ومتى رأتها وأين. مخى المظلم لم ينبهنى إلى أن المدة التى اشتغلتها صبيحه فى تجارة الخضار والفاكهة عرفتها على كل بلدان الناحية وأهاليها . كل يوم والثانى أقبض المائة الجنية عقب الموافقة وعقب كتب الكتاب غير بقشيشات من العرسان من ملابس وأحذية وسجائر وحلويات لم أكن سمعت بها من قبل لم أعد أذكر عدد البنات المسكينات اللواتى قمت ببيعهن لرجال فوق السبعين والثمانين من العمر بمهور تبدو كبيرة فى نظر أهاليهن الفقراء وهى فى حقيقتها لا تساوى مصاريف ليلة واحدة ينفقها العريس على راقصة. بثمن سهرة واحدةيفض بكارة طفلة جميلة بريئة يبهدل جسدها الغض يعلمها العهر؛ وبعد أن يعصرها عصراً طول سنة أو أكثر أو أقل يعيدها إلى أهلها كمصاصة القصب مريضة هفتانة موتها أفضل

من حياتها. مرات كثيرة - ربما بعدد شعرى رأسى - كنت أتصادم فى أحد الأسواق برجل يكاد يطبق فى زمارة رقبتى ؛ فأحاول معرفة السبب، فيتضح لى بعد برهة أنه أب أو أخ أو عم بنت من البنات اللائى بعتهن للديوك العجوزة. ألجأ إلى الإستعباط والإدعاء بأنى وفقت رأسين فى الحلال فلا ذنب لى . يقول لى من يريد خنقى إن البنت جاءت تشكو من التعذيب الذى وقع على جسدها لسعاً بالكرباج وكيا بالنار وعضا بالأسنان؛ لأن بعض العرسان كانوا مصابين بالشذوذ يريدون إتيان البنت من الخلف فتمتنع فيمزقها بالكرباج، وبعضهم يجامعها بجنون كالحيوان فيقضم من ثديها قضمة أو من خدها؛ وبعضهم كان يريد أن يعرضها على أصدقائه. بعض هؤلاء الفتيات متن قبل وصولهن لأهلهن؛ وبعضهن بعد وصولهن بقليل ؛ وبعضهن لم يصل عنهن أى خبر ولا يعرف لهن أى عنوان. من حسن حظى وحسن تصريف هذه المرأة الجهنمية أنها اتجهت إلى البلدان المجاورة حتى لا تخلق لنا المشاكل فى بلدتنا ؛ لكننى صرت مهددا بقطع الرقبة من كثير من الجيران. شكوت حالى لصبيحه فاختارت لى مهمة ثانية. صارت تبعثنى كل ليلة فى طلب : هل تعرف دار البنت الأرملة فلانه الفلانية؟ نعم؛ إذهب وقل لها إننى أطلبها لشغل فى السراية . من عبطى وعماء قلبى أفعل. تجئ فلانة وفلانة وفلانة، وكلهن أرامل

مات أزواجهن أو غابوا فى بلاد المال سنوات طويلة. أرى صبيحه تستقبل الواحدة منهن فتقودها إلى الحمام ، لتخرجها بقميص النوم الشفتشى ؛ تضع على يديها صينية بأكواب الشرب ؛ تدفع بها إلى الصالة الكبيرة الجوانية المطلة على الجنينة. أظل أنا كالأهبل فى الزفة إلى أن تجيئنى غمزة العين تأمرنى بالإنصراف . كنت أنتظر هذه الغمزة وأضيق بها فى نفس الوقت؛ فعندها سأقبض البقشيش ، وبها سأحرم من رؤية بقية السهرة. تشيعنى الكلاب بالتحية ؛ لأظل بقية الليل أدعك نفسى فى الفراش حتى أستريح فأنام منهوكا.

« ماجاء بلاش راح بلاش. صدق المثل؛ فكل المكاسب التى كسبتها من وراء صبيحة راحت فى الفاشوش؛ صرفتها على سهرات اقلد بها السهرات التى أحرم منها فى عز ابتدائها، على نسوان كحيانات اتقيأ فيهن توترى؛ بل إننى صرت أشترى الخمر من دسوق لأنى صرت مدمنا. عرفت طريق الخمارات والبيوت السرية التى قيل إنها انتهت من عهد الثورة وهى فى الواقع على عينك ياتاجر؛ غير أنها مكلفة. غرقت فى بحر الذنوب حتى شعر راسى. بيت النتاش مايعلاش كما يقول المثل، كل شئ ضاع على دماغى ودماغ إيرى. إنما وحق هذه الليلة المفترجة أننى بينى وبين نفسى لم أكن مبسوطا من نفسى؛ وكان الله يعذبنى فيضع أمامى فى كل سكة أمشى فيها واحدة

من البنات المساكين؛ أرى الواحدة منهن فيركبنى ألف عفريت، فكلهن يبدو عليهن الفزع . بكيت مرة بحرقة، لما رأيت بنتا كانت فى الثانوية العامة يوم بعناها بخمسة آلاف وعادت بعد ثلاثة أشهر مسلوبة العقل لم تتعرف على أحد من أهلها فصارت تمشى في الشوارع مهلهلة الثياب تسيل الريالة على صدرها العارى، تعرج عرجا خفيفا وتنظر للناس بخوف ثم تبتسم فى بلاهة ؛ والأطفال يعاكسونها؛ فتصرخ وتمزق وجهها تشد شعرها تتمرغ فى التراب. ضربت الأطفال صرفتهم عنها، حنوت عليها مشيت معها حتى السكة الزراعية الموصلة لبلدتها؛ لكنها انطلقت تجرى بسرعة والهواء يرفع هلاهيلها عن افخاذها البيضاء المبرومة؛ فما كادت تبتعد عنى حتى انحنت تلم الطوب والحصى تقذفنى به وهى تضحك وتبكى. فرجعت إلى دارى أبكى. بقيت طول الليل اتمنى لو أنها كانت عاقلة لأعرف منها ماالذى فعلوه بها لكى تصل إلى هذه الحالة. رقدت جمعتين لا أذهب إلى صبيحه ولا أطيق سيرتها. فجاءت هى لتطمئن على، رشقتنى بالحقن، نفحتنى بريزتين، قالت : سافر ورفه عن نفسك. رايت فرقة الدراويش الشرانبة يستعدون للسفر إلى مولد البدوى للحاق بالليلة الكبيرة . قلت : ناداك أبو عرب ياوهدان فاركب إليه.

فى خيمة الخدمة عرفونى على الشيخ إبراهيم؛ فملس على

كتفى، وطلب الرحمة لأبى، ثم قال :

– تب ياوهدان ! رائحتك فاحت فى كل مكان والمرحوم يتقزز الآن فى رقدته ! لن أضع يدى فى يدك النجسة إلا بعد أن تتوب وتتطهر وتعود إلى الله !

« ذلك اليوم لا أنساه . صار أبى يطلع لى فى المنام كل ليلة أزرق الوجه تفح منه ألسنة اللهب تلسعنى كلما اقتربت منه، فأرتد صارخا، فيقترب هو منى يحاول أن يأخذنى بالحضن وأنا أفر صارخاً فأتكعبل فى خطواتى فاقع والنار تسقط فوقى. العين بصيرة واليد قصيرة. عدت غصبا عنى إلى صبيحه؛ فهى مصدر رزقى الوحيد بعد أن نسيت يدى مسكة الفأس ونسى ظهرى الانحناء على الأرض . طلبتنى فى مشوار إلى البندر. الهاتف قال لى : وافقها هذه المرة ولتكن الأخيرة تتوب بعدها توبة نصوحا :

–تسافر اليوم إلى دسوق وتنتظر فى قهوة ينى حتى الساعة الرابعة يجيئك الشيخ ابو نواف الذى رأيته عندى كثيرا سيعطيك صندوقا كبيرا به زجاجات هاته فى عربة أجرة وتعال !

وهذه اجرة السكة ومصاريفك !

«إتكلت على الله . مررت على الخمارات جسست النبض واتفقت على الأسعار . تغديت وجلست على قهوة ينى حتى جاء ابو نواف بسيارته الملاكى الكبيرة؛ ترك لى صندوقا كبيرا وانطلق إلى حال سبيله . فتحت الصندوق فإذا به يحتوى على

خمسين زجاجة من ذلك المشروب المسمى بالجن. بعربة يد صغيرة نقلته إلى الخمارة التى اتفقت معها؛ قبضت رزمة تخينة من الفلوس الخشنة الخضراء ورقا بعشرينات . سكرت لآخر مرة فى حياتى. أمضيت فى دسوق ليلة كاملة، إنزويت فى مكان بعيد فمزقت هدومى وخبطت راسى فى الحائط خبطات قوية عورتنى. نظرت فى مرآة مرحاض المحطة فبدوت كأننى معتوق من عصابة شريرة كادت تقتلنى من الضرب. سبكت الفولة بأن عدت إلى البلد ماشيا، فلما وصلت إلى دارى دفنت الفلوس فى الأرض، وتوجهت إلى صبيحه . رأتنى فصوتت. حكيت لها باكيا أننى ركبت بالصندوق سيارة توصلنى إلى هنا فإذا بها تضم عصابة حودت بى إلى سكة مقطوعة فضربتنى حتى أغمى على ورمتنى فى الطريق واختفت. المرأة صدقتنى وواستنى ببريزتين. حبست نفسى فى الدار حتى شفيت. وفى صباح أحد الأيام حملت فأسى وانضممت إلى أنفار العزيق. إمتنعت عن زيارة صبيحه واسترجعت قوتى فى الشغل. وكنت مرتبا كل شئ فى دماغى. وفى ذات صباح لبست الكشميرة وتوجهت إلى بلدة العجوزين قاصدا بيت روحية، المنجوسة بنت الرفضى إمراتى. كانت روحيه من البنات اللائى بعتهن وعادت طفشانة هربانة بورقة الطلاق مقابل تنازلها عن أى حقوق طرف زوجها. طلبت يدها فوافقت، فاشتريت سريرا ودولابا وبعض الحلل ودخلت على روحيه

واعتبرت أنى بذلك كفرت عن بعض ذنوبى. وبدأت أصلى الفرض بفرضه، الفرض فرضين لأسدد ما علىّ من ديون الله . لكنى شعرت الليلة أن الله لا يتقبل منى؛ فدبرنى ياعم الشيخ عبد المقصود وأنتم يامن تعلمتم : ماذا أفعل ليتقبل الله توبتى ؟ أنا فى عرضكم »..

– « ياخلق الله .. كل هذا يطلع منك ياسفروت ؟! »..

– « إخص عليك راجل نتن !! إتفوه !! »..

– « تظن الله يتقبل توبتك ؟! »..

– « عشم إبليس فى الجنة ! »..

– « إن الله غفور رحيم ياأسيادنا إلا تغلقوا باب التوبة فى وجهه !».

– « صدعتنا وملأتنا نكداً وغماً !!»..

– « الواحد قرفان من نفسه !»..

– « ياما تحت السواهى دواهى !»..

– « يعنى ألقى بنفسى فى البحر لتستريحوا ؟! »..

– « لو كنت مكانك لفعلت ! »..

– « إتق الله يارجل !»..

– « مثله ومثلها عار على المسلمين يافضيلة الشيخ !»..

– « من أدرانا ؟ لعله يصبح من خيرة المؤمنين !!»..

« صدقت يامولانا ! قلبى يحدثنى بهذا !!»..

– « هذه بداية العبط ! الدروشة هروب !»..

– « من غير دروشة سأقضى العمر متعبداً !!»..

– « خلص ضميرك وبلغ عن هذه العاهرة وعن نفسك !!»..

– « إتق الله يادكتور ! إن الله حليم ستار !!»..

– « الدكتور محق ! الناس تعايرنا بهذه المرأة !!»..

– « منه لله من كان السبب !!»..

– « منْ كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر !!»..

– « العصر كله مدنس قذر !!»..

– « نجومية ولاشرف !!»..

– «ثروة وقتيل !!»..

– «الكفتان متعادلتان فاختر مايناسبك !!»..

– « الحرام بيّن والحلال بيّن !!»..

– « كل ميسر لما خلق له !!»..

– « لا جديد تحت الشمس إلا العهر العلنى !!»..

– « كل الكلم الطيب أصبح هزأه !!»..

– « قاموس الشرف كله سئ السمعة !!»..

– «الطوفان زاحف زاحف لا محالة !!»..

– «إنه مجرد امتحان ! من يخرج سالما هو الفائز !!»..

– «وقيل هو الخاسر !!»..

– «الدنيا طوال عمرها دنيه والزمن غدار !!»..

– « نحن كلنا ملوثون ! كلنا جراثيم معدية !!» ..

– «الكون كله صائر إلى خراب ! ستدمره التكنولوچيا !!» ..

– « لن يدمر الكون إلاّ صراصير العالم الثالث !!» ..

– « سيدمره الذين يشترون التكنولوجيا ولا يقدرون المسئولية !!» ..

– « الزعماء الجهلاء يشترون القنابل النووية !!» ..

وغدا يتعارك الفتوات بالقنابل بدلا من النبابيت !!» ..

– «قولوا : اللهم نجنا من المجهول !!» ..

– « بل قولوا : اللهم نجنا من أنفسنا !!» ..

– «قلت ! هذا صديقك الشاعر جعفر العطار قد أتى !!» ..

– «إنه مدرس فى معهد المعلمين بكفر الشيخ ! أهو شاعر ؟!» ..

– « ومشهور جدا فى القاهرة ! وله تلاميذ مشهورون !!» ..

– « مارأيته أبداً إلا وهو يدفع عربة المهندس عدلى !!» ..

– « إنهما أصدقاء صبا ! زملاء دراسه !!» ..

– « عدلى بقوش مهندس أم ضابط ؟!» ..

– «كان مهندسا ! فلما دخل التجنيد صار ضابطاً !!» ..

– «ليته ظل مهندسا فحسب !!» ..

– « هذا فى نظر بقف مثلك ! أما فى نظر الذين يفهمون فهو بطل وطنى. ! شاب مثل الورد أكلت الحرب ساقيه فى اكتوبر

٧٣ ! فماذا فعلت أنت ؟!» ..

– «وماذا فعلت له الدولة ! بماذا نفعته بطولته ؟!» ..

– «الدولة كرمته !!» ..

– «بعربة العجزة هذه ؟ يحرك عجلتيها بيديه فى شوارع بلدتنا المطينه ؟!» ..

– «هو نفسه سعيد بوضعه ! يكفى أن شاعرا كجعفر العطار يدفع له العربة طالما هو فى البلد ! وأى واحد فينا يرحب بخدمته !!» ..

– «ماأخذ إلا خازوقاً مشفياً !!» ..

– «إسكت ياجدع ! نقطنا بسكوتك !!» ..

– «السلام عليكم !» ..

– «عليكم السلام ورحمة الله وبركاته !» ..

– «هات الباشمهندس هنا ياأستاذ جعفر !» ..

– «تعال مطرحى أنا !» ..

– «ماالجمل القمر وهذا الجمع السعيد !» ..

– «بك وبشاعرك تكتمل سهرتنا !» ..

– «سهرة سعيدة بإذن الله !» ..

– «اهى سعيدة حقاً ؟!» ..

– «كيفما ترى ياشاعر المعلقات !» ..

– «ارى أن يأمر الدكتور خفيره بعمل شاى لنا !!» ..

- «نحن كثيرون !»..
- «أسقيكم دمى لو أردتم !»..
- «كفانا الله شر الدم !»..
- «يا .. بعضشى . بعضشى .. هات عدة الشاى هنا !»..

٨- مَنْزِلَهْ

.. «تتساء لون عن هذه الندبة التى انحفرت فوق أنفى غيَّرت شكلى فكأننى متشرد بلطجى من مدمنى المخدرات ؟!..

« هذه الندبة فى نظرى كعلامة مقدسة كزبيبة الصلاة تنطبع على جبهة المصلين الأتقياء هى وسام شرف تطوع الجلاد بمنحه لى على غير رغبته..

« معظم الصحف لا تأتى إليكم وإن أتت فلستم تفتحونها إلا على مايعنيكم وماأقل مايعنيكم فيها لكن الكثير الكثير مما قد يعنيكم فيها يضيع عليكم ولو أنكم تمعنتموه لما اضطرر تم لمثل هذه السهرة الحمقاء فى انتظار وهم كمعظم الأوهام التى تعيشون بها ولها ..

« ماأنتم جميعا سوى رأس القتيل الذى قيل إنه يحرس الثروة حتى تصل سالمة إلى مغتصبها !..

« ماأكثر عدد المغتصبين فى حياتكم وماأكثر ماتساعدونهم على التضخم والتوالد والتكاثر كأنما يلذكم آلا تعيشوا بغير

مصاص دم ينتشى بدمائكم فتنتشون لنشوته !!..

«الكثيرون منكم يرحبون بالفوضى لأنها تعطيهم الأمل مفتوحا ومفضوحا فى أن يجئ دورهم فى إلنهب والتضخم !!..

« أنتم ياأبناء جلدتى من أسف تحترمون اللصوص وقطاع الطرق تقدرونهم تصنعون لهم التماثيل !!..

« اللص بينكم دائما ظريف ومحبوب وأحيانا يكون شريفا !!..

« اجدادكم منحوا بعض اللصوص وقطاع الطرق وسام الشرف لأنهم - اللصوص والقُطّاع - ينوبون عنهم فى التصدى للحكام المستبدين للأقوياء الجبابرة يستلبون ثرواتهم يوزعون منها شيئا على الفقراء - ذراً للرماد فى العيون - ويحتفظون بالباقى لأنفسهم !!..

« ذلك أن اجدادكم كانوا عاجزين عن رد الظلم واقعين فى براثن القهر خائفين من سطوة سيف الحاكم راكعين لذهبه فباتوا يشجعون قطاع الطرق وعتاة اللصوص والشطار يمنحونهم شرف البطولة يتسترون عليهم لا حباً فى على بل كرها لمعاوية !!..

« إنعكست الآية عندكم فبات لقب الشاطر - وهو قاطع طريق - مكافأة تمنح للأطفال الأذكياء والشبان النجباء والرجال الذين ينجحون على حساب أى قيمة !!..

« قسمة غير عادلة . إستجرتم من الرمضاء بالنار ..

« لجأتم إلى لص صغير ليحميكم من لص كبير فاستعان بكم اللص الصغير على حسابكم يصير لصا أكبر فتعيدون الكرة من جديد بحثا عن لص صغير توجهون نشاطه إلى لص صنعتموه أنفا وهكذا دواليك نعود فى نهاية كل دورة إلى نفس البداية. وأخر ماكنت أتصوره أن المتعلمين منكم أصبحوا أكثر استجابة للخرافات والأوهام من الدهماء والعامة !!..

« تلك هى بدايات الإنهيا العام حيث لا يصبح ثمة بشر بمعنى الكلمة فوق هذه الأرض الطيبة المسكنة فيجئ من هو أجدر بها أقدر على حمايتها والإنتفاع بثرواتها شأن مصر فى جميع العصور حيث الثروة هى بيت القصيد هى المحور هى أس البلاء مشكلة المشاكل كلها : من هو أحق بامتلاك الثروة ؟ الحاكم أم اللص أم كليهما معا حين يصبح اللص هو الحاكم والحاكم هو اللص !!..

« الثابت أن هذا هو ماحدث دائما : الحاكم اللص أو اللص الحاكم يستقل بالثروة وحده وبقية الناس لها الفتات أو بقايا فتات الفتات !!..

« قديما قيل لجحا : ماوطنك ياجحا ؟ قال : هو مؤخرة بقرتى نقصد أن وطنه هو مصدر غذائه ! وحين يرى المواطن أن ثروة بلاده منهوبة مستلبة فإنه - تلقائيا - يصبح مستعدا

لمؤازرة أية قوة أجنبية توهمه أنها ترد إليه ماانتهب منه !!..

« ذلك فى نظرى هو سر دوام احتلال مصر على مدى الأزمان يتسلمها غاز جديد قوى من غاز قديم ضعيف والشعب يتفرج على صراع اللصوص حتى إذا ماانتصر أحد اللصين على الآخر انقلبوا يباركونه يتملقونه طمعا فى دوام الفتات

–نخليكم بعافية !

– خذنى معك !

– بدرى ياأبو نجم !

– عدم العجلة ياعبد المجيد ؟

– ورائى مهمه !

– النوم أفضل !

– بالسلامة يارجال !

« .. هاأنتم ترون أن قاطع الطريق لم يعجبه كلامى فانصرف وانصرف معه ابن قاطع طريق آخر !!.

: لو سألتمونى الرأى فى كليهما نقلت لكم إنى احترم الأول لأنه صريح وواضح متسق مع نفسه فى حين أمقت الثانى لأنه يتسربل بمسوح الرهبان يبرع فى الخداع !..

« لا ذنب للإبن فى سلوك أبيه أى نعم لكننى واثق أن هذا الجرو من ذاك الكلب وإن واتته الفرصة كما واتت اباه فسوف يكون أشنع من أبيه !..

« سأقول لكم بالطبع مادمتم لم تقرأوا حكايتى فى الصحف لقد تم القبض على من دارى هاهنا ذات فجر بغير تهمة حقيقية !! رموابى فى السجن فى طرة إنهالوا علىّ بالضرب والتعذيب لكى أعترف بجرائم لم أرتكبها !!..

« كل جريمتى أننى عربى حتى النخاع !..

« أصبحت الهوية تهمة يعاقب المواطن عليها !..

« قالوا إننى متهم بتكوين فرع من حزب البعث العراقى فى مصر وأننى مؤيد لصدام حسين فى غزوه للكويت !..

« أما حزب البعث فإنه ليشرفنى ويشرف كل عربى حقيقى ان يكون عضوا فيه ينتحل اهدافه وطموحاته فما هو الإحلم واقعى قابل للتحقيق : أن يصير العرب أمة واحدة كما أراد لها القرآن الكريم خير أمة أخرجت للناس أن يتمتع كل فرد فيها بحقه المشروع فى ثروتها هوائها شمسها مياهها !..

« أما تأييدى لصدام حسين فلا أستطيع التنكر له وكيف انكره وانتم الآن بسهرتكم هذه فى انتظار بغلة العرش تؤيدونه بشكل غير مباشر ؟!..

« ألستم جميعا أصحاب حق مشروع فى الخرج الملئ بالذهب ؟ ألا يدور بخلدكم أن رءوس القتلى التى توضع فوق أخراج الذهب ربما كانت من أهلكم وذويكم ؟!..

« أجزم لو أن البغلة كانت حقيقة فأنتم الخرج والقتيل معا !..

« أنتم طول عمركم تكرسون للشطار الذين ينتقمون نيابة عنكم من العتاة الجبابرة مصاصى الدماء السّتم والحالة هذه أحرياء بالتكريس لمن يفكر فى تعديل أوضاعكم أوضاع هذه الثروة التى تم استلا بها منكم على مدى الأزمان ليستمتع بها رهط من السفهاء المترفين المتكئين فيها كأنما بحق إلهى ؟!..

« كل مااستطيع الإعتراض عليه هو الأسلوب الذى تم به هذا العمل النبيل رغم أننى التمس له العذر لأنه فى النهاية من صنع خيالكم !!..

« لقد تصرف كواحد من الشطار الكامنين فى وجدانكم !!..

« بعض النظريات السياسية التى قرأتها تقول إن الغاية تبرر الوسيلة فلا جناح على الشاطر حسن إن هو استخدم أخس الوسائل فى عرف الأخلاقيين لينقذ ست الحسن والجمال السجينة فى القصر المسحور فكلما كانت القوى السجانة باطشة خرافية فوسائل مناهضتها لابد أن تكون من ثمة شاذة ربما مضحكة إذ هى الأخرى بلا منطق !!..

« أن تملك مجموعة معينة من الناس كل ثروات البلاد بغير منطق أو شرعية فلا ننتظر أى منطق فى التمرد على هذه الأوضاع الذى قد يأخذ أشكالاً متعددة !!..

« هل فى انتظاركم هذا الآن لبغلة العرش أى منطق ؟!..

« لا تفسير له إلا أنكم جميعا خاضعون للمنطق السائد فى

كل المجالات فكلكم تحلمون بالثروة العاجلة بدون جهد بشرط أن تكون مؤيدة بإرادة سماوية حتى ولو كانت مشروطة بقبول رأس القتيل إذ أن جميع الثروات الآن قد أصبحت هكذا !!..

« الجلاد هو الآخر كان يعذبنى بهذا المنطق اللا منطقى ومعى رهط من الشبان المساكين العائدين من العراق بعد أن ضيعوا عمرهم فى الغربة من أجل مسكن ومهر عروس !..

« الجلاد يسأل الواحد منهم باعتباره خائنا يقبض ثمن الخيانة ! يقول له : كم أعطوك ، العراق ياولد ؟ الولد من شدة الضرب والتعذيب والضعف يصبح مستعدا للإجابة على أى سؤال بالجواب الذى يسعى إليه الجلاد ! يقول : أعطونى كذا ! فقد يتركه لأنه اعترف !!..

« أما أنا فلم أكن أخذت شيئا على الإطلاق لم آخذ حتى بعض حقى جزاء عملى كموظف فى إحدى مؤسساتهم الثقافية وكل ماأردده من آراء حول العروبة وحول عظمة الشعب العراقى وجدارته بالنصر فى حربة إنما هى آراء تمثل قناعاتى الخاصة !..

« حماستى لصدام حسين ليست لشخصه بعينه بلحمه ودمه إنما هى حماسة للبطل الذى أحلم به لتوحيد هذه الأمة وتحقيق مجدها اللائق بها وبتاريخها وهو بطل لابد أن تنجبه الأرض العربية فى أية بقعة من بقاعها لهذا فأنا مضطر للتصفيق له كلما توسمته ولو فى سلوك عابر !!..

« على أن الجلاد لا يفهم لذلك أكتفى بالرد عليه بأننى لم اتقاض اى مليم لأننى لم أؤد أية خدمة لأشخاص أو حكام إنما أؤدى خدمة لأمتى ! فحينئذ يتملكه الغضب الشرس الحيوانى : كيف لا أتقاضى ثروة كبيرة طالما أن الفرصة متاحة أمامى ؟! إننى إذن لمجرم أثيم يستحق قطع رقبته !!.

« وهكذا البسونى الغمامة الحديدية التى طبعت هذه الندبة بين عينى كسرت أنفى دون أن تكسر كبريائى فلم يفلح الضرب والتعذيب فى حملى على الإعتراف بأى جرم حتى ولو بجدع الأنف !!»..

٩- مَعْيَلَهْ

.. « يعنى لم يسألنى أحد منكم أين كنت أنا وصديق عمرى جعفر العطار. لم يلاحظ أحد منكم أننا قادمان من جهة المحطة ؛ كان الله فى عونكم فأنتم جميعاً فى شغل من أمركم. أقطع بأن كل واحد منكم الآن فى حاله مع أن الظاهر أنكم جميعا فى موقف واحد فى قعدة واحدة يشغلكم موضوع واحد ...

– «أنا أعرف ياباشمهندس ! لابد أنكما كنتما فى مركز الشرطة فى البندر بسبب السياسة !» ..

– «هل حقا أنكما شيوعيان ياولدى ؟ أنا سئلت هذا السؤال من كثير من المصلين زعموا أنك وصديقك الشاعر ملحدان !! فقلت لهم إن القلوب لا يعلمها إلا الله !» ..

– « هما فقط يحبان السياسة ياأبا الشيخ !» ..

« .. سياسة ماذا ياناس ياطيبين ؟ أى سياسة تتكلمون عنها ؟هل فى البلد سياسة من الأصل ؟ سر هذه الحركات المتطرفة

العنيفة هو أن البلد ليس فيها سياسة ولا سياسيون. ولو كان هناك سياسة لحدث تفاهم باللسان والعقل. لكن بما أن العنف والإرهاب قائمان فى الحكومة فلابد من عنف وإرهاب يقومان فى الشباب بنوع خاص..

« زمان ، قبل الثورة ؛ كان هناك سياسة وسياسيين على قفا من يشيل . طلاب الجامعة بالذات لابد أن يهتموا بالسياسة لأنهم على أبواب الحياة العملية، والمفروض أنهم سيكون منهم الوزير والمدير والرئيس ؛ والمفروض أيضا أن يتدربوا على العمل السياسى حتى يكون وعيهم السياسى كبيرا حينما يجئ دورهم لقيادة البلاد. جاءت الثورة التى كنا نحبها ونتمناها فصدمتنا؛ فحاولت منع طلاب الجامعة وجميع الشباب من الإهتمام بالسياسة. هذا طبعا ضد طبائع الأمور، ومن هنا كان الصدام قائما على الدوام بين الطلاب وحرس الجامعة. من هنا جاء حرس الجامعة فى الأساس ، لمنع الطلاب من السياسة، شيئا فشيئا أصبح الحرس الجامعى هو الحاكم بأمره فى الجامعة؛ كلمته هى العليا وكلمة العميد هى السفلى. العميد لا يفعل شيئا إلا بإذن من الحرس الجامعى. تضخمت سلطات الحرس الجامعى. سقطت هيبة العميد والتعليم العالى وكل الهيبات فى البلد. لم يعد للكبير قيمة يحترمها الصغير؛ ولم يعد للصغير حقٌ يعترف به أحد. منذ الثورة حتى الآن عمر طويل ماتت فيه

كل الزهور الطيبة؛ هاجرت كل الكفاءات العالية؛ مات الموهوبون ؛ لم يبق لدست الحكم سوى الإنتهازيون البيروقراطيون المدربون على :حاضر ياافندم تمام ياافندم. سيف المعز وذهبه هما السلاحان المسلطان على الجميع؛ فالكل يختار الذهب بطبيعة الحال. شرفاء القوم يموتون جوعا أو يبيعوا ضمائرهم وذممهم بثمن بخس. فإذا كان رؤساء الهيئات والمؤسسات الحكومية، خاصة الإعلامية منها، يتملكونها تماما فإن من ليسوا برؤساء عليهم أن يبحثوا عن شئ يتملكونه بأى شكل. الخبر الرئيس فى كل الصحف والإذاعات هو تحركات الرئيس ومن بعده رجاله؛ فليحترق العالم كله فإن خبره لن يكون إلا فى الهامش..

« هذه الحكومة الإرهابية الغبية نجحت فى خلق شعب من أكلة العيش المسالمين؛ الكل يقول : يلا نفسى. وحقيقة الأمر أن إسرائيل وسيدتها أمريكا هما وراء نفى الشعب المصرى الحقيقى إلى مكان بعيد لا أحد يعرفه، وإيجاد الشعب الذى يريدون، الشعب الذى لا شأن له بأى شئ، المشغول فى لقمة عيشه ومأواه وملبسه ليل نهار. الدول العربية سلمت البترول لأمريكا؛ وأمريكا سلطت علينا سلاح الإقتصاد وشجعت الحكومات العربية المتعنترة على عزلنا فاستلبت رءوس أموالها بعيدا عن ديارنا حتى لا تنتفع بمشاريع يشتغل فيها المال العربى فى بلادنا تجارة وصناعة وزراعة . أمريكا ببنكها الدولى وصندوق

نقده الضلالى سلطت علينا سلاح الديون لتربط رقابنا بمؤخرات دباباتها وطائراتها وصواريخها المنصوبة لنا فى عقر دارنا. الحكومة لم يعد لها أى شأن بحياة الناس أو موتهم؛ يندعق الجميع طالما أن الحكومة فى بلهنية من العيش ؛ لم تعد تدعم شيئا ولا تساند شيئا ؛ رضخت بالكامل لشروط البنك الدولى ومع ذلك تزداد ديوننا ، ولسنا نعرف أين إذن تذهب هذه الديون ؟! المصيبة السوداء أنهم يطلبون من عامة الشعب تسديد هذه الديون . وهذا المدعو مصطفى أمين يكتب فى فكرته اليومية المهببة بهباب الفرن يضحك على ذقون السذج الغلابة يغريهم بالتبرع لسداد الديون ؛ يعنى على الموظف المسكين الذى لا يكفى مرتبه لتوصيله إلى مقر عمله ، أن يقتطع من هذا المرتب شيئا يتبرع به لسداد ديون لم ينتفع بها ولا يعرف عنها شيئا. وآخر فكرة كتبها بالأمس كان يحرض فيها الحكومة على التعجيل بإصدار قانون الإسكان الجديد، الذى يعطى للمالك حق طرد الساكن ورفع قيمة الإيجار كما يشاء وقتما يشاء. بكل عين قارحة يقول بالحرف الواحد : صحيح أن السكان هم الأغلبية ولكن هذه مسألة أخرى ، إنما المسألة هى أن الحكومة لا يجب أن تخاف حينما تقتنع بقانون واجب الصدور !! هذا تحريض صريح للحكومة ضد الشعب المسكين الذى يشترى هذه الجريدة الآثمة. هو بالطبع يعرف

هذا، ولكن الحياء قد انعدم تماما فى هذا العصر. معذور هو والله إن جئتم للحقيقة ؛ فأولاد القحبة من الشعب المصنوع، شعب الإنفتاح من سارقى أقوات الناس، يتبرعون لليلة القدر بمئات الملايين كل يوم لكى تكتب أسماؤهم فى كشوف الصفحة الأولى . أما أولئك الذين يحجبون أسماءهم فإنهم يتاجرون على الله سعيا وراء الحسنات ذات العشرة الأمثال. الواحد يقرأ هذه الكشوف فيغتم بدلا من أن يفرح لكثرة فاعلى الخير؛ فمن يقرأ هذه الكشوف الخاصة بليلة القدر صنيعة جريدة الأخبار يتصور أن مصر كلها من الأثرياء المحسنين، وواقع الأمر أننا جميعا من الفقراء المعدمين – لقد خلقوا بليلة القدر هذه فئات من محترفى الشحاذة يتم افتضاحهم على صفحات الجرنان فى سبيل قدم صناعية أو دراجة أو ماكينة خياطة أو عملية جراحية . أما الشرفاء المحتاجون فعلا فإن دمهم الحر لا يسمح لهم بأن يعيشوا على البر والإحسان فى آخر الزمن ؛ فى حين أنهم لم يعدموا المواهب ولا العلم ولا الشهادات ولا الوطنية ؛ وكل جريرتهم أنهم قد أُحسن تربيتهم فى الزمان المحترم فبارت مواهبهم فى الزمان الهزآة ..

« البلد فيها أثرياء أى نعم ، ولكنهم ليسوا كل البلد ولا حتى ربعها ،إنما بأموالهم يبدون أكثر. العائشون من الإعارات والوكلاء والسماسرة وتجار الشنطة والمخدرات والمناصب والمراكز والذمم

كلهم تجرى الأموال فى أيديهم بغير حساب؛ فهم الذين يشجعون التجار والباعة على رفع الأسعار كيفما يشاءون ؛ ومن لم يعجبه يشرب من البحر. حجم الفوضى الآن قد أصبح أوسع من البحر المحيط تربت فيه أسماك متوحشة تعيش على صغار الأسماك..

• حكاية أنى شيوعى هذه - يامولانا - هى محض اتهام يطلقونه على كل من بقيت فيه نقطة دم حر تدفعه إلى التمرد أو الإعتراض أو محاولة الإنعتاق من خناق الفقر وسلطة الإرهاب الحكومى وسطوة التضليل. هل رأيتم حكما فى أى بلد ، لا أحد فيه يعترض على أحد أو على قرار أو قانون جائر أو فعل مشين ؟! هل رأيتم ذلك إلا فى ديارنا ؟! ومن يمارس حقه فى المساءلة أو التمرد يسمى متطرفا إرهابيا يحق عليه الضرب بالرصاص جهاراً نهاراً فى مخدع أمه أو حتى فى رحمها !! .. ياطالما عذبونى فى المعتقلات دون ذنب وأنا الجريح المكسيح فاقد الساقين فى معركة الكرامة والوطن. عذبونى ليس لاتهامهم أنى شيوعى، بل لإرغامى على أن أكون مرشدا على أصدقاء أعزهم ولا أشك فى وطنيتهم . هم يعتقدون أنى مجند بتأثير مدحت عباس الشيوعى الشهير الذى ماإن يخرج من المعتقل حتى يعود إليه ..

• حقيقة الأمر أننى مرغم على حب مدحت عباس على الأقل لأنه ابن خالتى ، وأستاذى ؛ فهو الذى ثقفنى ونورنى وفتح لى مكتبته الغنية بالكتب والدوريات . بين بلدتهم وبلدتنا ثلاثون كيلو مترا فى طرق ملتوية طالما قطعها ماشيا يحمل لى حقائب محشوة بالكتب. هم يقولون إنه كان يجئ ليختبئ عندى من مطاردة البوليس؛ وأنا أقول : فلماذا يطارده البوليس؟ ولماذا رفتوه من وظيفته كمفتش مالى فى شركة التأمين الأهليه ؟ هو ليس مجرما ولا سفاحا ولا إرهابيا حتى يطارده البوليس؛ فى حين ينعم بالحرية مائة الف ليون لص وقاتل. اتقتلنى على أفكار خيِّرة تدور فى رأسى، وتعفو عن سفاحين يملئون البلاد فسقا وفجورا وفسادا ؟! مدحت عباس لم يكن يسعى لقلب نظام الحكم كما يدعون ، فمن هو حتى يحلم بعمل كهذا ؟! ماقوته ؟ ماجبروته ؟ أين الجيش المدرع الذى يقف وراءه ليمكنه من قلب نظام الحكم ؟! إنه لا يفكر إلا فى قلب الغلابة المدهوسين المحرومين من نسمة الدنيا. هكذا كل مايشغله. ثم إنه لا يفعل شيئا يغضب الله . إنه يستمع إلى مايكتبه الشبان من محاولات أدبية ، فينتقدها ، ويرجههم إلى السكك الصحيحة فى الأدب والفن. يقرأ بعض الكتب فيعلق عليها فى صحيفة - كل همه أن يكتب الكاتبون لمصلحة الناس والمبادئ الطيبة والخير والعدالة..

• مدحت ابن خالتى هو وحده الذى أطمئن إليه وأستطيع

الدفاع عنه. أما هؤلاء الأولاد الصغار الذين تعرفت عليهم فى طريقه فإننى استريب فيهم ولا أفهمهم. إنهم شيوعيون بالمعنى الذى وضحه لى مدحت عباس، حينما قال لى ذات يوم لما رأى أن هؤلاء الأولاد يلتفون حولى فى كلية الهندسة لكى يجندونى : الشيوعيون قسمان : شيوعيين عاملين؛ وعاملين شيوعيين ؛ وعليك أن تحذر هذا النوع الأخير : ظننت أنه يخوفنى لكى أنتبه لدروسى ؛ فاشتقت لمعرفة هذا النوع بالذات حتى أتأكد بنفسى وأحدد موقفى منهم. بصراحة اندمجت فيهم ولكن دون أن أعرف شيئا عن تنظيمهم ، ولم أحاول أن أعرف؛ لكنهم كانوا يرتعون فى الشقة التى استأجرها لى أبى فى حى بين السرايات؛ يتركون عندى أوراقهم التى هى مسودات للمنشورات، فلا أهتم بقراءة معظمها لأنها صدمتنى بكلام حماسى غامض وإنشائى كمنظومة من الشعارات التى لا تعنى أحداً فى بلادنا. كنا نظل طول الليل نتناقش فى فائض القيمة والصراع الطبقى ورأس المال المستغل وأقنان الأرض، وأسمع أسماء ينطقونها بقدسية : تروتسكى، لينين ، الميدان الأحمر ..الخ . بعض كلامهم كان يعجبنى فأعيد ترديده بطرب وأحتفظ به فى رأسى ؛ ومعظم كلامهم كان يضايقنى ، يستفزنى ضدهم ؛ فأشمر عن ذراعى وأظل طول الليل أتصدع فى محاولة لإقناعهم بأنهم مشغولون بأفكار لاتهم الشعب المصرى على الإطلاق؛ وأن أى طريق إلى

قلب الشعب المصرى وعقله خارج نطاق الدين ولقمة الخبز إنما هو طريق مسدود ؛ فكانوا يسخرون من جهلى ومن تخلفى. وكنت أوقن أن أدمغتهم قد تم احتلالها وضبطها على أفكار معينة واعتقادات ثابتة كالصخر لا يمكن الرجوع عنها بل ينظرون إلى من لا يوافقهم عليها بشكل عميانى على أنه عدوهم اللدود حتى لو كان يفتح لهم بيته ويترك لهم سريره وجلبابه ولقمة خبزه ومصروف يده . بعضهم كان ذكيا خبيثا لا يكاشفنى بهذه العدوانية بل يظهر عكسها من أجل خاطر عيون السرير والسقف واللقمة وكوبة الشاى والسيجارة ؛ إذ أن معظمهم خاوى الوفاض أكثر الوقت؛ فإن سالت النقود بين أيديهم فإنها تجئ دفعة واحدة فلا يظهرون فى شقتى إنما أصادفهم على غير موعد على مقهى زهرة البستان وعلى أرصفة البارات سكارى يتقاذفون بالألفاظ الجارحة السوقية وسط عبارات رنانة وأسماء جليلة ؛ فأعرف أنهم الآن فى حالة تقمص تام للزعامة ، حيث يشعر كل منهم فى تلك اللحظة بأنه وحده المنظر المفكر المثقف المعلم والباقون عيال عليه؛ يعمد البعض إلى تحطيم كبرياء البعض، والتسفيه من أقدارهم، وتبادل الإتهامات الخطيرة بمنتهى البساطة والأريحية !!..

« بعض كبرائهم، الذين كنت أشعر أنهم يوجهونهم، كانوا يشاركوننى الأسى والأسف لمثل هذه المناظر ؛ ويظهرون لى

الإحترام يعزمون على بكاس أو زجاجة بيره ؛ تجئ رجلى فاجدنى فى نهاية السهرة مرغما على أن احاسب على زجاجة بيرة لكل منهم فى مقابل واحدة طلبها لى احدهم. كثيرا ماكنت افاجأ وانا فى البلد فى الإجازة الصيفية بواحد أو اكثر من هؤلاء قد طب على فجاة ليزورنى دون سابق علم ؛ فاعرف انه إما هارب من الشرطة أو من ديون المقاهى والبارات؛ مع ذلك استقبله بكل ترحيب ؛ فيمكث فى ضيافتى ربما اسبوعاً كاملا. فى إحدى المرات جاء منهم ثلاثة على حين غرة ؛ فوجد وا مدحت عباس فى ضيافتى. هم لا يعرفون أنه ابن خالتى ولا أنا حرصت على إخبارهم بذلك ليقينى أنهم هم الذين ينفروننى من الحركة اليسارية الحافلة بناس فى غاية العظمة والقيمة والإحترام لولا أن مثل هؤلاء الأولاد يشوهون تاريخهم. حدثت ربكة شديدة لحظة دخولهم غرفتى؛ إمتعضوا لرؤية مدحت عباس بل ظهرت عليهم الصدمة. اما هو فقد اكتأب فى الحال؛ ولولا أنه كان فى ظرف حرج لغادر البيت لتوه . شعرت بالموقف، فنقلته إلى حجرة ابن اخى فى أعماق الدار بحيث لا يحتك كل من الطرفين بالآخر. المذهل إنهم أول ماشافوه أخذوه بالحضن والقبلات وظلوا ساعات طويلة يمتدحون سيرته الحسنة التى يشهد بها الجميع، ونضاله المشرف ، وجهوده الجبارة ، ومواقفه العظيمة

التى اتخذها فى المعتقل للتضامن مع زفاق متظلمين، وكيف هدد بالإنتحار إذا استمر السجان فى تعذيبهم ، وكيف انه صار يضرب دماغه فى حائط الزنزانة بكل عنف عشرات الضربات يكاد يفتته احتجاجا على صوت التعذيب القادم إلى زنزانته من زنزانة الإخوان المسلمين. إمتدحوا مقالاته النقدية ومترجماته الأدبية الرائعة ودراساته فى علم الجمال الماركسى التى تعتبر رائدة فى اللغة العربية. وحينما عزلتهم فى غرفة وحدهم آخر الليل طلبوا شاياً، وبعضهم طلب الجوزة لشرب حجرين. جئت لهم بكل المطلوب وإن على مضض. ماأن صهللت حجارة الحشيش فى أدمغتهم حتى كان صخبهم قد ارتفع بصورة غوغائية جعلت أبى فى الحجرة المجاورة يكثر من النحنحة ؛ وصدرت ألفت نظرهم بصنعة لطافة ولكن دون جدوى؛ أنذرتهم بأن العين مصوبة علّى فى البلد بسبب علاقتى بمدحت عباس، وأن العميد سعد الشربينى يسلط على رجاله ؛ ولولا أنه يعمل حسابا لأبى وعمى العمدة لأساء معاملتى ؛ فيخفت صوتهم لحظة ، وسرعان مايرتفع من جديد بالشتائم السوقية البذيئة التى لم تعرفها دارنا أبدا. ثم إذا بهم ينعطفون شيئا فشيئا على الحديث عن مدحت عباس؛ فى صيغة حب وتقدير أول الأمر؛ وكلما ازدادت قشرة الحب سكرية عظم محتواها من السموم؛

افهمونى بأن المسكين مريض مرضا نفسيا لا يمكن علاجه ؛ فقد خرج من المعتقل آخر مرة منقسم الشخصية واقعا فى أوهام خطيرة ؛ أصبح يتوهم أن وكالة المخابرات المركزية تضطهده شخصيا؛وأنها قد تمكنت - بفضل تقدمها التكنولوجى المذهل - من طبع نسخ بشرية طبق الأصل منه لكى تودى بعقله وأعصابه ؛ وأنه التقى اكثر من واحد من هذه النسخ على محطات الأتوبيس والمحلات العامة فلم يحفل بها . وقالوا أيضا أنه قد اصبح مزعجا إلى حد لا يطاق ، يغرم بتعذيب غيره خاصة أولئك الذين يحبونه ويخدمونه ويسهرون على راحته، مهجة البرلسى مثلا، إبنة المناضل الكبير، التى اشفقت عليه وانتقلت إلى مسكنه لتمريضه والترفيه عنه؛ فسقاها المر اشكالا والوانا ، إتهمها بانها عميلة لوكالة المخابرات المركزية. وهكذا انقلبت القعدة إلى نميمة بشعة حادة؛ حتى تصورت أن المسكين فى الحجرة العلوية راح يصرخ على جسده المتطاير شظايا تحت اضراس وأنياب هؤلاء الصغار المجوفين المخربين ؛ فامتلأت بالغيظ والألم ؛ ولكن ماعساى أفعل وأنا فلاح تضيع رقبتى قبل أن أفرط فى واجب الضيافة ؟! ربنا ألهمنى الصبر فتجملت به ؛ ذلك الصبر الذى تعلمته من مدحت عباس نفسه ، وهدوء الأعصاب ، ومواجهة كافة الأخطار والأزمات بابتسامة واثقة

ساخرة ؛ كما تعلمت منه فن التحدث بأسنان الدبابيس التى تشكشك خفية فتؤلم وتوجع، وكيف لا اعبأ بخطورة اى حديث مادمت فهمت محتواه وماوراءه ، وكيف أنحنى تحت الموجة العالية لأستعد لملاقاتها عندما ترتد وأنا اشد صموداً واستعداداً لتفتيتها. لم اعلق على كلامهم؛ لم أسمح للغضب أن يظهر على وجهى حتى أعطيهم الفرصة كاملة لإفراغ ماعلى صدورهم من صدأ. وكان ضوء الصبح ساعتها يرسل وفوده من شبابيك المندرة فيظلل وجوههم بلون أميل إلى الزرقة الكابية الكالحة كلون شفاه مرضى القلوب. وفيما أخى عبد الفتاح - يرحمه الله - الفلاح المتنور يدخل علينا بصينية الفطور الحافلة بالفطير الذرة والقشدة والجبن القريش ؛ لاحظت أو وجهه مربد؛ فتشاءمت ؛ وفعلا ؛ مال على اذنى هامسا بأن ابى - وكان رحمه الله شديد الحب لى - يريدنى بسرعة. فتسللت إلى غرفته الجوانية؛ فإذا هو يستقبلنى بنظرة ملؤها العتاب والألم وشئ من القهر. أشار لى أن أجلس بجواره على السرير. كان مرتديا كامل ثيابه التى عاد بها من صلاة الفجر؛ وبين أصبعيه لفافة رفيعة يسحب منها الأنفاس فى شرود وانشغال عميقين. مال نحوى هامسا فى حرج شديد كأنه يكلم شخصية أعلى منه قدرا بكلام هو مضطر إليه اضطراراً ؛ فكادت الدمعة تطفر من عينى

فيما أستمع إليه مدركاً مقدماً ماسوف يقوله :

– ياولدى لماذا أنت مصر على أن تكتب علينا البهدلة فى آخر العمر ؟! كنت الآن أمام سعد الشربينى نفسه وهو كما تعلم رئيس مباحث المحافظة ! فى دوار عمك ! بعث خفيره ليأتى بى من المسجد بعد صلاة الفجر ! خير ياعمده ؟ خير ياسعد بيك ؟ قال : إبنك يتستر على شيوعى مطلوب ضبطه وإحضاره لأنه متهم بمحاولة قلب نظام الحكم ! ويجعل من داركم مقراً لاجتماعه باتباعه !! كنت ياولدى متأكداً أنه سيقول لى شيئا كهذا ولهذا ..

« ثم سكت قليلاً ، كأنه يستشعر الخجل من فعل صغير فعله بله أن يعترف به، لكنه استدرك ضاغطا على الحروف ليشعرنى إلى أى حد تسببت أنا فى تصغيره :

– خرجت من صلاة الفجر فتلقفت واحداً من الجيران ارسلته إلى اخيك عبد الفتاح فأيقظه من عز النوم ليأخذ الأستاذ مدحت بسرعه ويهربه إلى اقرب منفذ ! أخوك الله يحرسه ويحميه لشبابه طلع إلى الأستاذ مدحت فألبسه ملابس أمك وغطى رأسه ووجهه بطرحتها السوداء ؛ وألقى به فوق الركوبة ومضى خلفه كأنه ذاهب بأمه إلى مستشفى البندر ! مشى به من الطريق المحاذى للكنيسة ! أوصله إلى محطة نشرت ! تركه

على المحطة وعاد بثياب أمك يجرى من طريق آخر !! أنا قلت لسعد بك إن الشخص الذى تطلبه ليس موجوداوليتفضل للتفتيش بنفسه إن أراد التأكد !!وقلت له إن من معك الآن هم زملاؤك فى كليةالهندسة ! لكنه نظر لى – لأول مرة فى حياتى.نظرة احتقار ألمتنى ! قرصنى قرصة أوجعت قلبى ! الأدهى أنه هزأنى تهزيئا مرًا كالعلقم فلم أجرؤ لا أنا ولا عمك على الرد لأنه كشفنى وصدق من سماه رئيسا للمباحث ! قال إن الذين معك الآن معروفون له بالإسم واحدا واحدا ! وقال أسماءهم بالكامل ! وقال إن رجاله سمعوا مايدور فى المندرة من حديث كله سياسة فى سياسة ! وكأنه ضربنى بالحذاء حين فاجأنى بأن رجاله تتبعوا أخاك دون أن يشعر وتركوه حتى نزع ثياب أمك عن الأستاذ مدحت فى مرحاض المحطة فأمسكوا به ! ليته قال هذا إذن لاستطعت أن أفلفص بأى كلام ! إنما المصيبة أن جهازاً كالراديو الترانزستور فى يده نطق قائلا بالفم المليان : تمام يافندم قبضنا على الهارب ! أما الأولاد الذين عندك الآن فلا أهمية لهم لأنه يستطيع الإمساك بهم فى أى وقت يشاء ! فماذا أنت فاعل الآن ياولدى ؟! إنه مصرٌ على القبض عليك إن لم تذهب إليه بنفسك ومعك صحابك ليأخذ أقوالكم !! رايى ياولدى أن تذهب إليه وتطيب خاطره لعله يتركك ويتركنا فى حالنا !

عمك لم يعد قادرا على المناهدة مع ضباط الحكومة ! لم نعدكما كنا زمان ياولدى ! لا تعاند من إذا قال فعل !! هم الآن أسياد البلد ومانحن إلا عبيد نقول حاضر ياافندم !!

« غلى الدم فى عروقى ؛ غصبا عنى وجدتنى أقول : – من أجل هذه الكلمة بالذات لن أذهب إليه ! دعه يجى ليقبض علينا وأنا أعرف كيف أوقفه عند حده ! إنه لم يضبطنا متلبسين بشئ ! وأنا أستطيع أن أعتصم وأضرب عن الطعام حتى الموت وأقلب عليه المائدة والدنيا كلها !

« لحظتها وقع أبى فتحشرجت أنفاسه ؛ وكانت هى الذبحة الصدرية التى أودت بحياته بعدها بأعوام قليله. ليلتذاك برمش بعينيه ناظراً إلى وهو ممدد فوق السرير، وبأصبع واهن أشار لى أن أذهب لأنفذ ماطلبه منى. الملتمون حوله كلهم وجهوا لى نظرات اللوم الحادة، فتوهمت أننى إن طاوعته وذهبت فربما يشفى، فذهبت بالفعل. إقتربت من الدار. سمعت المشادة بين عمى وسعد الشربينى على أشدها. كان الشربينى يصيح فى حدة :

–لا ياشيخ فريج ! أنا أراعى الخواطر من ذوقى ! أنت يظهر أنك لا تعرفنى ! ماعندى خيار وفقوس ! أنت إذا لم تساعدنى تكون مقصرا فى عملك ومن حقى أن أحاسبك !!

« وعمى بكل هدوء وطول بال يقول: – يعنى إيه بقى ياسعد بك ؟ تريد أن أسلمك ضيوف ابن أخى ؟ أنت قلت إنهم لا أهمية لهم وتستطيع الإمساك بهم فى أى وقت ! أليس بيننا عشرة وعيش وملح ؟ أنسيت أن أبى هو الذى توسط لك فى دخول كلية الشرطة لما كان نائبا فى البرلمان وبلدكم تتبع دائرته ؟! نسيت أننى خدمتك خدمات عدد شعر رأسى ياسعد بك ؟! أصبحت تشخط فى ياسعد بك وأنا فى مقام أبيك ؟ ماذا كنت تفعل فينا لو كان ابننا قاتلا ؟!

– المجاملات بيننا شئ وأداء الواجب شئ ثانى ياعمدة ! كله إلا قضايا أمن الدوله !!

– ياسعد بك أنت تعرف إبننا أكثر منا تعرف أنه ليس له أى نشاط مخل بالأمن ! وعلى كل حال ياسعد بك أنا سأبعثه لحضرتك فى مكتبك ! أنت طبعا تثق فى كلمتى ! حضرتك تتفضل مشكورا وسيكون هو فى أعقابك ! « فاقتحمت عليهما الغرفه : – ها أنذا ياعمى ! تحت أمرك ياسعد بك !

«نهض واقفا :

– إسمع يابنى ! أنا عندى أولاد ! ويصعب على أن أضيع مستقبلك ! ولكن ! إذا أنت أرغمتنى على ذلك فلن أرحمك ! سأعفيك هذه المرة لأنك جئت بنفسك ! وستكون هذه آخر مرة!

وأنت الجانى على نفسك !! تحركاتك محسوبة ومعروفة لنا ! عن إذنك ياعمدة ! وأنت ياعدلى أنا منتظرك فى مكتبى بعد غد فى الواحدة ظهرا !!

« ومضى ، فركب سيارة ملاكى كانت فى انتظاره ، فما أن تحركت حتى ظهرت من الظلام سيارة بوكس فورد تبعت سيارته. أما أنا فقد تسللت خارجا قبل أن يمسك بى عمى ليهرى بدنى بالكلام القارض، ولكى أطمئن على حالة أبى. ورغم أنى وجدته جالسا ينتظرنى شاحب الوجه متلاحق الأنفاس بقوة عجيبة فإننى أيقنت بأن نجاته هذه مؤقتة، وأنه يقاوم بإرادة الحياة فحسب، فصممت بينى وبين نفسى على نقله إلى المستشفى؛وحدثت فى ذلك أخى عبد الفتاح فقال إن أباه رفض الذهاب إلى المستشفى ، وأنه لم يتحامل على نفسه ويجلس متمالكا أنفاسه إلا حين سمع سيرة المستشفى، فهو من جيل يكره المستشفيات كره العمى ويفضل الموت على دخولها !! فاتفقت مع أخى عبد الفتاح أن نستدعى له طبيبا كبيرا من البندر لينظر فى حالته؛ فقال لى أخى عبد الفتاح : إذهب أنت إلى صحابك ودعنى أتصرف. ذهبت إلى صحابى وأنا فى غاية من الضيق والربكة أتمنى لو أضربهم بالرصاص. وجدتهم يتعاركون بصوت عال جداً؛ يتبادلون الشتائم المقذعة والإتهامات المرعبة

فصرخت فيهم ان يتأدبوا. وكان من السهل أن أعرف أن أحدهم أسقط- عفوا- بعض القشدة على سروال الآخر ؛ فأسرع هذا الآخر إلى طبق القشدة ودلقة فوق وجه صاحبه فأغرقه ولوث نظارته الطبية وقميصه؛ فما كان منه إلا أن امسك طبق المش والبسه فى وجهه؛ فتراجع هذا إلى الوراء وشيع له لكمة فى انفه أسالت دمه وكسرت النظارة الطبية؛ فقام المضروب وبرك فوقه وصار يعجنه ضربا وعضا؛ لولا ان اخى عبد الفتاح فصل بينهما بعنف وشخط فيهما فارتدعا ، وأستبدلا الضرب بالشتائم. لم اتمالك أعصابى؛ لكننى قلت كلمة واحدة : هيا ؛ وأعطيتهم إشارة الخروج؛ فشرعوا يتهندمون وأنا واقف أتعجلهم . صحبتهم إلى موقف السيارات عند هذه الطابية؛ ففوجئت بأخى عبد الفتاح يتقاول مع إحدى السيارات لنقل ابى إلى مستشفى البندر؛ فعرفت أنه تمكن من إقناعه ؛ ولم اكن أعلم ان أبى قد راح فى غيبوبة حقيقية هذه المرة. صحيح انه عاش حتى تم تخرجى وتجنيدى فور سماعه بقيام حرب أكتوبر؛ ولحق به أخى عبد الفتاح بعد رؤيته لإصابتى؛ ومالبثت أمى حتى لحقت بهما من شدة الصدمة ؛ إلا أننى أعتبر نفسى مسئولا عن موتهم جميعا؛ وأشعر الليلة بالذنب اكثر من أى وقت مضى. آه من هذه الليلة الليلاء وماتفعله فى الآن. من حسن الحظ أننى رأيتكم لكى أتكلم

لأنسى مالنا فيه. ولولا أن عم الشيخ عبد المقصود قد أهاج ذكرياتى وأنا من الذين يقدرونه حق قدره ماحكيت هذه الذكريات المؤلمة..

« إننى لا أستطيع إيقاف تدفقها الآن، لأننى فى هذه اللحظةُ – لا أدرى لم – حريص على أن يعرفـا الجميع كل شئ عنى حتى يصححوا فكرتهم المغلوطة التى عبر عنها عم الشيخ عبد المقصود؛ فله الشكر لأنه صرح بما يُقال أما غيره فلا يصرحون. فلأكن الآن على كرسى الإعتراف. ولم لا وهذه الطابية اللعينة أفظع منه ؟ لن أخفى عنكم أى شئ..

« فى مرة كنت جالسا فى شقتى فى القاهرة قبل الإمتحان بأسابيع قليلة؛ ففوجئت بطرق محموم على الباب؛ فشعرت فى الحال بحاسة القروى أن ثمة من يستغيث بى؛ فتحركت فى قلبى مشاعر الرغبة فى الإغاثة حتى دون أن أتأكد إن كان المستغيث يستحقها أم لا. فتحت الباب ؛ فاندفع داخلا يهرول إلى غرفة النوم. كان أحد كبار الصغار ممن أكن لهم بعض الإحترام، لجدية ظاهرية تغلف سلوكه، ولاستغراقه الدائم فى ترجمة الكتب الأدبية والسياسية من الأدب الروسى، التى يعترف أنه يسرقها خلسة من مكتبة الشرق الروسية، ويتفق على نشر ترجماتها مع دار نشر ماركسية تتفق بدورها مع السفارة

الروسية على نشرها مقابل دعم مادى منها. كان نوبى الأصل دمث الأخلاق على شئ من النبل البدائى يشوبه إحساس ساذج بزعامة مبكرة؛ إذا قورنت بحجمة الدقيق بدت مثيرة للضحك. إلا أننى كنت دائما أكن له الكثير من التقدير؛ لامتلاكه ملكة نقدية نادرة الفطرية، نيرة ، كثيرا مااستخدمها فى كتابة بعض دراسات نقدية عن بعض شعراء جيلنا الماركسيين، نشر بعضها فى مجلة الآداب البيروتية وبعض مجلات العراق واليمن وسوريا. كنت واثقا من أنه عضو فى تنظيم سرى ما، يتدثر بعنوان خادع هو : جمعية كتّاب الفجر، وأنه يمارس فى هذا التنظيم نشاطاً مهما؛ غير أننى لم أعنى بمعرفة هذا النوع من النشاط على وجه التحديد؛ ذلك أنى أعرف الناس وأحبهم لأشخاصهم لا لأفكارهم أو انتماء اتهم الحزبية..

« مالك ياعبد الجليل ؟!.. هكذا سألته مرتعبا من منظره المضطرب المنهار. فقال وهو يقدم لى سيجارة :

– هل تمانع فى أن أختبى عندك بعض الوقت ؟

– لا بالطبع ! ولكن لماذا ؟!

– ثلاثة أرباع أصدقائى المهمين قبض عليهم ! لم يبق سوى واربعة أنت تعرفهم وربما كانوا من بين أصدقائك ! لن أمكث عندك سوى ليلة أو ليلتين بالكثير ! وسوف أتصرف ! أنا لست

مطلوبا ولكننى أخشى من اعترافات بعض الضعفاء !!

– تشرب شاى ؟

– ياريت !

• فيما نشرب الشاى قال :

– أخشى أن أطلب منك خدمة لو أديتها لى تكون هى خدمة العمر لن أنساها لك أبداً !!

– إبتعد عن الفلوس واطلب منى ماتشاء !

– بل سأعطيك فلوسا لو أحببت !!

– لا تطلب منى أيضا حمل أوراق إلى أية جهة ولاتترك عندى أية أوراق !

– لا ! لا إلا ! سأبعثك برسالة شفوية إلى مكان فى روكسى مصر الجديدة ! المواصلات طبعا على حسابى !

– هذا يتوقف على نوع الرسالة !

– الأمر فى غاية البساطة ! خذ هذا العنوان فى رأسك دون أن تكتبه على ورقة ! فى الشقة السادسة فى العمارة مائة وخمسة وأربعين فى شارع اسكندرية ! تضغط على جرس الباب ! ستخرج لك امرأة طليانية عجوز بعض الشيء ! تقول لها : مساء الخير يامدام أنا عادل !!

• وسكت كأنه أفضى بكل شيء. فسألته :

– وماذا بعد ؟!

– بس ! خلاص ! الرد الذى تقوله لك هاته وتعالى !

• أعجبتنى المغامرة ؛ خاصة أننى أحب هذا النوع من المغامرات التى يلتقى فيها المغامر بسيدات أجنبيات. ولأننى كنت مشوقا لمعرفة مايكشف حياة هؤلاء الولدان من أسرار حميمة؛ فإننى جعلت أضرب فى شوارع روكسى حتى وصلت إلى العمارة فصعدت إلى الطابق الثالث ضغطت على زر جرس الشقة السادسة بأصبع واجفة ، ضغطتين متتاليتين وبعد برهة أضغط الثالثة بشئ من الإستطالة كما أوصانى عبد الجليل. إنفتح الباب عن سيدة إيطالية فى حوالى الخمسين من عمرها لكنها صبية الوجه والقوام، مرحة الملامح، على وجهها دهاء خرافى اسطورى يتخفى تحت غلالة من البساطة؛ فى عينيها ذكاء شيطانى مرح، فيه الكثير من الإستهانة كما خيل لى. قالت كأنها تعرفنى منذ وقت بعيد :

– نعم ؟!

– مساء الخير يامدام ! أنا عادل !

• تهلل وجهها :

– أهلا ياعادل ! تفضل ادخل !

• سحبتنى من يدى إلى غرفة الصالون بعد ممر حلزونى

طويل. اشارت لى على كرسى فجلست . ظلت هى واقفة ؛ قالت:

– كم أنتم ؟!

« إرتبكت قليلا، وانبهم على الأمر لبرهة خاطفة لكن الله ألهمنى فتذكرت أن عبد الجليل ذكر رقم أربعة ؛ فقلت بسرعة :

– خمسة !

– وأنت يكون العدد سته !!

« تركتنى فغابت فى الداخل وقتا قصيرا ؛ ثم عادت حاملة كوبا من البيبسى كولا على صينية صغيرة. وضعتها أمامى. جلست . تمعنت فى وجهى وملامحى ، ثم جعلت تردد لنفسها بصوت عال :

– قلت لى إنهم خمسة وأنت السادس ! لا بأس !!

« واستدارت ناهضة . غابت فى غرفة النوم قليلا ثم خرجت ؛ ظهرت تحمل رزمة كبيرة من النقود. جلست أمامى ؛ أخذت تعدها بدربة هائلة وبسرعة ؛ عددت معها ورق العشرات الحمراء فإذا هى ستين ورقة. لفتها فى ورقة جرنان وقد تهلل وجهها :

– قل لهم لا داعى لتدخين السجائر فإنها مضرة بالصحة من ناحية ! والأمور متأزمة من ناحية أخرى ! شدواحيلكم ! الله معكم !!

« ونهضت بحركة من ينهى المقابلة. فنهضت واقفا. سلمت عليها بحرارة وقد انتابنى شعور الممثل الذى يجتهد بإضافة لمسة إلى تعليمات المخرج،وقلت :

– متشكرين يامدام !

« قالت وهى ترافقنى إلى الباب :

– بلغهم ماقلت لك !

– بكل تاكيد

« وسحبت الباب ورائى فأغلقته برفق؛ واندفعت مهرولاً إلى الشارع أتلفت حوالى كاللص ، وقد احلوت الدنيا فى ناظرى. جاءنى إحساس عارم بحب الحياة؛ بأنى أستطيع الآن أن افعل ماأشاء ، أكل ماطاب لى ، أشرب، أقنجر أفنطر كأى بك محترم؛ لكننى كنت مستغرقاً فى هذا التفكير فيما أنا متجه إلى شقتى، فما دريت إلا وأنا أسلم النقود بلفتها لعبد الجليل مهيميد ؛ الذى دسها فى جيبه وقد انفرد وجهه وأضاء. قال : يلابينا. قلت : على فين ؟. قال : يلا وخلاص. فمضيت خلفه نضرب فى شوارع وسط المدينة وحواريها الجانبية فى عز الليل. دخل بنا بيتا، ركبنا المصعد، نزلنا فوق سطوح عريضة فإذا هى بار ساهر حافل. إخترنا ترابيزة بعيدة مجاورة للسور على انفراد. جاءنا النادل : أهلا بعبد الجليل بك؛ فعرفت أن صديقى زبون دائم

هامنا. قال عبد الجليل : قزازة لو سمحت ! ولو سمحت برضه عايزين نتعشى ! عشوه دسمه ! ياريت حمام مشوى ! بس هات القزازه الأول. فور انصراف النادل وجدتنى انبه عبد الجليل مهيميد قائلا :

– على فكره ! الست عملت حسابى فى للبلغ الذى معك ! قالت لى : كم انتم ؟ قلت : خمسه ! قالت : وانت يكون العدد سته !!

« تبسم قائلا :

– لا بأس ! إن أردت نصيبك خذه !

– إنى أنبهك فحسب !!

– لا تتعجل رزقك !!

« تعشينا وسكرنا حتى مابعد الثمالة بثمالة ومافوق النشوة بنشوات. ولم اكن أعرف أن صاحبى فيه كل هذه القدرة على احتمال الخمر. طلع علينا الصبح فيما نتمشى بجوار سينما مترو حيث تدور الأرض بنا؛ فإذا بعبد الجليل يوقف تاكسيا؛ ثم يدفعنى إلى داخله ويجلس هو بجوار السائق. قام بتوصيلى إلى شقتى ؛ ويبقى فى مكانه قائلا إنه الآن يستطيع أن يشوف حاله كما ينبغى وأن على الا اقلق عليه فإنه سيحاول توصيل المساعدات لأصحابها. تمنيت له السلامة ونزلت. بعدها بأيام

وجدتنى أنوت على أتيليه القاهرة لأحضر ندوة يشارك فيها الناقد إبراهيم فتحى، الوحيد الذى استفيد من كلامه وقراءاته كثيرا. فى الحديقة علمت أن إبراهيم فتحى مقبوض عليه للمرة المليون ربما؛ وسمعت من الأخبار والإشاعات ماجلعنى اكره الدنيا ومافيها : ناس تتعذب فى المعتقل بوحشية ؛ ناس أخرون تكفّلوا بجمع تبرعات من جميع أنحاء الوطن العربى لمساعدة المسجونين وأسرهم ؛ ثم صرفوها على أنفسهم ؛ ناس اتضح أنهم هم الذين أبلغوا السلطات عن رفاقهم. نصف ساعة فى الأتيليه كفيل بأن يجعل الدنيا فى نظرك سوداء لا رجاء فيها؛ يقنعك بأن مصر كلها من المخبرن والعملاء والسفلة واللصوص والمرتزقة والقوادين. تلك هى الصورة التى تستقر فى ذهنك وأنت جالس تتلقى الأخبار والإشاعات والتعليقات؛ كأن الجميع أعداء للجميع. ولقد وقر فى ذهنى أن هؤلاء جميعا لا وقت عندهم لمناهضة السلطات الغاشمة أو بث التنوير فى قطاعات الشعب المسكين الجاهل؛ لأن جميع وقتهم ضائع فى حربهم مع بعضهم البعض ، ولهذا أصبحوا جميعاً لقمة سائغة فى يد الجلاد؛ فبعضهم – من أسف – يلجأ إليه لينتقم له من صديق لدود يقف فى طريق تقدمه أو ينافسه ؛ فتكون النتيجة أن الجلاد يسوطهما معا فى هزء وسخرية ؛ لأنهم جميعا فى نظره حقراء

غير جديرين بالإحترام..

« صدقونى ؛ لقد كرهت السياسة والعمل السياسى كرها شديدا بسبب هذ الجماعات السرية الموهومة المغرر بها ؛ إنهم صبية ، أدوات فى أيد أخرى خفية لكنها قوية جبارة تحترف السياسة والمتاجرة بمصائر الدول الصغيرة. هذا ماحدسته وأيدته كل الظواهر والسلوكات التى احتككت بها واحتكت بى ..

« ماإن تخرجت فى كلية الهندسة حتى تلقفنى الجيش فى الحال. وفى الحال أصبحت مقاتلا ؛ فشعرت بلذة عظيمة لم أشعر بها فى حياتى من قبل ، إذ هاأنذا قد صرت بالفعل مناضلا حقيقيا يفعل فعلا محدداً ونبيلا؛ يحارب فى صفوف الجيش درءاً لهزيمة كانت عابرة لكنها قامت بإخصائنا ولابد من استرداد رجولتنا المفقودة بأى ثمن . كان الفوران فى دمى ودم كافة الجنود ؛ كنت أتطوع بعمليات ليست من تخصصى وهذا ماعجل بإصابتى . فى فورة الحماسة داست قدمى على أحد الألغام فانفجرت القيامة كلها في برهة خاطفه؛ بعدها لم أشعر بشئ . وحينما صحوت على سرير فى المستشفى العسكرى اكتشفت أننى نجوت من موت محقق فرفعت وجهى للسماء شاكراً ؛ وحينما علمت أننى قد أصبحت بلا ساقين نزل الخبر على قلبى رطيبا ؛ لم يصدمنى؛ بل حمدت الله إذ وهبنى شارة

البطولة التى لا تصدأ ولا تنمحى ..

« لم أشعر بأننى قد خسرت حياتى، وأننى قد غرر بى إلا فى هذه السنين الأخيرة منذ أن باعنا أنور السادات لأمريكا؛ لكى تجعل منا جوالا قديما تفرشه تحت مؤخرة إسرائيل؛ ثم سلما للصوص والوكلاء والسماسرة. لقد حاربت وبترت ساقى لكى بغتتنى توفيق عبد الحى من إطعامى بالفراخ الفاسدة وبولوبيف الكلاب، ويغتنى الحاج على داوود ، وصبيحة ، والريان ، وكل تجار الرقيق الأبيض . مصر كلها كانت خرجا مليئا بالذهب محمولا فوق ظهر السادات الذى توجه به إلى الموعود الأمريكى الإسرائيلى ومن فوقه رءوس قتلانا الأبطال. وأنتم الآن تنتظرون عودتها. إن البغلة هى أنتم ورأس القتيل هو أنتم؛وأنتم كذلك خرج الذهب. أنتم تسلمون أنفسكم عن طواعية لمن يمتص دمكم، ولا يعنيكم أمر من يحكمكم ؛ غاية ماعندكم كلمة متداولة : ربنا يولى من يصلح. وللعلم فإن ربنا لن يولى من يصلح لسبب بسيط هو أن هذه المهمة ليست مهمته سبحانه وتعالى بل مهمتكم؛ فأنتم أعلم بشئون دنياكم؛ ولا يغير الله مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم. إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة، وبغلة العرش لن تجئ، إنما عليكم أن تفتشوا عن رءوس قتلاكم وراء كل عربه مرسيدس تنهب الطريق، ووراء كل حياة مرفهة براقة،

وكل هذه العمائر والأبراج والناطحات التى ترتفع فى أيام قليلة لتكتم أنفاسكم تحجب عنكم ضوء الشمس ومياه النيل، ليسكنها لصوص فجار كانوا فى الأصل عربجية وبلطجية وقطاع طرق؛ ووراء كل هذه المتاجر السوبر ماركت العامرة بكل صنوف العمر الإستهلاكى. غير أنكم مع الأسف الشديد لن تفعلوا، لأنكم بكل صراحة توافقون فى أعماقكم على ماأنتم فيه...

« ارايتم كيف انكم انسيتمونى ماكنت أود أن أقوله، واستدرجتمونى لأقول ماكنت أظنه قدانمحى من ذاكرتى. اشعر مع ذلك أنى قد استرحت نفسيا بعد أن رميت الحمل عن ظهرى. وكنت أود أن أحكى لكم عما حدث لى اليوم من أحداث يشيب لها الأطفال ؛ لكننى تعبت ؛ الواقع أنى تعب منذ ساعات طويلة؛ أشعر..

أشعر بضيق فى صدرى كأن جبلا يحط فوقه ، قلبى أيضا منقبض، ليس بمعنى التشاؤم بل بالمعنى المباشر للكلمة، كأن قبضة من حديد تفعصه، أحس أن شرايينه كلها ستتقطع بل إنها تتقطع بالفعل شيئا فشيئا. على كل حال ، فليقل لكم صديقى جعفر العطار أى مصيبة كنا فيها الآن !!!..

١٠ - مَهْزَله

« لهفى على هذا الجدع ...

« قد كان والله غصنا واعداً بأطايب الثمر ..

« قد كان أطيب من عرفت، أذكى من عاشرت من أبناء بلدتنا، تواقا إلى العلم والمعرفة، مقدسا لواجبات الدرس فى الكلية لا يتخلف يوما واحدا بل محاضرة واحدة ..

« كان يفزع من رؤية سكين المطبخ إذا تركناها على المنضدة بعد تخريط السلاطة ..

« لكن ! قاتل الله أفة الرغبة فى الثراء التى سرت عدواها فى عروق أولادنا فدمرت فيها كل شئ حى، دمرت مصريتها، عروبتها، دمرت نفسياتهم أحالتها إلى خراب يباب لا أمان له !..

« إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة.. صدق الله العظيم !..

« قد دخل ملوك النفط قريتنا، تلك التى تمتد من المحيط إلى الخليج ..

« أبداً لا أقصد أصحاب التيجان الذين يتوارثون الملك كأنهم أبناء الله هم وحدهم المالكون والباقون محض أرقاء ؛ إنما قصدت معهم أولئك الذين صب النفط فى خزائنهم أطنان الذهب وفى صدورهم مفاتيح القهر والعهر وفى قلوبهم سحب من الظلام ..

«الثراء - لو تعلمون - أصبح سهلا وميسورا إذا ماتمكن الإنسان من تجفيف تلك العضلة الكامنة فى القلب واسمها الضمير وهذا فى الواقع ماقد حدث لولدنا لكنه كان مع الأسف غشيما أحمقا، فوقع فى شر أعماله !!..

« هو بالطبع لا يتمكن من فعل ذلك بنفسه ؛ بل يتولاه زبانية ينتشرون حولنا يزينون للبنى آدم أن يصبح كذا وكيت مثل فلان وعلان ..

« وهكذا ضاع الجدع ؛ وضيعنا معه ..

« باهر ابن أخ الباشمهندس عدلى هو من عنيت . عمه كان ولى أمره كما تعلمون منذ مات أبوه ..

« الباشمهندس عدلى لم يقدر له الزواج، فاتخذه ابنا وأخا وصديقا، لا يبخل عليه بأى شئ ، يعطيه الجزء الأكبر من معاشه من القوات المسلحة ، والباقى يصرفه على إخوة له تركهم أبوهم صغارا ..

« كل شئ كان على يدى؛ فلقد سكن باهر معى فى شقتى فى

أول الأمر بالمجان. فى كل شهر يتلقى من عمه مصروفا ليده، إضافة إلى أثمان الكتب والمذكرات ..

« عمه مسئول عن تعليمه لكنه غير مسئول عن تدخينه. ليت المصيبة وقفت عند حد التدخين إذن لهان أمرها !!..

« الولد كان حلوا ذكيا ذا شخصية جذابة فالتف حوله لفيف من أبناء أثرياء الإنفتاح ممن يذهبون إلى الكلية بسيارات فارهات ويخرجون بين المحاضرة والمحاضرة لشم الهيروين فى السيارة وهو معهم !..

« يوما بعد يوم بدأ يفقد توازنه . بدأت اكتشف ضياع كتب ثمينة من مكتبتى لا يمكن تعويضها. داخلنى الشك بادئ ذى بدء فى بعض أصدقائى من هواة الأدب الذين يزوروننى كثيرا. بعد الكتب تكرر اختفاء النقود من محفظتى. راقبته أمسكت به متلبسا فطردته فاختفى من محيطى كله صرت لا أعرف عنه شيئا..

« على مضض وبعد تردد أبلغت عمه بكل شئ فأصابه الذهول لمع فى عينيه بريق أوحى لى أنه كان يتوقع منه شيئا كهذا !!..

« إستوضحته . نبهنى إلى أن الولد كان متطلعا طموحا بشكل خارق يتصور نفسه فى الغد القريب صاحب طيارة خاصة كالممثل أحمد سالم الذى قيل له إنه يشبهه !..

« هذا النوع من الطموحين أمرهم مقلق لميلهم إلى المغامرة غير المحسوبة !..

«الولد فعلا كان يتحدث دائما باعتباره من كبار الأثرياء حتى وهو يختلس السيجارة من علبتى ! كل كاعب حسناء يلتقيها فى أى مكان لن تكون أجمل من زوجه القادمة أما رحلات شهر العسل فجولات على الشواطئ العالمية سباحات بالكواتر فى شوارع البندقية !!..

« قدر حبى له المستمد من حبى لعمه شغلنى أمضيت الساعات الطوال أحدثه محاولا تصحيح أفكاره أساليبه فى التعامل مع الناس مع الحياة بوجه عام أحاول ضبط إيقاع احلامه السائبة المنطلقة كالطيارة الورقية التى أنقطع خيطها فحلقت فى الفضاء صارت على مزاج الريح !..

« غاية ماأستطعت فهمه أن الولد قد تلقى فى طفولته أعنف صدمة زعزعت فيه كل الثقات أعنى صدمـــة عـمه المهـندس عدلى !!..

« باهر كان طفلا صغيرا حينما كان عمه عدلى شابا سمهرى القوام رشيقا يثير منظره البهجة فى القلوب ! فلما عاد عمه من الميدان ينصف جسد قعيداً فى صندوق دراجة تدار بترس يمسك به بين يديه فى صبر أليم إنفطر الولد حزنا على عمه الذى كان مفخرة العائلة فبات موضع رثائها !!..

« خف الحزن قليلا على طالب الشهادة الإعدادية فى ظل مظاهرة الإهتمام بعمه التى جعلت منه وساما يعلق على صدر بلدتنا حيث الصحف والإذاعات تغدق عليه عبارات الثناء..

« التعويض الذى قبضه المهندس كان منذوراً لزواجه لكن البطل لم يعثر على عروس فى مستوى المسئولية فجُلّ عرائس ذاك الزمان كن فى انتظار الفرسان العائدين من بلاد النفط بالسيارات والأموال الطائلة ! شيئا فشيئا فترت رغبة البطل فى الزواج دخل العمر فى المنطقة الحرجة ماتت الرغبة تماما إن بفعل القهر أو بالإقتناع الإرادى !..

« سرعان ماأضمحلت مظاهر البطولة لم يبق منها سوى الجسد العاجز والسراب بل سرعان ماتحولت حرب اكتوبر نفسها إلى تمثيليات ساذجة تبثها الإذاعات مرة فى كل عام ! أبت إلى ذكرى باهتة غير مستحبة وإن بالغت أجهزة البث فى زفها بسخافات من الأغنيات السمجة والخطب الجوفاء والبزات العسكرية الحافلة بالرتب والنياشين !!..

« عبد الفتاح العزيز على قلب عدلى حين أصابه الفشل الكلوى فرقد فى مستشفى البندر ينزف حتى مات أهمله الأطباء لأنه دخل القسم المجانى وإذ قال لهم قبل الغيبوبة النهائية إنه الشقيق الأكبر لأحد أبطال حرب اكتوبر سخروا منه وبعضهم أضاف إلى حرف السين ثلاث نقط ثقيلة جهيرة الصوت !!

والبطل يدور فى أروقة المستشفى بدراجته بحثا عمن يغيث أخاه فلا يجد إلا الصد والإهمال والزجر ! وياهر طالب الثانوية العامة يرى كل ذلك يحاول أن يثأر لكرامة عمه الجريحة فلا يقدر ! أن ينقذ أنفاس أبيه فلا يفلح فعاد بجثمان أبيه وجثة عمه المتكورة على دراجته محمولين فى صندوق عربه سيزوكى نص نقل !!..

« ليت شعرى كيف يستردّ الولد ثقته فى الوطن ؟!..

« كيف يصدق أى كلام عن القيم يسمعه أو يقرأه ؟!..

« هاهو ذا يرى البلاد تفتح أحضانها لكل لص ونشال ونصاب وأفاك !!..

« هاهى ذى البلاد قد نكلت بعمه وبأمثاله أشد التنكيل حينما صفقتهم بصلحها مع العدو !!..

« أسوا جيل هو ذلك الجيل الذى انشرخ بين زمانين متناقضين أشد التناقض لا تفصل بينهما سوى برهة قصيرة كتلك التى يهوى فيها نجـم أو يحتـرق كوكب أو تتزلزل الأرض !!..

« فى الصبح كان هذا الجيل يتأهب لملاقاة فاصلة مع العدو الأثيم ذلك اللقاء الذى ظل يكرس له طول حياته يستعد لاسترداد دم أبائه الذين استلبتهم رصاصاته ! فى المساء فوجئوا بالعدو يمشى فى شوارع بلدتهم أمنا تحت حراسة الجند يجلس فى الحانات يستبيح ماكان محرما على أبنائها !!..

« كيف بالله عليكم ننتظر من مثل هذا الجيل التعيس أى استقامة أو رجاء ؟! بله أن نلومه أو نسخط عليه ؟!..

« إنشرخت روح الولد إنكسر قلبه لم يبق فيه سوى جسد تيقظ يطلب الإرواء والشبع بأثر رجعى !!..

« إتضح له بكل جلاء أن أى كلام عن الوطن عن القيم عن الأخلاق عن الضمير الشرف الإحترام الاستقامة إن هو إلا محض خطب جوفاء يبيعها الناس للناس فى سوق النخاسة !! فكل من صدق هذا الكلام بات جسدا متكورا فى صندوق دراجة عبدا حقيرا فى ديوان الموظفين يحلم بمنحة قدرها نصف شهر بحد أقصى ستين جنيها لا تكفى ثمن حذاء لطفل !..

« مشكور هو إذ بقى متماسكا حتى تمكن من الإلتحاق بكلية التجارة بالقاهرة ليدرس لغة عصره لغة الأرقام والحسابات والدفاتر استعداداً للتعامل معها بشكل حى فى قابل الأيام !!..

« من حسن حظه أو من سوئه لست أدرى وجد نفسه بين أبناء الأرقام الفلكية فى البنوك الأجنبية من تجار الأدوات الصحية والمخدرات والمأكولات والملبوسات المستوردة من بلاد لا تضمر لنا سوى الشر والعدوان !!..

« وقع المفتون فى سحر الأرقام إذ تترجم على أجساد زملائه ملبوسات فاخرة ورفاهية لا حدود لها !!..

« صار مثلهم ولكن على حسابهم يظن أنه يستغفلهم وواقع

الحال أنهم يستخدمونه يمشورونه بصنعة لطافة يشترى الأصناف الأشياء يحملها إليهم !! لا بأس من السمسرة الخنصرة فهم قد تعودوا ألا يسألوا عن بقية الحساب لأنهم قد وضعوا ذلك من الأصل فى اعتبارهم كأجر له على مشاويره فى صورة مقنعة مدعومة باشتراكه فى متعهم !!..

• حدثته فى هذا المعنى ذات مرة بشكل عفوى بقصد خفىلكى أوقظ فيه نخوة الكرامة الشخصية التى بدأت ألاحظ أنه لم يعد يعنيه أمرها ! ففاجأنى بأنه يعرف كل أبعاد الموقف يدركه تماما فحينئذ سألته بشكل مباشر :

– يعنى أنت تعرف أنك مجرد خادم لهم ولست صديقا ؟!

• فبكل برود وهدوء أعصاب :

– وماذا فى هذا ؟! أنا أخدم مزاجى ورفاهيتى واستمتاعى !

– لكنك ابن أصول محترمة كريمة !

– لا أصول فى بلادنا إلا لحامل الدولار ! حامل الدولار الآن هو السيد الحقيقى والمسئول الحقيقى والحاكم الحقيقى !! لا تقل لى غير هذا لأن هذا هو الواقع من قديم الأزل فى مصر بالذات ! وغير هذا هو الخيال السقيم الذى يملأ رءوسكم أيها الشعراء . أنتم تخترعون هذه المعانى الخيالية لتخدروا بها أعصاب الناس حتى يسكتوا !! حتى الدين نفسه يفعل بنا هذا الشئ نفسه ! يخدرنا يأمرنا بالقناعة والمسالمة لكى نسكت نترك

أصحاب الأموال يستمتعون وأصحاب السلطان يتسلطون وأصحاب الحكم يتحكمون على كيف كيفهم !! ألم تسمع القول المأثور المكتوب فى هذه الكتب التى تجمعها على رفوفك والتى ظلت هى الأخرى تخدعنا آلاف السنين ؟ لابد أنك سمعت أو قرأت القول المأثور : من كان لديه الذهب ! الناس إليه ذهبوا ! ومن ذهب عنه الذهبُ ! الناس عنه ذهبوا !! ومن ذهب عنه الفَضُ ! الناس عنه انفضوا !! هذه حقيقة أزلية منصوص عليها فى الكتب القديمة !! فالرجل الجدع هو الذى يقدر على جمع الفلوس بقدر ما يستطيع !! لأنه بالفلوس وحدها يحمى شرفه وكرامته وإنسانيته !! ثم إن الناس فى بلادنا – وهذا هو المهم – لا تسأل أحدا : من أين لك هذا ؟ إنهم لا يسألون إلا الفقراء ولا يزعّون إلا المعدمين !!..

• بالله كيف أستطيع التفاهم مع شاب هذا وضعه وهذه أفكاره ؟! جمعت شجاعتى وطردته طرداً صريحاً !!..

• بعد طرده تكشفت لى مساخر كان يفعلها من ورائى ! فجميع أصدقائى من الشعراء والأدباء الذين يعتبرون بيتى بيتهم لم ينج منهم واحد من براثنه ! لم يترك واحدا إلا واقترض منه عشرة وعشرين وخمسين جنيها بل كان يعد بعضهم بابتياع أشياء لهم فيأخذ ثمنها مقدما ولا يفى بشئ ! فلما اختفى بدأت الشكوى منه تنهال على أم رأسى فصرخت فيهم غاضبا :

- لماذا سكتم وهو هنا ؟!

• طوحوا رءوسهم فى فروغ بال بل اكد بعضهم انه اقرضه دون انتظار للرد ! بل اكد البعض الآخر أن الولد مع ذلك خفيف الظل بل المثير لدهشتى أن نفرا منهم أبدوا استعدادهم للتطوع بالبحث عنه للإطمئنان على حاله فربما احتاج للمساعدة لولا أننى صرخت فيهم ألا يفعلوا !!..

• لما علم الولد انى أخبرت عمه بحقيقة حاله انقطع حتى عن عمه !!..

• ذات مساء فوجئت بعمه يطرق بابى فى القاهرة على غير انتظار ففرحت به قدر ماأشفقت عليه ! آلمنى تلك الليلة إيلاما شديداً لأنه بإرادة بطل محارب رفض أن يتكفل أصدقائى بحمله وحمل دراجته إلى الطابق الخامس على سلم حلزونى ضيق واسع فلبس القفاز الجلدى فى يديه صار يزحف بهما على الدرج يستند على واحدة ليرفع نصفه الأعلى يقذف به إلى الدرجة التالية وخياطة البنطال فى موضع الساقين المبتورين تكاد تتفصّص فيما هى تكنس درج السلم فى زحفها !!..

• بكينا جميعا خلف ظهره فيما هو محتقن الوجه من فرط انفعاله بالمجهود الذى يبذله والضحكات المرحة التى يرسلها مع تعليقات أكثر مرحا تنبهنا إلى المهارات البهلوانية التى اكتسبها بفعل عجزه !!..

• كان علىّ فى الصبح أن اصطحبه إلى كلية التجارة بجامعة القاهرة لنسأل على مقصوف الرقبة لكنى اصررت بكل قوة على ان يبقى هو وأذهب انا وحدى للإتيان به !..

• فى الكلية قالوا إنه منذ أن تزوج أصبح يجئ يوما ويتخلف يومين !!..

• تزوج ؟!..

• قالوا نعم !!..

• ولد من زمرته تعرف على شخصى لأنه سبق أن رآنى فى أكثر من ندوة أقيمت لى فى جامعة القاهرة قال الست الشاعر جعفر العطار ؟ قلت : نعم ! قال : اعرف عنوان قريبك فإن أحببت فإنى أقودك إليه ! قلت : أهو بعيد من هنا ؟ قال : سأوصلك بسيارتى ...

• إقتادنى إلى سيارة بيجو (٥٠٥) راكنة بجوار السور فبكل حفاوة فتح لى بابها فركبت بجواره !..

• كان لطيفا اليفا صحبا للثرثرة شاحب الوجه من أثر الشم وحقن الماكس فورت والبرشام المخدر مشتت الذهن شارد العينين بصورة خوفتنى من قيادته للسيارة إلا أنه مع ذلك يقودها بكفاءة عالية وإن بدأ أن مخه مخرب فارغ من المحتوى مثل وجهه يكاد يكون جلداً على عظم وعلبة السجائر المارلبورو مفتوحة على فمة باستمرار !!..

« تسلم دفة الحديث والتدخين الشرهين ينتقل من موضوع إلى موضوع فى سرعة العصفور التائه القلق لم يترك شيئا فى حياته وحياة زملائه وأساتذة كليته إلا وحدثنى فيه كأنه يحدث نفسه بصوت عال وبلذة فائقة حتى أدق أسرارهم جميعا كان يذكرها بتلقائية دونما تحفظ أو حرج !!..

« عرفت أنه ابن تاجر أدوات صحية فى مصر الجديدة واسمه ضياء سبق له أن عاش فى ألمانيا طوال صباه لأن اباه كان وقتها دبلوماسيا وفى نفس الوقت شريكا لعمه فى المحل فلما مات عمه وأحيل أبوه إلى التقاعد تسلم مسئولية المحل محتفظاً ببيتهم المملوك لهم فى ألمانيا يذهبون إليه كل صيف !!..

« عرفت أن الجاكت الجلدى الذى يرتديه بإهمال متعمد ثمنه عشرة آلاف جنيه إذ أنه من جلد الغزال وأزراره كلها من الياقوت النقى وأن عنده أكثر من موديل من هذا النوع بألوان مختلفة وأنه أعطى لباهر بذلة ثمينة يلبسها ليلة الزفاف لتصبح ملكه مع أنها جديدة بشوكها كل مافى الأمر أن طرازها لا يتفق مع ذوقه الهليهلى !!..

« حكى قصة زواج صاحبنا ..

« مبدأ الحكاية طرده من شقتى لكن الطرد لم يكن هو السبب إنما السبب قائم فى نفسه منذ الصغر ولو لم أطرده من شقتى لطرد نفسه بحثا عن الإستقلال والتصرف بحرية يتوق

إليها حيث يفعل مايشاء دونما رقيب أو حسيب !..

« سرعان ماعرف كل أصدقائه أنه يبحث عن مأوى وأن مصروفه الضئيل لا يكفى لاستئجار المأوى ! لهم صديق من الوراق بجوارحىّ امبابة كانوا يحششون عنده فى حجرة فوق السطوح جميلة وفى آخر الليل يتركون باهر يبيت فيها حتى الصباح !..

« مذكور ولد طيب وابن حلال يحب الخدمة إنشغل بمشكلة باهر أراد أن يحلها حلا جذريا فواتته الظروف بالحل على طبق من حجارة الحشيش وحدهما :

« لمذكور ابنة خالة هكذا قال ثم اتضح انها تمت إليه بصلة قرب بعيدة جدا ثم اتضح أنها مجرد أرملة يعرفها لكنه واثق منها !!..

«زوج الأرملة مات فى العراق لأنه بمراجة تطوع فى الجيش العراقى فى حربه مع إيران فمات وجئ بجثمانه فى صندوق أسود عبارة عن كومة من الأشلاء مصرورة فى ملاءة !! بعدها بشهرين ذهبت أرملته - واسمها كاملة - إلى بنك الرافدين فصرفت مبلغا لا بأس به قيل إنه فديه زوجها وقيل بل هى مرتبه الذى لم يكن يرسل منه شيئا ثم قالت هى إن زوجها سافر إلى العراق هربا منها لكن الله انتقم لها منه إذ إنه لم يكن ينوى الرجوع إليها !!..

« هى بالفعل دميمة كوجه القرد بالضبط ومن المشكوك فيه

أن يكون المرحوم زوجها قد نام معها قط إذ إنها لا يمكن أن تستهوى سوى حمار عقله فى عضوه ولو رضى قرد بالنوم معها فى فراش واحد فيجب أن يشكر القرد على تواضعه وحلاوة نفسه !!..

• شابه صغيرة هى تحلم بالستر فى ظل رجل كما أنها على شئ كثير من الحصافة أحسنت التعامل مع المبلغ الذى قبضته من بنك الرافدين فاشترت شقة ضيقة مكونة من حجرتين وردهة فى منزل عتيق قمئ فى حارة سد متفرعة من حارة متفرعة بدروها من حارة تطل على شارع عمومى ! وبالمبلغ الباقى صارت تشترى بعض الخضروات وأقفاص الفاكهة تفرش بها على ناصية الحارة صارت تهتم بزينتها بشكل لافت للنظر تضع المساحيق تستحم باستمرار تلبس المشجر والملون والشفاف تضحك على الدوام كاشفة عن السن الذهبية فى جنب فمها !..

• ووجهها كالقرد لكنها موهوبة فى الكلام الطرى والضرب بالحاجب وتكحيل العينين الواسعتين والإيحاءات الجنسية فى مشيتها المتقصعة فجسدها مع ذلك حلو جدا ومرن كل شئ فيه بارز محدد مثير سيّما حين تعطيك ظهرها بمؤخرة كصرة الهدوم ترتفع وتنخفض مع خطواتها المتقنة وكعبيها الأحمرين مدعوكين بالطوبة فوق كعبى الشبشب كقرنين من الفلفل

الأحمر !..

• قال مدكور لباهر وهما يمران من أمام فرشها فيشتريان كيسا من اليوسفى :

-- مارأيك فى البضاعة ؟!

• قال وهو يفصص اليوسفية

- رائعة ! بشرط أن أخلع وجهها وأضع فوق هذا الجسد الجميل ماأريده من الوجوه ! أستطيع على الأقل أن أنسى وجهها مؤقتا !!

• لحظتها كان الفرع الذهبى الثمين المتدلى من عنقها على صدرها ومجموعة الغوايش فى معصميها والقرط فى أذنيها على شكل المخرطة ومثله مشبوك فى خرم فى أرنبة أنفها كل ذلك قد استقر فى ذهنه فأقنعه أن توقعات صديقه مدكور صحيحة مائة فى المائة وأن المضروبة تنام على ثروة طائلة !!..

• فى صبح اليوم التالى قامت أم مدكور بزيارة ودية لكاملة أيوب فى شقتها فمكثت عندها أكثر من ساعتين وعادت متهللة الوجه قالت إنهما معزومان غدا على الغداء ليذوق العريس طعم نفس العروس فى الطبيخ !..

• لعبت شمخة الطبيخ المسبك برأس العريس حتى أدارته فأخلد جسمه المنهوك إلى الراحة فوق حشية الكنبة القطيفة وسط ردهة كل مافيها نظيف زكى الرائحة ! تحرك الوحش

المسعور الذى طال كبته وكتم انفاسه فجئ بالمأذون عصر ذلك اليوم دفعت هى أجرته عن طيب خاطر !!..

« الهاتف رن فى منازل الصحبة فخضروا فى مطلع المساء بثلاث سيارات خاضت فى مستنقعات المجارى الطافحة حملت العروسين إلى نادى الجزيرة فتعشوا سكروا حششوا غنوا رقصوا رَفهوا عن رواد النادى الذيـــن شـــاركوهم فى مرح جنونى !!..

« إستقر المقام بالعريس فى رغد من العيش يصحو من النوم وقتما يصحو فيستحم يرتدى بذلته الجديدة المهداة إليه من ضياء فيبدو فيها كعملاق أزعر ممسوخ الهياة يتأبط حافظة المحاضرات يمر بها على ناصية الحارة امام الفرش يصبح عليها يفتح الحصالة يأخذ مصروفه يمضى إلى الكلية أو إلى مايشاء أن يمضى ليعود فيجد الغداء جاهزا فيتغذى وينام ليصحو يسهر مع الشلة عند مذكور فوق السطح يرجع آخر الليل فيجد كاملة فى أبهى زينتها فيعتليها يظل ساعات طويلة فى هبد ورزع بقوة فلاحية جنونية غشيمة زادتها المخدرات والمنشـــطات جنونا وفتوة !..

« باتت فى أسعد حال لا يقلقها سوى غدر الزمان تخشى أن يتركها فى لحظة مجهولة خاصة انه لم يعرفها بعد بأهله فصارت تلح عليه فى أن يصطحبها فى زيارة لبلدته غير أنه يستمهلها

حتى يزف إليهم الخبر بالتدريج إلا أنها لشدة قلقها تريد أن تشده إليها بأى قيد يريح بالها ! وآخر ماكان يتوقعه أن تبلغه أخيرا بأنها حامل منذ شهور طويلة وأنها سعيدة بهذا الحمل فأخيرا ستكون أما بعد طول اشتياق ولسوف تحب الطفل القادم لأنه سيربط بينهما إلى الأبد !!..

« حين أيقن باستحالة الإجهاض وخشى من الفضيحة التى تقبع له على ناصية الحارة ركن إلى راحة اليأس فترك الأمور تجرى على هواها كما رسمها الله وليكن مايكون !!..

« كان ضياء يضحك كالمعتوه وهو ينهى إلى هذه التفاصيل فيما يتمايل بكتفيه مع ميل السيارة وهى تستجيب لعجلة القيادة فى التحويد إلى حارة شديدة الضيق شديدة القذارة مليئة بالنتوءات والتضاريس وفتحات البالوعات ذات الغطاءات الحديدية الواقفة فى منتصفها لاهى مغلقة ولا هى مفتوحة فعجبت كيف يمكن لسيارة فاخرة كهذه أن تنغرز فى هذا الوحل العطن لكن عجبى توقف فور أن تذكرت أن عصرنا الردئ قد ساح فيه كل شئ فى كل شئ !!

« الحارة سد والبيت فى المواجهة ! ثمة باب قصير فى الجدار الذى يسد الحارة يعلوه شباك صدئ بمشربية ساذجة عتيقة ترقص فى فجواتها ثلاث قلل من الفخار منظرها شهى مثير للعطش !..

« ضغط ضياء على زر البوق بحركة صنعت أصواتا موسيقية يبدو أنها متفق عليها فيما بينهما : تى توت تى توت ! فأطل وجه صاحبنا من الشباك فكأن رأسه قلة رابعة ضمت إلى القلل ! فبحركة اغتباط صبيانية بهيجة شوح بذراعه لضياء أن اركن وانزل ثم اصعد !..

« فتح ضياء باب السيارة ونزل بقدمه اليسرى وعوج رأسه ناظرا إلى أعلى صائحا :

– معى ضيف يهمك !

« فشحب وجهه بعض الشئ لكنه صاح بصوت جف ريقة فجأة فتحشرج :

– ايأهلا بيه ! ياألف مرحب ! إتفضلوا !

« دلفنا إلى الدهليز فإذا بنساء متربعات على الجانبين أمام طشوت الغسيل وصوت الدعك والعصر يملأ الدهليز برذاذ الصابون وصخبه مع صخب النسوان !..

« أربع أبواب مفتوحة خلف ظهور النساء المتربعات بسيقان عارية متختخة وثياب سوداء رقيقة مبتلة بالمياه ملتصقة بلحمهن بشكل مثير !! من فتحات الأبواب تظهر أطراف عمدان سراير نحاسية منزوعة الملاءات بجوارها أشباح دواليب كالحة أمامها أطفال زواحف بمؤخرات عارية ملوثة بالغائط وثمة بوابير جاز تملأ الدنيا وشيشا خشنا تحت حلل وأنا جر يتصاعد منها

بخار عطن تبعثه كتل من الثياب المسلوقة فى الماء المغلى وثمة أيد تحركها فى الماء بعصى خشبية كئيبة المنظر !!..

« صرنا كالبهلوانات نتمايل فى رشاقة لنتفادى الإصطدام بالطشوت والبوابير المشتعلة والبط والدجاج ! قال ضياء فى لهجة أولاد بلد مستعارة لكنها خفيفة الظل مقبوله :

– العواف عليهم !

« نطقن جميعا فى أصوات رنانة مليئة بالود وربما الشبق المغلف بتنهدات الضجر :

– يسعد صباحك ياخويه اتفضلوا !

« شكرا شكرا رددتها وأنا أتملك درجة السلم المتآكلة ممسكا بدرابزينه الحديدى الصدئ المتراقص لدى أى لمسة !! على أول بسطة رأينا باهر يقف على البسطة التالية والأخيرة فى انتظارنا ومن خلفه باب الشقة مفتوح !..

« بُهت حين وقع بصره علينا لكنه اندمج فى صيحة ترحيب كمهرج بارع حرّيف :

– يادى النهار النادى ! إيه الجمال ده ؟ معقولة ؟ الشاعر الكبير نفسه جاى لى ؟! يامحاسن الصدف ! إيه المفاجآت السعيده دى ياضيا ؟ دا انت تستاهل قبله على المفاجأه دى !

« إحتضنه فقبله بسرعة ليفرغ لى فيحتوينى فى صخب كبير ضقت به ضيقا شديداً ذلك أنه لم يترك وصفا خطيرا إلا

وصفنى به !!..

« إقتادنا إلى الداخل فإذا هى ردهة مربعة الشكل مترين ونصف فى مترين ونصف بها ترابيزة سفره وبوفيه وست مقاعد من ذلك النوع المعروض فى الشوارع أمام المحلات الشعبية التى تبيع بالتقسيط !..

« جلسنا على الكنبة البلدى تحت الشباك وظل هو واقفا بجلبابه البلدى النظيف وقد امتلأ جسمه باللحم وخدوده بالدم القانى كما اغلظ صوته إذ هو قد يمم وجهه نحو مابدا أنه المطبخ مناديا :

– تعالى ياكامله تعرفى على الضيوف ! كنت تدوشين دماغى لأعرفك بأهلى ! هاهم أهلى جاءوالحد عندك !!

« أطل من باب المطبخ وجه قرد مدهون بالأبيض والأحمر مخطط الحواجب والجفون بالكحل الأسود فخفضت بصرى فى الحال تأففا لا ورعا !!..

« ثم إذا بغزال فاره القوام مخروطى الشكل يتبختر قادما من المطبخ فكدت أقف احتراما لصنع الله فى هذا الجسد وعميق حكمته الغامضة من تركيب هذا الوجه على هذا الجسد !!..

« بنصف وقفة تلقيت يدها الملفوفة فى طرف ثوبها فإذا هى تسلم علىّ بحرارة شديدة وعلى ضياء بسرعة ثم تهرول فتختفى فيما بدا أنه حجــرة النوم فواربت بابـــها فسمعنا

صـــوت دولاب ينفتح يزيق فى صـــرير منفر ثم شممنا رائحـــة عطر رخيص ينزلق فى الهـــواء بكثافة تكاد تكتم الأنفاس !!..

« خرجت فى أبهى زينة تلف الروب دى شامبر حول خصرها فكأنها نحت فرعونى يشهد بعظمة النحات ! عبرت الردهة إلى المطبخ وسرعان مارجعت تحمل صينية فخيمة بعض الشئ آتية لا شك من وراء نهر البصره عليها زجاجات الكوكوكالا المثلجة وضعتها أمامنا على طقطوقة بدت غريبة الذوق على المكان إذ هى من خشب الأبنوس برسوم فرعونية !..

« قالت السن الذهبية :

– ياأهلا وسهلا ! دا احنا زارنا النبى !

« ثم قالت وهى تربت على ظهرى كأننى طفل :

– إتفضل ياخويه ! تصبيره لحد ما اجهز لكو الغدا !

« صحت محتجا :

– لا ! غدا إيه ؟ داحنا بقينا على وش مغرب وأنا لازم أرجع لأنى عندى ضيوف مهمين !

« سلطت على عينين كفوهتى بندقية تكاد كل فوهة تشطرنى إلى نصفين ثم حلفت بالطلاق من ذراعها أن لا أخرج من هنا إلا بعد تناول الطعام فالبيوت ليست سائبة إلى هذا الحد ندخلها ونخرج بمزاجنا وقتما نشاء !!..

« كان الغداء شهيا بالفعل تفوح منه رائحة الأنثى مختلطة برائحة التوابل الحريفة لدرجة أننى ابتهجت إذ بدا لى الأمر كله كحكاية عصرية طريفة مسلية لا بأس من الفرجة عليها حتى النهاية فتركت باهر يزعم لها ماشاء له الزعم دون أن أعلق أو أهتم !!..

« قال لها إننى من أعمدة عائلته وأننى أكبر شاعر فى البلاد العربية كلها وأن الحكومة تخشى بأسى فتقيم لقصائدى النارية ألف حساب وأننى مقيم فى أعرق أحياء القاهرة فعنوانى هو كذا ورقم تليفونى فوق البيعة مع أنه رقم تليفون الجيران كما يعلم ويعلم أكثر أننى أضيق بمن يطلبنى فى هذا الرقم كما أضيق بهذا الرقم نفسه !!..

« صارت هى تكيل المديح لعائلتنا وطيب أصلها تعرب عن شوقها لزيارتنا فى البلد وزيارتى أولا وقبل كل شئ فى منزلى مادمت قريبا !..

« فى النهاية قام باهر ليرتدى بذلته كى يوصلنى فتعلقت هى بطوقى قبلتنى على الخدين فى حرارة حملتنى السلام إلى العائلة فردا فردا وبأسمائهم مع أنهم جميعا قد ماتوا منذ وقت طويل !!..

« أخيراً خرجت السيارة من عنق الزجاجة فامتلكت الطريق السريع على الكورنيش فأشرت لضياء أن يحود فى الطريق

المؤدى إلى شقتى لكن باهر كان قد شعر بأن فى الأمر خبر غير سار فطلب من ضياء أن يتوقف أمام إحدى المقاهى !!..

« نزل طالبا منا أن ننزل ففعلنا جلسنا على الرصيف نشرب الشاى الذى طلبه لنا بحفاوة كبيرة ثم مال نحوى :

– فيه إيه بالضبط ؟! أكيد حاجه حصلت !!..

– عمك هنا يريد أن يراك يطمئن عليك !!.

« شحب وجهة تدلت أذناه ولأول مرة أراه منكسرا ضعيفا خائفا حتى أنه زحزح كرسيه إلى الوراء ثم وقف فاقترب منى امسك بكتفى فى استرحام :

– إعمل معروف ! مقدرش أشوفه دلوقت ! أنا فى ورطه مهببه ! حاغلط فى الكلام ولو عرف منى حيطب ساكت ! أرجوك ! قول له إنك ملقيتنيش! وانا من ناحيتى حاكلمه فى التليفون فى البلد اسمعه صوتى واطمنه على أخبارى ! حاكتب له جواب أقول له إنى باشتغل بعد الضهر وحاوفر عليه مصاريفى ! المهم إنه مايشوفنيش دلوقت !! إخدمنى هذه المرة فقط ! وحامر عليك بعد يومين تلاتة أشرح لك كل شئ !!..

« نهضت فسلمت على ضياء بحرارة شكرته ثم انصرفت تاركا صاحبنا منكمشا فى قعدته كشقى مذنب !!.

.فى الطريق إلى شقتى استحسنت فكرة الزعم بأنى لم أجده إذ لو أننى طاوعت انفعالى المكبوت وضيقى بما رأيت فإن

صديقى الحميم قد يقع ميتا بالسكته القلبية !!

« ذُعر صديقى حينما رآنى أدخل عليه بمفردى جعل يحملق فى وجهى بنظرة استطلاع متفجعة لكننى وفقت فى إقناعه بأنى توصلت إلى مسكنه فى الوراق وأننى تأكدت من انتظام الولد فى الدراسة غير أنه يشتغل بعد الظهر لدى احد المقاولين طلبه اليوم للسفر معه إلى مدينة طنطا وسيعود بعد يومين وأننى تركت له رسالة ليمر على للأهمية ولسوف أجئ به إلى البلد فما على صديقى إلا ان يتكل على الله يسافر مطمئن البال !!..

« فى الصباح قمت بتوصيله إلى محطة رمسيس أركبته القطار وانا على ثقة أن الكثيرين من أولاد الحلال سيساعدوه كلما احتاج لمساعده !..

« لأول مرة يفى الولد بعهده فيكلم عمه فى سنترال البلد بل ويسافر خميسا وجمعه فتمكن بالفعل من إقناع عمه بسلامة موقفه فاطمأن العم واستقر خاطره !!..

« سنوات الدراسة كلها مرت وانتهت ! وذات ليلة فوجئت به يدخل علىّ مبتهجا يزف لى خبر نجاحه وحصوله على بكالوريوس التجارة بتفوق ! وكان يحمل حقيبة سفره ..

– إلى أين السفر ؟..

– إلى البلد إن شاء الله ! الم تنته الدراسة ؟ ماالذى يبقينى هنا ؟!..

– زوجك طبعا !!..

« إنفجر ضاحكا كشيطان التمثيليات الإذاعية :

– زوجى من ياراجل ياطيب ؟! كانت مرحلة وانتهت ! مجرد محطة فى الطريق الشاق !!..

« ثم حمل حقيبته وانصرف إذ لابد انه قرأ فى عينى رغبتى الملحة فى انصرافه !..

« لم يمض على انصرافه اكثر من أسابيع قليلة إلا وقابلته فى البلد يبرطع فى الشوارع كالبغل الإسترالى فلما سألته عن آخر أخباره عرض على أوراقه فإذا هو يتأهب للسفر إلى السعودية بعقد عمل ثمين للغاية فى وظيفة مجاسب بمرتب خيالى بالعملة الصعبة !..

« لم يطل عجبى إذ مالبث حتى صرح لى بأن والد أحد رفاقه – العضو بمجلس إدارة نادى الجزيرة – هو الذى توسط له فى هذا العقد الذى لا شك سيوفر له ثروة كبيرة فى سنوات قليلـــة !!..

« لم يعد فى الحياة ثمة مايدهش على الإطلاق إنما كنت حزينا غاية الحزن على مصر التى لم يعد فيها أى مكان للشرفاء الأصلاء بعد إذ يصبح لمثل هذا الولد المخرب مكان فى الطبقة المؤثرة فى مجريات الحياة وقلت لنفسى أنت واحدها وهى أعضاؤك انتثرت صارت أشلاءاً يتناهشها الإنتهازيون من

كل حدب وصوب !!..

« فى نفس تلك الليلة المشئومة جاءنى زوار الفجر فعاثوا فى دارى فساداً قلبوها راساً على عقب لم يتركوا مكانا بغير تفتيش ثم رحلونى إلى السجن مكبلا بالحديد لأعرف هناك أننى متهم بتنظيم حزب للبعث العراقى وأننى عميل لصدام حســــين !!..

« أحببت تعذيبى وسجنى لسببين عظيمين كانا اكتشافين خطيرين بالنسبة لى ! إكتشفت قدرتى على الصمود وحماية الكبرياء الجريح من السقوط فى الوحل ! واكتشفت حب الناس لى ذلك الحب الكبير ! فلقد قامت الدنيا .كلها تطالب بالإفراج عنى تندد بتعذيبى تهز الأرض تحت أقدام الجلاد !!..

« تلك هى القوة البديعة المقدسة التى بها ولها تنشأ قصائدى تتفرع فى كل الأنحاء !!...

« تلك هى القوة التى غذتنى بمصل القوة والإحتمال والتمسك بكل مبدأ أمنت به !..

« أمنت بالأمة العربية وكنت فى لحظات الضيق أكاد الحد بها من فرط الظن بأنها تحللت فإذا هى تحتوى على خميرة لا تموت ولا تفنى !!..

« لزمت شقتى أستقبل وفود المهنئين من كل مكان حتى الذين لم أكن أعرفهم جاءوا مهنئين ! حتى الذين كانوا

يتصورونني مجرد ملتاث فى عصر عاقل إكتشفوا أن لى قيمة كبيرة !!..

« كثيرون لم يكونوا يعرفون ماهى مهنتى بالضبط ؟ مامعنى أن يكون المرء شاعرا ؟ وهذا من بين الفوائد الكثيرة التى نجنيها من وراء جهل الجلاد ! فكثيرا مايتولى الجلاد مهمة فضح الحقائق وتوضيحها من حيث أُريد له تضليلها وطمسها ..!!

« كان من الطبيعى أن يزورنى المهتمون بالأدب لكن ليس من الطبيعى أن أفاجأ بضياء يزورنى هو الآخر مهنئا !!..

« طرق بابى ذات ليلة إرتمى فى حضنى قائلا إنه لم يكن يعرف أننى مهم إلى هذه الدرجة وإنه تابع كل أخبارى فى جميع الصحف فلما علم بالإفراج عنى قرر أن يقتحمنى ..

« وضع أمامى زجاجة ويسكى كبيرة أتى بها من السوق الحرة على شرف المناسبة !..

« من حسن حظى أن كنت وحدى فى تلك الليلة فلما سكر ضياء صهلل وانتشى ركان لابد أن تجئ سيرة باهر !..

« بذكائه اللماح ..رك ضياء أننى لا أكن أى احترام لسلوك باهر فقال صراحة إنه وكل الشلة ينظرون إلى باهر نفس النظرة يعرفون أنه انتهازى لكنـه مسل وخدوم ! ثم قال ماأذهلنى :

« لقد بدأ باهر منذ ليلة الزفاف يكثر من زيارة عونى بك عضو مجلس إدارة نادى الجزيرة يدخل فى زوارقه يقنعه بأنه طالب مكافح مجتهد يستحق الإحترام والمساعدة !..

« عونى بك هو الآخر ضرس لا يمكن خلعه ليس من السهل الضحك عليه لكنه فهم الولد استوعب شخصيته ظروفه وجد فيه صيدا ثمينا يبحث عنه من زمن بعيد !!..

« ذلك أن عونى بك يتاجر سراً فى جميع أنواع الممنوعات على مستوى كبير جداً إذ هو فى الأصل تاجر سيارات لديه توكيل من شركة المرسيدس يملك أكثر من عشرين صالة عرض فى مصر. والبلاد العربية وقد اختار باهر ليعمل فى فرع تابع له بمدينة الرياض وسيدفع له هذا المرتب الكبير لأنه الوحيد الذى يستطيع أن يكلفه بمهمات تهريب تقتضى جسارة كبيرة وصفاقة أكبر لا يقدر عليهما إلا فتوة دُهُلٌ كباهر !!..

« من جهة ثانية فإن الرجل العُقر لديه إبنة لخت أشد دمامة بكثير جدا من كامله أيوب وفوق ذلك سيئة السمعة والسلوك يعبث بها كل رواد النادى ليل نهار حتى السعاة والنوادل والفراشون ناموافى حضنها طويلا حتى سئموها بما هى مريضة بالشبق لا تشبع مملة حتى وهى تدفع ثمن إمتاعها بسخاء وسفه لا ينضب لهما معين ثروتها الضخمة المكونة من حصص كثيرة فى مشاريع خالها وسبع عمارات فى مصر

الجديدة ورصيد فلكى الرقم فى البنوك وهى إلى ذلك كله وحيدة يتيمة الأبوين !!..

« أوعز الرجل العقر إلى باهر بأنه سوف يزوجه من شيرين ابنة اخته هذه لو انه استقام وشاف شغله بإخلاص وذمة وتفـلن !!..

« طار الولد من الفرح ! والبنت هى الأخرى ماصدقت أن وجدت شابا فتيا يموت فى هواها ولو بالكذب فتشعلقت به رسمت عليه دور الحب الذى جيد رسمه حتى الذوبان فى كل من هب ودب !!..

« ضوعف اهتمامى بالأمر فسألت ضياء :

– هلْ طلق الولد زوجه حقا ؟!..

« تدفق ضياء فى صفاء تدفق الضوء على لؤلؤه :

– هو يقول إنه طلق ! صدقناه ! إننا نصدق دائما كل مايقول ! ماقصدت أنه صادق بالفعل إنما أقصد ! مثلما تقول يعنى : لا نحب وجع الدماغ ! لا نريد أن نجادله لأننا نعرف أن مخه طاقق من حاله ! بصراحة نحن نريد أن ننبسط والسلام فصدقه أو كذبه ليس يعنينا ! طلقت ياباهر ؟ نعم طلقت ! خلاص طلقت طلقت ! خيرها فى غيرها !!..

« كئوس الويسكى التى كان ضياء يحتسيها بحكمة وحرفنة وكياسة تدل على أن مشروب الويسكى طقس يومى سائد فى

حياة أسرته ! هذه الكئوس مالبثت حتى زهزهت فانفكت عقدة اللعثمة عن لسانه إنفرطت الضحكات من صدره بغزارة طازجة تماما كانه يضحك لأول مرة فى حياته كأننى لأول مرة كذلك أرى مخلوقا يضحك بل كاننى اكتشفت اكسير الضحك الآن فحسب !!..

« لا لم يكن ضحكى قبل الآن ضحكا لا ولا ضحك جميع من عرفت من البشر ! إنما الضحك هو ماأراه الآن حيث يستحيل الإنسان إلى عجينة من البهجة مثل المهلبية أعماقها فى سطحها !!..

« محور الضحك هو باهر وأفاعيله نوادره التى راحت نكرياتها تتدفق على راس ضياء فيهز جبهته الضيقة الممسوكة فى أعلاها بفروة من الشعر الأكرت المنظوم على شكل فوضوى ! فتنفرط الذكريات كحب الرمان تغمر الأرض تملأ الكئوس بدلاً من قطع الثلج فتخفف من لذع الشراب وحدته !! عدوى الضحك تسرى فى بدنى سريان الريح فى جمرات اللهب فتطقطق عظامى فى أتون الإحتراق لا أرى دواءاً للألم سوى أن اصب عليه الضحك لعلنى اخمد الرغبة الجارفة فى البكاء الحارق فى العويل إلى حد الندب والنواح!! فالولد الذى سبق أن أحببته أملت فيه خيرًا لم يكن سوى خرقة بالية يمسحون بها أحذيتهم ليس لكونهم اشرار بل لو ضاعة فى الخرقة لا أدرى متى تأصلت فيه ولا كيف ؟!..

« أبدا لم يكونوا أنبغ منه ولا أذكى ولا أكرم إلا أنه الإنسحاق أمام الدرهم والدينار إنسحاق من ليس معه تحت نعال مَنْ معه !! أهو دين جديد اسمه دين الثروة تأصلت فى شباب العصر صارت عقيدته ؟! أهى عقيدة يتمسح فى شرفها المتعبدون ؟! أية ريح سموم هبت علينا من الصحراء فلفحت ديارنا بهذه الجراثيم الفتاكة ؟!..

« قال ضياء إن باهر اكتشف من ثانى يوم لزفافه أن كاملة أيوب كانت على علاقة بصديق مدكور الذى دبسه فيها ببساطة !!..

« لا لم يكن اكتشافا لأنهم - ضياء والصحبة = حاولوا نصحه باللمحات الذكية لكنه تغابى ! بل إن مدكور نفسه ظل يمارس العلاقة بشكل طبيعى وبكل حرية إثناء غيبة صاحبنا فى الكلية ! فكان يوصله إلى المدرج ويتسلل عائدا ليأخذ مكانه لا فى بيتها إنما فى بيته هو حيث يبعث بأمه لتجلس مكانها على الفرش حتى ينتهى هو من مهمته !!..

« سطح مدكور كان مباحا للشلة كلها دون أى تحفظ ! يستطيع كل واحد أن يأتى فى اية لحظة فيصعد إلى السطح حتى لو لم يكن مدكور موجوداً فلا تثريب عليه إن هو فتح الحجرة وأشعل منقد النار وجهز للتحشيش وحده إلى أن يدركه أحدهم فى لحظة مقبلة لا محالة !!..

« رنّ دماغ ضياء وهو فى طريقه من مصر الجديدة إلى الجامعة فلما تذكر أن المحاضرة الأولى لدكتور محنط لا يحب تزمته ولا يستسيغ لكنته المتأجنبة حول اتجاه السيارة إلى طريق الوراق ميمما شطر سطح مدكور ليبخر راسه بثلاثين أربعين حجرا !!..

« كالعادة أوقف السيارة واشترى الفحم والمعسل وبعض قطع الشيكولاته وعلب البسكويت ثم صعد إلى حجرة السطح فوجدها على غير العادة مغلقة من الداخل بالترباس فاستراب فى الأمر فتمهل فشعر بأنفاس تتردد فى داخل الحجرة وثمة حركة كانت قائمة لكن وقع خطواته على السلم والسطح اسكتها !! فعمد إلى التخابث فمضى بوقع خطواته الصاخبة فى اتجاه السلم ثم اخذ يهبط بصوت عال ثم عاد فقفل راجعا على أطراف أصابعه كاتما أنفاسه فجلس لصق الباب مطمئنا إلى انه قد أوهمهم بالإنصراف وحينئذ طابت له ضحوية رائعة هدهدته سمفونية العشق المحتدم خلف الباب مباشرة حتى اغرقته فى البلل فشعر بالحسد تجاه مدكور على فوزه بهذه الغانية المعطاء السخية !!..

« على أطراف أصابعه ابتعد إلى ركن قصى من السطح فاقتعده فطالت قعدته حتى كاد يمشى بالفعل مكتفيا بما ناله من بلل ! لكن الباب انفتح وخرجت منه كامله ايوب تعدل فى

ثيابها تهرول نحو فتحة السلم دون أن تراه فى حين بقى مدكور متمدداً على أرض الحجرة خلف بابها الموروب ! فلبث هو فى مكانه برهة طويلة دخن فيها بضع سجائر ثم نهض متجها إلى الحجرة فدخلها ليجد مدكورا قد استسلم لسنة من النوم كالثور الذبيح فتركه وانصرف لشأنه الذى جاء من أجله !!..

« من الطريف أنه استيقظ على صوت اختبار الجوزة فألقمه ضياء بوصتها فى الحال ولم يفتح فمه بكلمة !..

« مرات عديدة يحاول هذا الر الصافى استثارة نخوة باهر إلا أن هذا الأخير كان يتجاهل الأمر حتى اضطـ أن يسأله ذات ليلة سؤالا مباشرا وصريحاً :

– باهر ! أأنت واثق تماما من إخلاص زوجك لك ؟!

« فإذا برد هذا الملعون :

– أعرف كل مايدور فى دماغك! رأيت شواهده وتأكدت منها!!

« حينئذ سأله بغيظ واحتقار :

– فلماذا تسكت ؟! ألست رجلا ؟!

« فشوح يذراعه فى أسهتار :

– بينى وبينك انا محتاج لفلوسها ! لطعامها ! لفراشها ! لجسدها ! والمحتاجه غناجه !!

« أحببت ضياء لأن ضحكاته الهازئة بهذا المسخ الشائه كانت على صفائها تنضح بالمرارة والإستنكار والدهشة !! طلبت منه أن

يزورنى كلما وجد نفسه قريبا من شقتى !!..

« إختفى أسابيع طويلة ثم فوجئت به يطرق بابى ثانية قرب منتصف الليل وكان ثملا حتى النخاع يمسك بيده صحيفة مطوية تبينت من شكلها انها جريدة المساء فتوقعت أن يكون من هواة الصفحة الرياضية !..

« جلس قبالتى فاخلد إلى صمت شارد النظرات تنضح صفحة وجهه المحمرة بصفاء طفولى كامل السمات ! وجه مبتهج بطبعه ونظرات قلقة زرقاء زائغة ولفافه تبغ لاتنى تلثم شفتيه فى شغف !..

« قدمت له شايا فقهوة فشايا لعله يتكلم لكننى كلما استنفرته للحديث نظر فى وجهى وابتسم كانه نذر للرحمن صوما فلن يكلم اليوم إنسياً !!..

« إلا أنه حينما تأهب للإنصراف بدا كانه تذكر شيئا طريفاً برقت له عيناه وبدت فيهما الحيوية كمن اكتشف اخيرا موضوعا صالحا للحديث الطلى ! فامتدت يده إلى الجريدة المطوية ففردها بيد مرتعشة ثم طواها مبرزا صفحة الحوادث وقدمها لى قائلاً مع اختلاجة سريعة فى خديه وشفتيه :

– تعرف لمن هذه الصورة ؟!

« إنتفض قلبى غاضت الدماء فى عروقى طلبت الستر من الله حملقت فى الصورة كانت لامرأة شوهاء الوجه ممزقة

الجسد بطعنات لا حصر لها كأن طفلا معتوها حاول تخريطها بسكين صغيرة وكان للوجه ظلا أليفا وثمة ملامح لخطأها حد السكين فبقيت كظل متجمد لتمثال معروف للذاكرة !! قطبت حاجبى قائلا :

– « أحس أنها معروفة لى بعض الشئ ! نعم ! اظن أن فيها بعض الشبه من كاملة أيوب زوجة باهر !!..

« هتف ضياء بفرح طفولى :

– بالضبط ! أنا أيضا قلت هذا ! كنت الآن فى بار الكوزموبوليتان فرأيت الترابيزة المجاورة لى مشغولة بهذه الصورة وبالحادثة فاستأذنتهم للنظر فيها ! فلما جاءنى هذا الخاطر قلت أمر عليك لعلك تكون أدق نظرا منى ! أردت صاحبا يشاركنى الرأى والإهتمام بالخبر !

« لم أسمع بقية حديثه إذ انكببت على قراءة الحادثة فيما جيوش وقوافل من النمل تتمشى فى عروقى تبث اللهب فى كل أعصابى تضخ فى رأسى سحبا من النذر الشريرة !!..

« هذه الجثة عثرت عليها مباحث محافظة الغربية ملقاة فى الهيش بين أعواد التيل والحلفاء وبحذائها جثمان طفلة رضيعة تنطبع على رقبتها آثار الخنق بأصبعين غليظين غائرة فى الرقبة تحت الفكين !! وقد عجزت مباحث الغربية عن الإستدلال على شخصية القتيلة وهى الآن ملقاة فى المشرحة هى وجثة طفلتها

رغم الإنتهاء من فحص جميع البلاغات السابق تقديمها عن نساء مختفيات بل إن كـل أصحاب البلاغات قد عاينوا الجثة وأنكروها !!..

• سألنى ضياء بشكل عفوى :

– منذ متى لم تر باهز ؟!

– منذ دخولى السجن ويظهر أنه سافر إلى الخليج للشغل هناك !

– لا ! لم يسافر بعد لأنه كان معنا منذ حوالى أسبوع وربما اقل ! كان مشغولا بتخليص مسألة التجنيد باعتباره العائل الوحيد لأسرته ! كان فرحا كالمجنون لأن الرجل العقر جهز لتسفير شيرين معه كى تتولاه بالرعاية وفى نفس الوقت تكون جاسوسة !!

• ثم أردف بعد برهة كأنه تذكر الخبر اليقين :

– سفره لن يتم قبل أسبوعين بالضبط هذا ماقالته لى شيرين فى النادى أول أمس !!

• ثم شوح بذراعه قائلا وهو ينهض :

– فضنا من سيرته يلعن ميّتين أمه ! هو خميرة عكننة فى كل مكان !

• وعانقنى بحرارة ثم انصرف تاركا لى جريدة المساء فبقيت صورة الجثمان المشوه تلقى بظلالها القاتمة فى ردهة الشقة

اياما طويلة ولا أدرى لماذا لم أرفعها من مكانها فوق الطقطوقة لأرمى بها فى أى قمامة !!..

• المصائب لا تأتى فرادى ؛ ولابد للحدث أن يفرض إيقاعه على جميع الأطراف حتى أولئك الذين لم يشاركوا فى صنعه !..

• إن هى إلا أيام قليلة حتى طرق بابى ذات صبح مبكرا جداً لم اعتد الصحو فيه إذ إننى بالكاد اكون استسلمت لطائلة النوم العميق !..

• الطرق كان ملحاحا متوترا يعكس إصراراً راسخا بشكل يصعب تجاهله أو احتماله !..

• نفضت نفسى عن السرير متطوحاً متلفتا حوالى فى حقد عظيم اكاد أبحث عن هراوة احطم بها راس ذلك الحيوان الذى جبرنى على الصحو الآن وأنفى فى الرغام !!..

• ماأن فتحت الباب حتى اقتحمه أفندى عملاق سمح يوحى بالعشم وإسقاط الكلفة يسحب فى يديه طفلين صغيرين على خدودهما حفر البكاء أخاديد غائرة ترفل خطواتهما المتعثرة فى سمت مقهور وبؤس أليم !!..

– فيه إيه ياجدع أنت ؟ إنت مين ؟ عايز مين ؟ عايز إيه ؟!

• قال الأفندى فى كثير من الأدب وبلهجه كيسة :

– أنا أسف ياأستاذ جعفر ! صباح الخير أولا ! أسف جداً إنى تلقتك من النوم لكن اعذرنى انا مضطر ! إقعدوا ياعيال !!

« قلت فى ضيق وتشاؤم :

– من أنت أساسا ؟!

« قال متلطفاً محاولا تطييب خاطرى :

– تسمح لى أقعد مع حضرتك دقيقتين بالعدد ؟!

« شوحت نحو المقاعد :

– تفضل ! خير إن شاء الله ؟!

« أشار بيده نحو صدره :

– أنا مدكور ! بكالوريوس تجارة ! أعرف حضرتك من ندوات الجامعة ! من أشد المعجبين بشعر حضرتك !

– مدكور من ؟!

– مدكور الدُش صاحب باهر قريب حضرتك ! قصدى بلديات حضرتك ! ودول ولاده : عدلى وجعفر ! واحد باسم عمه والتانى باسم حضرتك !!

« تلقائيا حملقت فى وجهى الطفلين بتفحص دقيق فرأيت ثم باهر مبثوثا فى الوجهين بصورة لا لبس فيها ولا اشتباه فشعرت نحوهم بحزن شديد كدت أبكى لكننى استرجعت هدوء أعصابى من أجلهما تلطفت قدر الإمكان :

– أجيب لكم تاكلوا ؟ تشربوا شاى بحليب ؟

« لكن مدكور أصر أن أبقى جالسا لأنه فى عجلة من أمره :

– لا نطلب منك غير خدمة بسيطة من أجل هذين الطفلين

اليائسين !!

– تحت أمرهما !!

– كل ماأطلبه منك أن تصف لى كيفية الوصول إلى بلدتكم فأنا بإذن الله لابد أن أصل إليها اليوم !

– الأمر عاجل إلى هذا الحد ؟!

– باهر كان عندنا منذ حوالى ثلاثة أسابيع لأنه كان معذوراً فى قرشين من أجل تخليص أوراقه للسفر ! كان متفقا مع كامله أن يسافر بمفرده أولا ثم يعود فى أول إجازة ليأخذها بأولادها بعد أن يكون قد دبر لها مسكنا ! الولية بصراحة ربنا لم تبخل عليه بالمال ! باعت مصاغها كله وأعطته ثمنه لحجز تذكرة السفر !! لكنه فى المرة الأخيرة القريبة طلب منها مائتين دبرتهما له من لحم الحى ! بات عندها ليلتين ! صارحته بمخاوفها قائلة له لا أحد يضمن الموت من الحياة وأنت مسافر ياعالم نشوف بعض تانى ولاّ لأ ! اقصدها أن يحقق لها أمنية واحدة قبل سفره : أن يعرفها بأهله ليتعرف الأولاد على أهلهم ويتعرف الأهل على لحمهم الطرى ! المهم أنها اشتغلت فى العايط ! قالت إنها لم تؤخر له أى طلب مهما كان وهى فى المقابل تطلب طلبا واحدا تعيش بعده مطمئنة فى غيابه خاصة أنه ليس من المعقول أن يدخل زواجهما فى العام الخامس دون أن تعرف أهله !! فرقّ قلبه ! رضى أن يأخذها معه إلى البلد مع الطفلة الرضيعة فقط ليبيتا هناك ليلة واحدة تعرف فيها سكة

البلد لتزورها بعد ذلك هى وعيالها فى غيابه وقتما تشاء ! على خيرة الله ! تركت الولدين فى عهدتنا حتى تعود بعد ليلة واحدة لكنها لم تعد حتى الآن !! إستحلت المرعى هناك وتركتنا موحولين بعيالها ! ماضاقت أمى بالولدين لكن بكاءهما يقطع قلبى كما أننى بدأت أنشغل بهذه الغيبة الطويلة !!..

« الأرض كانت تدور بى فى دوامة هائلة حتى خيل لى أن جميع البراويز على الحوائط والأشياء الموضوعة كلها سوف تنقلب فى لمح البصر ! صرت أتشبث بقبضتى فى مسند المقعد ! جف ريقى كالرغيف اليابس تنتقل عيناى بسرعة الضوء بين مدكور والطفلين وصورة الجثمان المشوه الملقاة فوق الطقطوقة أمامنا !!..

« إستللت صوتى من جرابه الصدئ بصعوبة مريرة :

– لكنى ياأخ مدكور سمعت أن باهر طلق زوجته !

« ضحك ضحكة أسيفة :

– طلقها ؟! هه ! يقول طلقها ! اطمئن ياأستاذ جعفر ! أمثال باهر لا يطلقون أبداً !!!.

« الورطة السوداء أحكمت حصارها حول عنقى سحب قاتمة تتصادم فى صدرى تبعثرنى شظايا أسئلة حائرة : هل أتركه يسافر ؟! إنها الفضيحة الكبرى لا محالة ! ينقبض قلبى كلابات حديدية وصورة الجثمان تلاحقنى ! كيف يكون منظرى فى نظر الناس فى البلدة حينما أدل المصيبة على الطريق إلى

أهلها الآمنين الآن فى أعقار دورهم ؟! كيف يكون حال صديقى المسكين ؟!..

« كانبلاج خيط الضوء فى جبهة الظلام القاتم لمعت الخاطرة فى رأسى فتماسكت أعصابى فاستطعت الوقوف فتبينت القدرة على المشى فاتجهت إلى المطبخ صنعت الشاى بالحليب جهزت فطورا سريعا من أجل الطفلين منحت نفسى فرصة تقليب الخاطرة على نيران هادئة حتى استوت !!..

« مع رشفات الشاى وإقبال الطفلين على الطعام بشهية إلى حد الإستغراق استطعت تهدأة مدكور وإقناعه بحل أسلم وأسهل يوفر عليه مشقة السفر ...

« من فورى نزلت إلى أقرب مكتب للهاتف فكلمت باهر فى البلد طلبت منه ضرورة الحضور لإستلام طفليه بدلا من أن يجئ بهما صديقه إليه !..

« لحظة تحول الظلام من النافذة المطلة على مقابر الإمام الشافعى كان هو يدخل من الباب !..

« مالن رأى مدكور والطفلين حتى أصابه الوجل والإرتباك المروع لكن لبرهة خاطفة سرعان مااسترد بعدها تماسكه فأقبل على مدكور يحتضنه بشوق مردداً أن كامله أصابتها وعكة صحية بسيطة ! ثم اندفع إلـى الطفلين فحملهـا يقبلهما بحرارة !!..

« إستغرق ذلك كله دقائق معدودة رحت خلالها أتأمله فى

ذهول وحيرة بالغين حد البله أوحدّ الشلل وقلبى يحدثنى بأن هذا المرح الكبير ليس إلا قشرة سميكة تحتها ماتخفى من تورط وحيرة وغباء منقطع النظير !!..

« حمل الطفلين متجهاً إلى الباب هاتفا :

– إسمحوا لى ! لابد أن أبيت الليلة فى البلد لأطـمئن أمهــما !!..

« قبل أن يتمكن من الرد عليه كان صوت هبوطه السلم يبتعد فبعد برهة طويلة انتبهت فإذا بمدكور وأنا جالسين فى المواجهة فى شرود أقرب إلى الذهول وبيننا على الطقطوقة صورة لجثمان مشوه تنام بجواره طفلة رضيعة مختنقة !!..

« إنصرف مدكور بعد أن أشبعنى اعتذار وشكرا دون أن أجد القدرة على النطق بأى كلمة !!..

«حينما أويت إلى الفراش مهدوداً ممزق القلب كان النوم رغم ذلك يتأبى ويتمنع ! فعلى حافة الأفق عند أول ضفة من ضفاف النوم يرقد جثمان ممزق الجسد بالسكين وبجواره طفلة مخنوقة بقسوة بالغة !!..

« غير أن تمساح النوم اختطفنى على حين غرة فابتلعنى فى جوفه برهة خيل لى أنها قصيرة وأن جوف التمساح قد ضاق على جسدى فلفظه رمى بى إلى بعيد أتحسس خربشات أنياب لابد أنها انغرزت فى لحمى فتركها فك التمساح فى ضلوعى !!..

« فتحت عينى فإذا النهــار التالى قد انمحى لم يبق منه إلا

أقله !..

« جهزت حقيبة السفر لبست ثيابى نزلت إلى قهوة زهرة البستان دفنت نفسى فى صخب الصحاب تنقلت فى بطانتهم الدافئة من الآتيلية إلى مستودع البيرة إلى القهوة ومنها توجهت إلى باب الحديد فركبت منه إلى البلد !..

« فوجئت بباهر يبرطع فى البلد وحده ليس ثمة من أثر لزوجه أو عياله !!..

« لم أطق صبراً سألت الناس فاندهشوا سألت صديقى المهندس عدلـى فاسـتنكر ! لا علم له بهذه المسألة على الإطلاق !!..

« تصدع بنيانى تهاويت على صدر عدلى اعترفت له بكل كبيرة وصغيرة حتى صورة الجثمان المشوه والطفلة المخنوقه فى جريدة المساء !!..

«البطل القديم ليس ينهزم بسهولة ! فبكل صمود وقوة استمع إلى القصة دون أن يقاطعنى فلما إنتهيت من حكايتى بعث فى طلب الولد فلم يجده أثرا وقيل إنه شوهد يحمل حقيبة السفر ويمضى فى اتجاه محطة القطار منذ ثلاث ساعات على الأقل !!..

« قال البطل القديم الجديد فى هدوء بطرنى :

– وماالذى ينبغى علينا أن نفعل الآن فى نظرك ؟ أعطنى مشورتك !

– رأيى أن تبادر بتبليغ الشرطة بطبيعة الحال وفورا !

– وهو كذلك ! هذا أقل مايجب !

« ثم تزحزح نحو دراجته وبدربة كبيرة قفز إليها فمضينا معا إلى قطاع المباحث فأدلينا لرئيسه بكل مالدينا !..

« اليوم فوجئنا بأننا مطلوبين من مركز الشرطة فذهبنا ! ليتأكد لنا أنهم قد نجحوا فى القبض على الولد فى نادى الجزيرة وأنه إعترف بكل شئ : كيف استدرج زوجه إلى شرب المخدر فى الشاى فى استراحة الطريق الزراعى وكيف استدرجها للهيش قرب مدينة قطور ليطعنها خمسا وثلاثين طعنة نافذة !! وكيف أطبق على عنق الطفلة الرضيعة بأصبعيه !! وكيف عاد بالطفلين فوقف بهما على كوبرى دسوق فى عمق الظلام وهما نائمين فيلقى بهما فى قلب النهر واحدا بعد الآخر فى ثبات وقوة !!..

« مثّل كل ذلك أمامنا دون أن يطرف له جفن كأنه يتدرب على مسرحية حميمة سيفتتحها غدا وسط تصفيق الجماهير الغفيرة !!!..

١١ – مَرْجَلَه

.. «العواف على الرجال ...

– أهلا خاله مسعدة ! جاء دورك !

– حضرت فى الوقت المناسب !

.. « مالكم ساكتين هكذا كأنكم فى مأتم ؟! يوه ! بسم الله الرحمن الرحيم . على كل حال اطمئنوا .. بغلة العرش تعرف سكتها وحدها .. هى ليست عبيطة لتفوت أمامكم على عينك ياتاجر .. عشمكم عشم إبليس فى الجنة .. ولكن من يعرف ؟ ربما رجع واحد منكم إلى داره فلقيها فى انتظاره ..

« ولكن لا ، ليكن فى معلومكم أن الله سبحانه وتعالى يلهم ...سه من أول الليل ، ...بقى البنى آدم شاعر بأنه يجب أن يلزم ...اره .. لابد أن الله يعطله عن الخروج بأى شكل ليكون فى ...ضاء البغلة عند وصولها سرا .. نعم ياأولاد ، إنها تأتى فى ...صر وبقدرة قادر لا يراها أحد .. أنا والله من ميتة بختى صرت ...الفرحة التى عليها البيضة .. لم أطق صبرا على القعود فى

حوش الدار ولو كانت البغلة من نصيبى لحببنى الله فى قعدة الحوش ، مع انى وحق النبى اشرف خليقة الله أستحق هذه البغلة من عمر طويل فات ...

« يوه ! من هذا ؟ الشيخ عبد المقصود ابو غلاب ؟ تَمسّى بالخير ياشيخ عبد المقصود. الله يحبنى لأنى رأيتك الآن .. أعوز منك جوابا على كلام فى دماغى .. أنت تعرفنى من زمن طويل .. فهل أنا أستحق البغلة أم تراها خسارة فى عظمى ؟.. طول عمرى أجرى على اليتامى .. زوجى عبد الرسول ابو شهبه مات وأنا فى عز شبابى .. ترك فى رقبتى زربة عيال : ست صبيان وخمس بنات .. الولد الكبير ياقلب امه اشتد حيله فخطفوه لحرب فلسطين فلم يعد .. قلت العوض على الله .. الولد الثانى فى كعبه، كان فى السويس يوم هجم علينا الإنجليز والفرنسويون فى بورسعيد ودارت الحرب فى البيوت وفى الشوارع بغطيان الحلل والمكانس ، فمات وانصهد قلبى عليه .. الولد الثالث كان يجرى على اليتامى ويتعلم فى البندر، فى الصبح تلميذ وبعد الظهر بياع فى محل، إنتظرته الحكومة اللعينة -- أشوف فيها يوم – حتى نجح فى الكلية ، فأخذته ورمت به فى العريش .. وكان الراديو يصيح ويغنى ويهيص ويحطب ، وفى الصبح طلع هذا كله فى الفاشوش وقالوا لنا : نكسه .. نكسه نكسه ولكن أين ولدى ؟ قالوا إنها نكسه لأن ولدك لن يعود .. بقيت البلدة شهوراً طويلة ترى كل يوم والثانى ولداً

يجئ حافيا مبهدل الثياب مفرهداً من الجرى فى الصحراء ، إلا ولدى لم يجئ حتى الساعة .. لفت الأيام وجاءت الحرب ثانية بعد أن لبس إبنى الرابع فى الجهادية بستة شهور .. وكنت أعرف أننى منكوبة منكوبة ، فكان الراديو يطلق الزغاريد ويقول انتصرنا باسم الله باسم الله وعبرنا باسم الله باسم الله ورفعنا العلم، طيب أين إبنى بعد مارفع محمد افندى العلم فى الراديو ؟.. روحى ياأيام تعالى ياأيام والحكومة لاحس ولا خبر . . وفى الآخر جاءونى به ياقلب أمه لا يدين . لا رجلين لكنهم دفعوا لى مبلغا زوجت به ثلاث بنات سترتهم بعون الله .. أما الولد ياقلب امه فلم تعجبه العيشة الكرب التى هو فيها .. حبة عين أمه كان فى العذاب ليل نهار، حقه خادم يجلس به وأنا شقيانه فى غيطان الخلق اشتغل باليومية والولدان الصغيران يشقيان أيضا، أحدهما مع هذا النجار الجالس معكم الآن ، والثانى مع محمود افندى خليفه يسرح له بالبهائم تطير اكله وشربه .. العاجز قرف من عيشته فمات .. أما الولد النجار فسافر إلى ليبيا تبع أحد المقاولين .. لا أعرف ماذا فعل به المقاول .. إنما هناك عيال من عزبة الحجر كانوا معه قالوا إن الولد امسكوه بشنطة تبع المقاول فحبسوه.. الولد الفلاح سمع أن العراق تطلب فلاحين تعطيهم أرضا يزرعونها وتصبح ملكهم، أخذ ذيله فى أسنانه وقال يافكيك .. كان يبعث لى بصوته فوق شريط لكنه سكت من يوم ماقامت الحرب فى العراق مع بلدة اسمها البصرة ..

« أنا أربى وأسمن والريح الكاسحة تقش .. ماتجمعه النملة فى سنين يأخذه الجمل فى خفه ويمشى .. الناس كلهم الآن باسم الله ماشاء الله فى عز ونغنغة إلا أنا أم الرجال ..هل كنت أخلف وأربى رجالا لكى آخذ فى النهاية خازوقاً اسمه معاش السادات ؟! .. عندى الآن عروسان لا أحد ينظر إليهما مع أنهما من جميلات البلد .. لكن منذ متى كان العرسان يسعون لمصاهرة أرملة لا وراءها ولا قدامها ؟!.. أنا والله وحق ذى الليلة ومساها متأكدة أننى أحق خلق الله ببغلة العرش .. إن كان على راس القتيل فإننى مستعدة أن اكون له أماً ، ربما لا أدفنه فى الزريبة كما يفعلون ، سأبنى له مقبرة تلمه فأنا أم انجبت الكثير من رءوس القتلى ويعلم الله فى أى مكان دفنت رءوسهم .. ولو جاءتنى البغلة فإنى والله مستعدة لبناء جامع محترم لأهل البلد بدلاً من هذه الجوامع الخربانة .. سوف أتصدق على كل محتاج .. أى عروس فقيرة الحال تجد عندى شوارها كاملا مكملا .. سأبنى لليتامى داراً كبيرة تأويهم وأترك فلوسا كثيرة تطعمهم وتكسوهم .. سأبنى مصانع يشتغل فيها المتخرجون من الكليات بدلاً من لطعتهم طول العمر بغير شغل مادامت الحكومة لم يعد لها شأن بالناس.. يقولون إن مصر مديونة ، والبلد فيها ألف مليون على داود ، ومثلهم ريان ، ولا واحد منهم يـ[illegible] فى عينيه حصوة ملح ويساعد هذه البلد بقرشين .. فلتجئ لى بغلة العرش وأنتم ترون .. نذراً على إن جاءتنى

لأسددن ديون مصر وحدى .. حبة عين أمها مصر طول عمرها منكوبة بالغز أو بالدين أو بمن يمسك لها العصا الغليظة .. اليوم هى منكوبة بأولادها الذين هم من أبناء الغزو البريطانى ومن تربيتهم لا أحد فيهم يحبها صدقوا خالتكم مسعدة .. الله يقيمها من حفرة ليوقعها فى دحديرة بسبب غباوة ناسها الأغنياء الذين يموتون على الدنيا ..

«الحكومة العبيطة تفتح باب التبرعات فلا يصدقها غير الغلابة الذين يتبرعون بثمن عشائهم فلا تستحى الحكومة فتأخذه تتاويه فى جوفها .. الحكومة أصلها من الأغنياء والأغنياء يوالسون على بعضهم . إبتلانا الله بحكومة تكره الفقراء وتحب الأغنياء كعينيها .. الفقراء أحباب الله طبعا ولكنى – أستغفر الله العظيم – لا أعرف لماذا وهو يحبهم يسلط عليهم شوارب العسكر وعصيهم ..

« لماذا أنت ساكت ياشيخ عبد المقصود ؟.. زمانك الآن تقول لنفسك : الولية جاءها لطف والعياذ بالله .. لا ياشيخ ، فأنا وحق رءوس أولادى التى تدحرجت على الرمال فأكلتها الصقور والغربان والذئاب أشعر اننى صديقة لله .. لا تنظروا لبعضكم هكذا فإنى لم أؤخر لنا واجبا أبداً .. لو أن واحدا منكم ضاع منه أصبع واحد لتاه صوابه مدى الحياة .. الدور والباقى على امرأة مثلى ضاع منى كل شئ فلم أزعل من ربنا أبداً ، لم اكشر فى وجهه .. كنت أقعد وحدى فى قاعة الفرن أبكى من كل عين

حفان، فيدخل القمر من الناروزة فى الشقف يقول لى : نشفى دموعك يامسعدة وتوضئى فإن الله قادم لزيارتك الآن.. فأقوم فى الحال أتوضأ ، أتربع فى انتظاره ، أقرأ الآيات فى الترحيب بمقدمه الجليل ، ماهى إلا شعرة من الوقت حتى أشعر أنى انتفض من الخوف اللذيذ، خوف العروس لحظة ينغلق الباب عليها مع عريسها لأول مرة، يغمرنى الهدوء والراحة ، ينزل القمر فيقعد أمامى فوق قبة الفرن،فأتأكد أن عباءة الله كالناموسية تنطرح على أنا وحدى ، أكاد أسمع أنفاسه جل شأنه يقول لى : لا تحزنى يامسعدة فالمؤمن مصاب دائما وحقك عندى لا يضيع أبداً .. أسمع فى الخلاء أصواتاً تناديه سبحانه صارخة : الله أكبر ، تتردد فى الخلاء متكررة متكاثرة فى مهرجان كأنه فرح لعرائس الجنة، فأعرف أن صلاة الفجر قد وجبت، فأنهض واقفة فى اتجاه القبله ، حين أسجد تحتوينى طيات ضوئه وحين أركع يلمس جبهتى طرف ردائه ، فحين أفرغ من ختام الصلاة أسمعه فى صدرى يرن قائلا : قومى يامسعدة شوفى شغلك ياست الستات ياأم الصبيان والبنات – ألف الطرحة حول رأسى وفوقها الحواية ومن فوقها البلاص، أجرى اتمخطر كالفتاة العذراء إلى الترعة فأملأه وأرجع أصبه فى الزير وأعود لأملأه من جديد ...

خمسة أدوار ، رايحه جايه ، فى الروحة الخامسة يلتقينى قرص الشمس على خد السكة البعيدة أحمر كرغيف طالع من

الفرن يحوطه الدخان ، فكأننى أكلته ساخنا بنار الفرن ، فإذا أنا صبية عفية تجدد فيها الشباب ... يمتلئ الزير ويبقى فى البلاص الأخير نصفه، أملأ به القلل .. أشمر ذراعى وأخذ الدار كنسا بالمقشة من أولها لآخرها ، بالمرة أكنس قدامها ، بالمرة ألم المواعين كلها فأدعكها بالتراب والماء ، ألم الهدوم فى طست الغسيل أمرشها وأشطفها وأنشرها على الحبل فى حوش الدار.. أمد الطبلية أضع فوقها الرغفان وطبق المش وأعواد الخس والجرجير وطبق بيض مقلى، أطلق سراح الفراخ فتملأ الدار أنسا وفرحا، ألم ماكان تحتها من بيض أجمعه حتى يمر تاجر البيض فيأخذه .. بعد الأكل نحمد الله ويتوكل كل واحد منا إلى حال سبيله .. أكون أول واحدة من الأنفار تصل إلى الملم.. أعود والشمس مروحة تعافى حوش الدار بالعافية تلف وجهها بشالها الأحمر الذى تركته فى حوش دارى حين تدخله فى الصباح .. فلما أراها لا ينهد حيلها أبداً ، أقول لنفسى أجمدى يابنت يامسعدة أنت الأخرى لا تشمتى فيك العوازل ، الله جاب، الله أخذ، الله عليه العوض ..

«إنما أريد أن أسألك ياشيخ عبد المقصود بما أنك تحمل كتاب الله على صدرك : ماالحكمة فى أن بغلة العرش لا تجئ إلا لنلس تعرف أنهم أضل خلق الله وأوسخهم ؟! ماالحكمة أن الله سبحانه وتعالى يزيد الأغنياء غنى والفقراء فقراً ؟! أنا بعقلى البسيط أقول إن الله يزين لهم الدنيا ليزداد فسقهم وفحشهم ليكون

عقابهم يوم القيامة شديدا مرعبا، ويزين للفقراء الفقر حتى تظهر نياتهم الطيبة وأعمالهم الصالحة ليكون جزاؤهم يوم القيامة جنات تجرى من تحتها الأنهار.. أظن يامولانا أنك توافقنى على هذا الكلام، لكن الذى يحيرنى ولا أفهمه أن البغلة تجئ أحيانا لناس طيبين يعرفون الله ويؤدون فرضه، فما الحكمة ياترى ؟.. هل أكون على صواب إذا قلت إن الله يختبر عباده هؤلاء فيعطيهم الفلوس بغير حساب ليرى هل تنسيهم الفلوس أنفسهم فيتجبروا ؟! المصيبة ياجدعان أننى عمرى مارأيت غنيا فى قلبه تقوى الله أبداً .. أعرف أن ربك رب قلوب وهو وحده يعرف القلوب الطيبة من القلوب الخبيثة ولكنى أشهد الشهادة لله أن كثيرين ممن يتظاهرون بالإيمان والتقوى فى هذه الأيام تظهر منهم أفعال يخاف أن يفعلها الكفار وقطاع الطرق .. أستغفر الله .. أستغفر الله .. اللهم اغفر لى ذنبى ..

« مالكم لا تنطقون ؟! حالكم هكذا لا يسر .. أنتم بمنظركم هذا تخيفون البغلة ، ترصدونها، فهى الآن لابد أن تحول طريقها إلى طريق لا تعرفونها .. إلى دارى مثلا .. وأنا كام لكم انصحكم بأن تفضوها سيرة فيذهب كل منكم إلى داره، لأنكم الآن تغضبون الله الذى يريد أن يرسل هديته لعبده الموعود فى السر والكتمان .. وعلى فكرة ، الآن فحسب أشعر أنى يجب أن أعود إلى الدار .. اللهم لا حول ولا قوة إلا بالله .. ماهذه اللهفة على الدار التى لبستنى فجأة ؟! .. اللهم خير .. أفوتكم بعافيه » ..

١٢- دَهْوَلَهْ

..« امر الآن بالصدفة خلّوا بالكم ..

« نعم ! هى الصدفة وحدها دحرجتنى من فوق السرير ضائقا كربانا لا أعرف علام الضيق والكرب فى ليلة مفترجة كليلتنا هذه، لكنه الكابوس ، عليه اللعنة ؛ دائما يركب فوق انفاسى فى مثل هذه الليلة ؛ يتوهنى شرقا وغربا يطلع بى من حفرة إلى دحديرة يرينى مالا أستطيع تصور رؤيته ..

« الكابوس اللعين يجيئنى فى صور وأشكال كثيرة يتفنن فى تغييرها لكى يرعبنى أكثر مما أنا مرتعب. يدخل بى فى متاهات مخيفة وسراديب مرعبة ولا أدرى لماذا يتسلط على وحدى دون خلق الله . الناس ترى الكابوس مرة كل حين ، إذا أكلوا وناموا بالتخمة مثلا أو ناموا بعد سهر ليال طويلة مرهقة . أما أنا فإنه يجيئنى عمال على بطال. الأعجب من مجيئه أن الناس لا ترى الكابوس إلا إذا نامت ؛ أما أنا فإنه يركبنى وأنا صاح ، وأنا ماش؛ حتى كرهت التمدد فى الفراش فيروح الملعون يتحايل على،

يسرح بعقلى حتّى يخدره ، يغمض لى عينى حتى وأنا أتفرج على التليفزيون فى السهرة الممتعة قبل السحور . هُبّ ؛ إذا بى أرى نفسى فى قلب الفزع المفاجئ . فبينما أكون متربعا وسط العيال امام التليفزيون إذا برأسى - كما يقول العيال - قد انكفأت على صدرى ؛ وإذا بى أطلق صراخا كصراخ الأطفال المفزعين ؛ ففى الحال تمتد يد أحدهم لتهزنى فى رفق. أرفع راسى، أشهق، استعيذ بالله من الشيطان الرجيم، امسح الريالة عن حنكى المفتوح ذهولا مما رأيته فى لمحة خاطفة لا تزيد عن ربع ثانية من الزمن؛ فيها يتهيأ لى أننى نائم فوق سريرى المواجه لباب القاعة ؛ فما نظرت إلى باب القاعة حتى رأيت قاتما يزحف نحوه ثم يسده ثم يظهر من خلفه شبح عملاق ضخم الجثة يغوص دماغه فى سقف الباب يتقمط بسراويل ملفوفة حول ساقيه كالعسكرى السوارى يمد ساقه من على عتبة القاعة فيركن ركبته على حافة السرير ويمد ذراعه نحو صدرى يريد أن يملس عليه بكفه ؛ فإذا أنا قد صرت تحت جبال ثقيلة أحاول تحريك أى عضو من أعضائى فلا أقدر، حتى صراخى يبدو لى كأنه غير قادر على الخروج من حلقى ..

« مناماتى مشهورة عندكم؛ فكل من رأيته فى المنام فى مثل هذه الليلة من الأعوام الفائتة جاءته بغلة العرش فى الصباح . لست محتاجا لأن أذكركم بكل المنامات التى حكيتها لكم فى

هذه القعدة نفسها. يكفى أن أذكركم بمنام العام الفائت : بكرى خليفه كان مساعدى فى شغل البناء؛ كنت احسن إليه بالعمل لاحتياج أهله للقرش اما هو فلم يكن يستأهل الخدمة؛ فشغله كروته، لاذمة ولا صنعة ، يسرق الكحل من العين، يكذب، ينم ، لا يعرف ربنا، يبحلق فى الرزق بعين صفراوية ، يقول ببجاحة : انت قبضت من الزبون كذا فأعطنى كذا .. المهم أننى ضقت به؛ صرت أعطيه الطرشاء إذا تحدث والعوراء إذا تمنظر. يومها كنا نبنى جداراً واقعا من مدرسة البلد؛ حضرة الناظر لمح لى - أمامه - أن العملية خدمة للمدرسة يعنى لن نقبض سوى أجر يوم واحد حتى لو امتد العمل ليومين ثلاثة. لو كان الود ودى لما أخذت أجراً ، ولشتريت الطوب والأسمنت على حسابى إكراما لخاطر المدرسة التى تعلمنا فيها القراءة الرشيدة ؛ لكننى طلبت أجر يوم لكى أعطيه لبكرى خليفه أسد به عينه الفارغة؛ مع أن وقفته قصادى على الجدار لا تريحنى بل تتعبنى ؛ فكل طوبة يضعها لابد ن أراقبها فأجدنى مضطرا دائما لعدلها وضربها بالمسطرين ضربة واحدة تثبتها . حضرته جعل يبرطم بكلام فهمت منه أنه ليس له دعوة بالمدرسة يعنى يريد أجرا مضاعفا؛ لحظتها مددت يدى فسحبت المسطرين من يده وقلت له : إتكل على الله ليس لك شغل عندى . فمضى لحال سبيله وأكملت الشغل وحدى فما دخل المغرب إلا وكان الجدار بعون الله كاملا

على الآخر. مرت الأيام فنسيته، خاصة انه اختفى من البلد. فلما خلصت حرب اكتوبر وانتهى محمداً افندى من رفع العلم إنقلبت الأحوال فى البر المصرى كله؛ إذ قال الرئيس السادات لا حرب بعد اليوم ، واصطلح مع اسرائيل وحده ، وجعل مدينة بورسعيد الباسلة مفتوحة لتجار العالم؛ فكل العاطلين من بلدتنا اصبحوا يسافرون إلى بورسعيد لتهريب البضايع وبيعها فى السوق السوداء. صرت أسمع كل يوم ان بكرى خليفه يبيع كذا وكذا : الملابس المستوردة، أطقم الصينى للعرائس ، المسجلات ، شرائط الفيديو ؛ أصبح اسمه على لسان فى كل دار؛ فهو يجيئك بالبضاعة لحد الدار فيأخذ مامعك والباقى تدفعه على مهلك. وذات ليلة فيما أنا متمدد فى حوش الدار مستغرقا فى النوم، رايت كأنني أمشى فى جهة العكايشة بجوار دار النصارى؛ وقد خيل لى أننى مكلف بترميم دار النصارى هذه؛ فكنت ارفع رأسى إلى السماء ناظرا فى أعلى الجدار فأكاد انطرح على ظهرى من شدة ارتفاعه بعلو سبعة أدوار. كذلك كان يخيل لى أن بكرى خليفة لا يزال يشتغل معى، وانه واقف بجوارى فى انتظار أوامرى؛ فناديته لأسأله عن كيفية فتح بوابة الدار الكبيرة الغاطسة فى الأرض لم تنفتح منذ مئة عام. ما دريت الا وبكرى قد تقدم وصار يمشي فوق الجدار كالقطة ؛ حيثه واقف ؛ كان فى الجدار درجات سلم خفية غير مرئية إلا لقدميه وحده. رقبتى

الروع، فيما هو مستمر فى الصعود بخفة الريشة، حتى صار فى الأعلى مجرد ظل كعقلة الأصبع. صرت أنادى عليه أستعطفه لينزل قبل أن تنكسر رقبته؛ لكن صوتى لم يكن يبلغه فى علوه. قلت فلأجرب الصعود إليه مثله؛ صرت أتشعبط فى حديد الشباك، اشبك أصابع قدمى فى نتوءات الخشب؛ فلا أصعد خطوة إلا واسقط فى الحال تتكسر غظامى فى الأرض. صحوت على نفسى أصرخ من شدة الألم . وفى الصباح سمعت أن بغلة العرش جاءت بالأمس لبكرى خليفه؛ وفى اعتقادى انها جاءت إليه فى اللحظة التى كان يصعد فيها على الجدار بغير درج أو مَسَّاكات. دليل ذلك- فيما لعلكم تتذكرون - أنه فى الصباح اشترى دار النصارى هذه نفسها - إشتراها من صحابها الذين لا نعرف لهم مكانا. ظننتها إشاعة من الإشاعات التى تملأ البلد كلى يوم؛ فدار النصارى هذه لا احد يستطيع شراءها لأن ثمنها اكبر من كل الفلوس الموجودة فى بلدتنا والبلاد المجاورة. لكنه اشتراها وطلع مكانها بخمس عمارات بنفس طوبها القديم وريع أخشابها الفرش الذى كان فيها وحده يساوى الملايين من سجاجيد وسراير وسفرة وغرف نوم وستائر من الجوخ وتماثيل من المرمر والرخام والفضة كل هذا أخذه لنفسه وفرش به سرايته التى بناها فى مدخل البلد لزوجة من البندر ..

« الليلة عرفت لمن ستجئ البغلة بعد قليل : وغدا ؟؟

محمد داوود البنا قد قالها بمنامه الذى لا يخيب أبداً ..

« ستجئ البغلة الليلة لمحمد افندى ريشه، المدرس بمدرسة عبد الله نديم الثانوية. هكذا يقول لكم منام محمد داوود البنا. لا تضحكوا ياناس. فأنا الذى بشرتكم بمجيئها لأخى الحاج على داوود، ولبكرى خليفه وغيرهما. محمد افندى ريشه أطيب مخلوق شفته فى حياتى. داره جنب دارى وأعرف داخلياته كما يعرف داخلياتى. عمره ماأعطى درسا بفلوس؛ عمره ماأضطهد تلميذا حتى الذين يعاكسونه لطيبته. المدرسة قائمة عليه وحده. أليس هو الذى سعى لإنشائها ؟ أليس هو الذى أسسها من الباب إلى الكرسى؟ التبرعات التى جمعها من الأهالى لم يمسكها بيديه؛ كانت توضع فى البنك باسم وزارة التربية والتعليم. كلكم تذكرون المشقة التى احتملها يوم كان يمر على الناس فى الدور ليقنعهم بضرورة التبرع ، ياما تعرض للإهانة والهزء والسخرية من الذين لا يحبون المدارس؛ لكنه احتمل ، ويوم افتتاح المدرسة كان أسعد مخلوق فى الدنيا؛ يقول إن بلدتنا بهذه المدرسة أصبحت مدينة محترمة؛ وأن تعب الأولاد قد انتهى فلا سفر بعد اليوم ولا اغتراب فى البندر من أجل التعليم؛ غدا يصبح الأولاد تحت عين أهاليهم؛ ولا يصبح هناك خوف من سفر البنات. هذا على الرغم من أنه ليس عنده أولاد؛ لم يرزقه الله من صلبه لكن رزقه بمئات من أصلابنا نحن؛ يحبهم كأن

دمه فى عروقهم؛ يحنو عليهم؛ يشترى الكراريس والكتب لمن يعرف أنهم غير قادرين على شرائها. يستطيع أى واحد من الأفندية المحترمين الجالسين معنا الآن أن يحكى لنا فضله عليه وعلى جيلهم كله. لم يكن فى بلدتنا سوى المدرسة الإلزامية؛ فظل ريشه افندى يساوم مرشحى الدائرة حتى أخذ حق البلدة فى مدرسة إبتدائية. على أيامنا كان الولاد يسافرون إلى مدينة دسوق للحصول على الشهادة الابتدائية بعد أربع سنوات من الغلب. حضرة الدكتور وحضرة الصحافى وحضرة الشاعر جعفر وحضرة الباشمهندس كل هؤلاء الأكابر كانوا أول دفعة تأخذ الشهادة الابتدائية من بلدتنا. لا أنسى فرحة ريشه أفندى بهذا الموضوع ؛ أمسك الدفعة من أول العام كمدرب الكرة يستعد لمباراة دولية. قولوا ياأساتذة كيف كان لا يعرف الإجازة حتى يوم الجمعة؛ كيف يتسلمكم من أول النهار حتى مدخل الليل يسقيكم العلم بالملعقة فى صبر أيوب؛ كيف كان لا يكتفى بهذا بل يفوت عليكم فى البيوت واحداً بعد واحد ليطمئن إلى أنكم تذاكرون دروسه بجد واجتهاد. كان يشتم الواحد منكم أمام والديه بأشنع الألفاظ، أجعص مافيكم فى نظره- عدم المؤاخذة - كلب ابن كلب إذا ضبطه يلعب أو يذاكر فى غباء. أب الواحد منكم كان يفرح بالشتمة لأنه يثق فى نتيجتها المضمونة. إذا شعر أن الواحد منكم ليس فى داره شاى يصحصحه بعث بورقة

صغيرة إلى البقال الذى يجر منه – وتجر منه عائلته كلها – على حساب مرتبه؛ يشترى الشاى والسكر لكم. الكتاب الواحد يصلح لاثنين وثلاثة ليس فى قدرتهم شراءه. واحد منكم – لا داعى لذكر اسمه الآن فإنه معروف لكم – كان يساعد أهله بالشغل فى الوسية بستة قروش فى اليوم وأهله غير مرحبين بمسألة حصول ابنهم على الشهادة الإبتدائية هذه مع أن الولد من النوابغ فى الدفعه – ريشه افندى، الذى لا يقبض مرتبه أبدا لم يخلصه حرمان الولد من الشهادة وهو يستحقها. فكم يبلغ الأجر الذى سيقبضه الولد من الوسية طوال أشهر الدراسة يافلان ؟ كذا ، سأدفعه لك، وفعلا، باع ريشه أفندى أردبين من قمح الدار من خزين إخوته الفلاحين ؛ دفع ثمنهما للرجل حتى لا يمنع ابنه عن حضور الدرس...

« يوم الإمتحان كان مشهوداً فى البلدة. قبله بجمعة سافر ريشه افندى إلى بلدة دسوق فأتى بأرقام الجلوس وعرف موقع اللجنة؛ وحجز للأولاد جناحاً كاملا فى لوكاندة ينى ؛ وقطع تذاكر السفر. ولما كان يعرف أن نفقات السفر والإقامة فوق احتمال بعض تلاميذه الفقراء فإنه قد فات على مجموعة من أعيان البلدة وطالبهم بأداء الواجب : إحناف ديك الساعة لمأ ولادنا تأخذ الشهادة الإبتدائية من مدرسة البلد ؟ دى مناسبة حلاوتها كبيرة قوى ياجماعه. جمع منهم بضع جنيهات وأكمل الباقى من

جيب الآباء الميسورين . قبل الإمتحان بيومين طلعت ركائب البلدة تحمل عشرين تلميذاً يتقدمهم ريشه أفندى إلى محطة القطار. وفى صالة اللوكاندة أقام فصلا دراسياً راجع فيه المواد ؛ ثم ساق الأولاد إلى أسرتهم فى التاسعة مساءً ؛ كى يستيقظوا فى تمام الخامسة صباحا لمراجعة مواد اليوم الأول فى صورة امتحان صورى .

فى السابعة يتناول الأولاد فطورهم وشايهم ويتوجهوا بصحبته إلى اللجنة وكل المواد مضيئة فى أذهانهم. عند عودتهم يراجع إجابات كل منهم على حدة ؛ ثم يبدأ مراجعة مواد اليوم التالى. نتيجة الإمتحان ماثلة أمامكم الآن فى طبيب وشاعر مهندس وصحفى إضافة إلى ضباط ومعلمين وأساتذة جامعات يعيشون فى بلاد الفرنجة. كل الدفعة نجحت بتفوق فكان منهم الأول والثالث والخامس على المحافظة كلها..

« ريشه افندى قام بنفس الجهود لافتتاح مدرسة إعدادية، ثم مدرسة ثانوية ، ومعهد دينى، حتى تركيب عواميد النور، ومواسير المياه المكررة، و[illegible] خط اتوبيس إلى البلد .. الحق أننا إن ذكرنا أى شئ مهم فى بلدتنا سنجد أن ريشه افندى هو أول من فكر فيه، وأول من جمع التبرعات له ؛ وهو الوحيد الذى يسافر كل يوم والثانى لمقابلة المسئولين والسعى وراء طلبات وتحريك أوراق. كان أبرز واحد فى جيله من الخمسة الذين

تعلموا فى بلدتنا. كان كأنه الإبن الوحيد للبلد، المسئول عنها، يتمنى أن يغمض عينيه ويفتحهما فيجد البلدة تلعلع فيها الأنوار وكل أهلها متعلمين. هو الآن محال على المعاش منذ سنوات رغم أن صحته باسم الله ماشاء الله جيدة؛ فمن كان يراه فى شبابه يجعر ويصرخ وينشال وينحط فى الفصل. ينبح من صدره طول النهار يتصور أن هذا الرجل سيموت ناقص عمر . تشاء الظروف العجيبة أن يبقى ريشه افندى كما هو بصحته؛ وأن تموت زوجه بنت بنت خالته، وأن يوصيه أهله بالبحث عن زوج تخدمه بقية عمره؛ وأن الأرملة ذات الثلاثين عاما التى اختاروها له تملأ له الدار عيالا. شوفوا عجايب الزمن : الرجل بعد إحالته إلى المعاش وانتهاء عمره الإفتراضى كما يقول أبناء هذه الأيام يتضح أن العيب فى عدم الخلفه كان فى زوجه فإذا به يبدأ الحياة من أول وجديد؛ وإذا بمعاشه الضئيل لا يكفيه وحده وهو مدخنة سجائر ، فيبدأ يعيش على مساعدات من إخوته الفلاحين الذين سبق أن عاشوا على مرتبه كمصروف يد لهم جميعا. أولاد الحلال تعبوا من محاولة إقناعه بإعطاء الدروس الخصوصية ؛ لم يقبل أى أجر من أى أحد مهما كان أبوه ثريا، حتى الهدايا لا يقبلها؛ ويقول دائما إن العلم فيض من الله يسبغه على من يشاء فلا يصح المتاجرة بفيض الله؛ ويقول أيضا إن التعليم واجب وطنى مقدس فلا يصح أن يؤجر المواطن

على مواطنته. وهاهو ذا على عتبة السبعين من عمره ومع ذلك لا يهمد ، لا يكل ، يبحث عن أى شئ مفيد للبلد كى يشغل نفسه به. وحينما طلبت الحكومة من الشعب التبرع لتسديد ديون مصر ثار الناس كلهم قالوا لا نسدد له ديونا لا نعرف عنها شيئا ولم يستفد بها سوى تجار السلاح وسماسرة الإنفتاح. اما هو فكان أول المتبرعين، إستغنى عن يوم من معاشه الضئيل؛ وقف على منبر الجامع وقال لا يصح أن نأخذ الوطن بجريرة فئة من اللصوص والمجرمين ..

« إننى كلما رايته الآن يتقطع قلبى : كيف يعيش والأسعار ترتفع إلى نار جهنم الحمراء والناس ينضربون بالصرم القديمة صبح مساء من كل بياع صايع ولا يتكلمون. أذل الحرص أعناق الرجال كما كان ريشه افندى يقول فى الفصل للعيال. المسكين حرم نفسه من السجائر والشاى؛ ولولا أن جميع المدارس المطلوبة موجودة فى البلدة بمجهوده ماوجد أولاده فرصة للتعليم..

« نعم ساقول لكم المنام الذى رايته الليلة قبل دقائق من مجيئى إليكم . بينى وبينكم أنا مقتنع مقدما أن بغلة العرش لا تجئ للناس الطيبين وهذه حكمة يعلمها الله وحده ولا نستطيع نحن تفسيرها ؛ فربما كان الصالحون فى نظرنا فاسدين فى نظره سبحانه وتعالى، حتى وإن التزموا بأداء الفروض والسنن

والنوافل.

ولكن من يدرى ؟ فلربما كان محمد افندى ريشه صالحا مائه فى المائه فى نظر الله مثلما فى أنظارنا نحن عباده الذين لا حول لنا ولا قوة..

« رايت خيرا بالصلاة على النبى.. كنت ماشيا على شاطئ قناة أشبه بقناة القطان متاخمة للبلدة لكنها مليئة بالمياه الصافية وعلى جانبيها أشجار التوت والجميز والليمون وذقن الباشا. كنت أمسك بالمسطرين والدقماق فى يدى مما يدل على أننى كنت ذاهبا إلى شغل فى مكان حلو جميل والشغل فيه محبب للنفس. طال بى المشى حتى رأيتنى أدخل فى جنينة أشبه بجنينة العبد شتا لكنها منظمة ومتناسقة كجناين الملوك . شئ فى صدرى قال لى لعلها الجنة؛ فمشيت على أرض مروية موحلة لكن الوحل مع ذلك لم يكن يعلق بقدمى. وإذا بى أرى محمد افندى ريشه يظهر من ممر شجرى جانبى؛ فيمضى محودا إلى اليمين دون أن يرانى ؛ فمضيت وراءه بغير قصد؛ فرأيت أشياء تتساقط من عباءة كان يلبسها فأسرعت بالتقاطها؛ فإذا هى جواهر ولآلئ وأحجار كريمة؛ تتساقط بغزارة حتى اننى لم أستطيع ملاحقته فى التقاطها ؛ فأخذت أصبح به أنبهه إلى مايقع منه؛ لكنه لم يكن يسمعنى؛ حتى انتهى صف الأشجار فظهر قرص الشمس متوهجا كركية النار؛ وكان هو يمضى نحوها مقتربا منها وأنا من خلفه أصبح به بكل مافى حنجرتى من قوة؛ إلا أنه كلما اقترب من قرص الشمس يتضح أن نارها لم تكن لهيبا بل كانت نورا كالكهارب الساطعة ؛ وإذ بريشه افندى يدخل فيها ويختفى. فلما حاولت الإسراع للحاق به كان الضوء الساطع القوى يكاد يعمينى فلا أرى سوى الشعاع يملأ ناظرى؛ وإذا بأيد خفية لا أراها تشدنى من كل ناحية فيما رحت أصرخ وأصبح طلبا للنجدة ؛ حتى أيقظتنى أبنتى عائشة بهزة قوية. فلما صحوت تذكرت انها ليلة القدر؛ وكان الضوء الساطع الذى رأيته فى المنام لا يزال فى عينى المغمضتين يضئ عتمة الحوش. فتذكرت قعدتكم هذه، فطسَسْتُ وجهى بحفنة ماء، وبرمت سيجارة؛ على أنفاسها قلبت النظر فى المنام؛ وقلت لنفسى : لعل البغلة قادمة إليك أنت ياولد، فالمنام لك وليس لريشه افندى، وماهذه الجواهر والأحجار الكريمة التى تساقطت منه إلا خير سينالك؛ فابق فى الدار ياولد لعلها فى الطريق إليك الآن. غير اننى - والكذب خيبة -تذكرت أننى لست واثقا من صلاحى فى نظره سبحانه وتعالى. وقلت لنفسى : اللى من نصيبك يصيبك؛ ونفضت نفسى والفرح يشملنى كأننى سألتقى البغلة فى طريقها إلى دار ريشه افندى. ويخيل لى أننى لو قابلتها فعلا قاصدة الطريق إلى دارى، فلسوف اقتادها - تلقائيا - إلى دار ريشه افندى؛ إلا أن تحرن هى فتقودنى بنفسها إلى دارى ».

الهزيع الأخير

البُهْتَانْ

بُهت الذى كفر !

ران على الجميع صمت حاد مشئ بالترقب الصامت. نكس الجميع رءوسهم على صدورهم وبدوا جميعا كأن كل واحد منهم جزيرة منفصلة قائمة بذاتها؛ كل واحد يسبح فى ملكوت خاص به، كقعدات الحشيش حينما تدور جميع الأدمغة ممتلئة بالخدر اللذيذ؛ الذى يهيئ لكل منهم انفراده ويعزله عن الآخرين رغم تجاورهم. بدت على وجوههم تعاسة كبيرة عميقة.

كان من الواضح أنهم جميعا وبلا استثناء يقاومون حالة واضحة من الإحباط المشوب بغيظ دفين وحقد لا تدرى لمن هو موجه على وجه التحديد. يكاد كل منهم يصيح قائلا : متى تنتهى هذه اللعبة ؟! متى تجئ البغلة وتخلصنا ؟!.

شئ من الثقة كان يداخلنى بأنهم جميعا قد سلموا بأنهم ليسوا من الذين يمكن أن تجيئهم البغلة ؛ هم ليسوا من أهلها، لكنهم جميعا يتمنون مجيئها لأى أحد؛ المهم أن يروها رؤية العين، بل إن كل واحد منهم مستعد لأن يباركها ويحرسها إلى

أن تصل لدار المدعود ؛ هو - فحسب - يتمنى أن يراها شخصيا ؛ بدلا من رؤيتها بعد ذلك فى مظاهر الثراء الفاحش التى تحط فجاة على ناس لم يكن ليتوقع أحد أن تصيبهم الثروة من أى مصدر.

المياه فى ترعة السلموئية كانت راكدة، مربدة، تنعكس فيها النجيمات كرءوس الدبابيس المضيئة فوق لوحة من القطيفة السوداء. صديقى الشاعر جعفر العطار كان مستندا بكوعه على إفريز القنطرة التى يتوسطها الباب الحديدى المغلق المحتجز خلفه المياه عن الترعة الصغيرة المتفرعة من السلمونية فى شكل صليبى؛ تمتد أمامنا كجرح عظيم الحجم متورم الشفرتين بقروح سوداء؛ ومبنى الوحدة الصحية المتناثرة قاعاتها ووحداتها على اتساع ثلاثة أفدنة ؛ يمتد أمام سورها براح واسع يفصلها عن الطريق الزراعى الضيق المحاذى للترعة الفرعية الماضية فى سفر أزلى طوله سبعين كيلو مترا تتصل فى نهايتها بمصرف نشرت؛ وسط أخطاط من أشجار الجزورين والسنط والكافور والصفصاف تحدد أرض وسية الملكة نازلى هانم التى وزعت أخيرا على الفلاحين فصبوا عدوانهم الغريب على هذه الأشجار فبدأوا فى تقطيعها كلما احتاجوا لتسقيف العشش والأكواخ.

فى هذه الإتجاه كانت نظرات الشاعر شاردة ؛ كأنه مقتنع

بأن البغلة - إن كانت تجئ فعلاً - فإنها لا بد قادمة من هذا الطريق ربما لأنه طريق حافل بالخرافات والأساطير بفعل الرهبة التى تلقيها عليه غابات الأشجار المتصلة إلى مالا نهاية ؛ وبحكم أنه يغوص فى مجاهل من بلدان وعزب وكفور اشتهرت بخشونه الطبع والجسارة ؛ وربما لأن كل المصائب التى غزت بلدتنا جاءت من هذا الطريق ؛ إبتداء من حملة الجنرال مينو الفرنسية ؛ إلى عسكر السلطان القادمين لاستلاب الرجال للشغل فى السخرة؛ إلى رجال التفتيش الذين طالما جاءوا لتحصيل الضرائب والمكوس والاتاوات؛ إلى كل ذلك فجميع قطاع الطرق وأولاد الليل يتخذون من هذا الجيب السحرى الطويل مكمنا لهم.

الشيخ عبد المقصود ابو غلاب كان إلى جوارى فوق الطابية الدائرية التى لم تتسع للجميع فتقرفص الكثيرون على الأرض فى مواجهتنا كمن جلسوا لقضاء حاجة، والسجائر تفرقع فى أفواههم بغزارة وشراهة قبل أن يدركهم الإمساك . أما المهندس عدلى فقد ركن دراجته بجوار الطابية وبقى جالسا فيها . وكان الشيخ ابو غلاب قد بقى منكس الرأس منغمسا فى تحريك مسبحته وشفتاه لا تكفان عن التمتمة الهامسة. إستغرق محمد داوود البنا فى لف سيجارة وعينه مرسلة إلى يمينه على الطريق الزراعى الممهد العريض الممتد إلى محطة القطار مارا بعزبة

الحجر وبلدة قزمان ؛ طريق تقطعه الركوبة فى نصف ساعة إلى المحطة لنركب منها يمينا إلى دسوق أو شمالا إلا قلين وكفر الشيخ وطنطا ؛ وهو طريق آمن لخلوه من الأشجار ، وامتلائه بالسيارات ليل نهار؛ ولأنه الطريق المؤدى إلى المدينة فكل الأخبار المفرحة مرتبطة به؛ ولابد أن البغلة هى الأخرى ستجئ منه . هنا ماحسست أن يكون دائرا بخلد البنا، الذى ارتبط بمقدم البغلة ارتباطا وجدانيا وثيقا. أما عدلى، الذى كنت مشفقا عليه بشكل مؤلم جداً؛ فكان مندمجا فى تفكير عميق، وفى حال من الكدر والحزن جعلت ملامح وجهة تتورم وتزداد كثافة. فيما عدا ذلك فقد كان الباقون يتطلعون بعيون زائغة حائرة قلقة فى كل اتجاه، يبحلقون فى كل شبح يظهر من بعيد. بعضهم كان يقف ويتحرك مائلا برأسه هنا وهناك مدققاً فى كتل من الظلال تهتز هنا أو هاهنا.

العيون القلقة المفنجلة المصرة على استيضاح الرؤية تمكنت من ترقيق عباءة الظلام وتَخَلُّلها وتوسيع ثقوبها ثم صارت تسلخ عن جلد الليل غلالة فى أثر غلالة. وكانت السماء كمظلة من قماش البيسة الزرقاء كدخان سيجارة خرافية فى يد ملك أسطورى من ملوك الجن يتكئ على أريكة السحاب المبيض قليلا كلون بياضات الكنب. صوت الإبتهالات يأتى من كل مكان فى نواح موجع للقلب. عندئذ نهض الشيخ عبد المقصود متمنيا

لنا صبحا خيرا، ومضى نحو اليسار على وصلة الطريق الزراعى الموصلة إلى مدخل البلدة، يتوكأ على العصا فى تؤدة وهدوء.

تبعه محمد داوود البنا يتطوح عوده الطويل كالنخلة الهرمة العجفاء ؛ ثم التفت نحونا مشوحا بذراعه المعروقة :

– « أنتم شهود على أننى بشرت بالبغلة لريشه افندى ! لأننى فى الصبح ساطلب منه الحلاوة ! لن أطلب اكثر من مصاريف الحج ! هذه هى أمنيتى الوحيدة الآن ! أخى الحاج على يحج كل عام ويضن على ولو بسبحة او طاقية من جوار النبى بفلوسه فقلبى ليس راضيا عنه إلى يوم القيامة ! أنا الذى ربيته ونجرته وحينما جاءته البغلة قطع علاقته بى وبأولادى مع اننى كنت اتمشم ان يخطب ابنتى عائشة لابنه !! المقصود ! سلموالى على البغلة وقولوا لها إننى أصبحت مرسالها فى البلد فمتى تضعنى فى برنامجها ؟!»

ثم بدءوا فى الإنصراف واحد بعد الآخر ؛ فى طقس غاية فى الغرابة ؛ إذ يعلن الواحد منهم أن موعد انصرافه قد حان ؛ لكنه يختلق موضوعاً للحديث يتلكأ عنده دقائق طويلة يكاد ينتزع خلالها الردود من الأفواه لولا أن الجميع فى حال من الشرود مشوب بكثير من القلق؛ قلق يعلن عن نفسه بوضوح كلما شرع واحد فى الإنصراف ؛ فكأن انصراف الغير يعنى أن الأمر

قد انتهى، كأنه إعلان بانفضاض سامر البغلة واعتراف ضمنى بأنها لن تجئ أو لعلها قد جاءت بالفعل من طريق خفى وذهبت إلى صاحب النصيب يشرد الجميع عن الإنتباه لأى كلام؛ لأن الجميع قد استنفدوا كل طاقتهم فى الإنتظار والقلق والتحرق لمجئ البغلة. فى نفس الوقت يتضح على وجوههم شعور بعدم الترحيب بانصراف أحدهم حتى يظل الأمل قائما ببقاء هذ القعدة منتصبة. يناقضه شعور أكثر عمقا وأكثر خفاءاً فلا يسفر عن نفسه إلا فى لمحات عابرة سريعة تكشف أن كل واحد كان يتمنى الإنفراد بهذه الطابية فى هذه اللحظة فلربما يكون هو صاحب الوعد السعيد. كان الواحد منهم إذا ماشرع فى الإنصراف بالفعل فإنه يتمطى واقفا فى تكاسل وبلادة؛ ثم يتمطع ويتلوى كأنه فى حلقه ذكر، يطقطق أطرافه متثائبا فى عواء كزفرة حيوان تعيس مكبوت الألم، ثم يسحب علبة الدخان من جيب الصديرى فيبرم سيجارة على عجل، يشعلها، يشد بضعة أنفاس متلاحقة، يتلفت حواليه مرسلا البصر فى كل طريق على حدة، فى تدقيق وتمعن شديدين كأنه يتملى من الطرقات بالنظرة الأخيرة؛ كأنه يريد أن يرى ماسيحدث فى غيبته؛ وأخيرا يمضى بخطوات بطيئة بليدة.

لم يبق على الطابية سوى عبد العال وعدلى وجعفر وأنا .. وبدا كأننا فى انتظار هذه اللحظة التى تنفرد فيها بأنفسنا ذلك

الإنفراد الحميم الذى تغذيه لغة مشتركة وذكريات متقاربة. أخذنا راحتنا فتربعنا؛ إحلو الحديث بصورة ممتعة ، لدرجة أن عدلى نسى أوجاعه مما حدث له اليوم من زلزلة رهيبة؛ فراح يتكلم فى الأدب ، وفى الأوضاع الإقتصادية للبلاد، وفى مسرحية اللعبة الحزبية التى تلعب دورا فى التكريس للقهر والتخلف والطغيان.

فجأة سأله عبد العال بشكل ساذج لكنه غاية فى البراءة :

- « بهذه المناسبة ياباشمهندس ! مارأيك فى انهيار الإتحاد السوفيتى ؟ هل يعنى ذلك سقوط الماركسية اللبينينية إلى الأبد كما قال الدكتور أحمد كمال ابو المجد فى برنامج زيارة لمكتبة فلان ؟

لوى عدلى حاجبيه فى كآبة. رد بصوت فيه الكثير من المرارة والشعور بالضياع :

- « لم أكن شيوعيا ! لكننى - بصراحة - حزنت على انهيار هذا الصرح الكبير ! إرتعت ! فهذا معناه أن تنفرد أمريكا بحكم العالم على هواها ! نحن الآن مقبلون على عصر تقديس الـثروة !! لسوف يكون رأس المال المستغل هو الحاكم بأمره فى العالم ! إنه ينشط الآن لاحتواء كل ثروات العالم الثالث باسم النظام العالمى الجديد ! فبشر العالم الثالث بالخراب التام !!»

- « إن العالم الثالث ملئ بالثروات الطبيعية إلا أنه مع الأسف

لا يعرفها ! وإن عرفها لا يدرك قيمتها ! وإن أدرك قيمتها لا يحسن إدارتها !! المصيبة أنه لابد للغرب الإستعمارى أن يكشف له عن هذه الثروة أولاً !»

هكذا قال جعفر العطار بنبرته اليائسة فاستدرك عليه عدلى :

– « كل الثروات الطبيعية للعالم الثالث لا تعتبر من أملاكه وإن وجدت فى أراضيه ! فالثروة كما نعلم هى العلم والمعرفة أصحاب صناعة القوة !! علماء الغرب ! مخترعو السلاح ووسائل الإتصال يعرفون مافى باطن هذه الأراضى معرفة دقيقة ولا يكشفون عن الكنوز إلا لحظة احتياج بلادهم إليها !! فهذه الثروات هى المخزون الاستراتيجى للأقوياء ! وحينما يضع الأقوياء يدهم على الثروة فى أى مكان فى العالم فهيهات أن تزيحهم مقاومة مهما كانت عاتية ! إن الأقوياء يجدون دائما أنصاراً من العبيد ! والعبيد دائما أبدا لاخلاق لهم ! أنتم طبعا تعرفون أن مصر غنية بالتراب والبشر ! كل ثروة مصر هى التراب والبشر ! ولقد نجح الغرب الإستعمارى فى تحويل البشر إلى مسوخ غربية ! إلى غربان بيضاء . فأبطل بذلك فاعلية التراب !!»

وجدتنى أقول – ولو على سبيل المشاركة فى حديث طالما أسأمنى وضيق صدرى من فرط الشعور باليأس أمام قوة التخلف القابضة على زمام الأمور فى بلادنا :

– « أنظروا كيف انعكست الآية ! فبدلا من أن تكون الثروة الشخصية مصدر قوة وعزة لصاحبها أصبحت مصدر عبودية وبؤس وشقاء !!»

قال جعفر وهو ينفث دخان سيجارته :

– « هذا هو قانون الثروة مع الأسف ! فلأنها هدف فإنها أكبر موضوع للصراع والقتال ! الإنتصار فيه – بالطبع – للأقوى ! فثروة بغير قوة تحميها وتعززها تصبح شؤما على صاحبها ! إنها لا تنتزع منه فحسب ! بل انها فوق ذلك تضعه فى مرتبة الخادم الأمين لسيده المسيطر عليه وعليها ! وهذا هو وضعنا الآن فى العالم العربى ! وهبنا الله ثروة البترول والمعادن النفيسة وسلبنا القوة والعزة والإتحاد ! إستخسرها فينا فنحن فى الواقع لسنا أهلالها ! سلط عليها وعلينا من ينتفع بها وبنا ! حقا إن الله يعز من يشاء ويذل من يشاء ! فمن الذى يشاء ؟ قولوا ؟» ..

قال عبد العال :

– « الله طبعا !»

قال جعفر :

– « لا ! المشيئة هنا عائدة على الإنسان لابد ! فالعزة شئ يخص الإنسان وهو مسئول عنها ! ولو كان الله سبحانه وتعالى يريد لهذا عزة ولذاك هوانا لبطل معنى الحساب يوم القيامة !

ولقيل إن الإنسان مؤمن بإرادة الله وكافر بها أيضا طالما أن الله هو الذى يشاء العزة والهوان للناس ! إنما المشيئة عائدة على الإنسان ! أى أن الله يعز من يشاء العزة ! ويذل من يشاء الذل ! نعم ! إن أردت أن تكون عزيزا فإن الله يعينك على هذا ويمنحك العزة ! وإن أردت لنفسك الذل فأنت الجالبهعلى نفسك ! إن الإرادة للإنسان فى كل مايخص الإنسان على الأرض والله هو القوة النافذة فى كل الحالات ! إن الله لا يقف ضد أحد ولا يفضل أحدا على أحد إلا بالتقوى ! والتقوى هى العزة فى أسمى معانيها وصورها ! وهى كذلك العلم والقوة ! لكن مأساتنا أن جميع حكام المسلمين على امتداد الأزمنة السابقة سعوا إلى تحجيم عقل المواطن وتضييق أفقه حتى لا يقوى على مقاومتهم ومطالبتهم بحقوقه تجاههم ! وقد وجدوا دائما من الفقهاء المؤثرين من يساعدهم على تدجين المواطن وتطهير مخه من جرثومة الفكر وبذرة الثقافة وتعويدهم على التلقى فحسب دون المناقشة وإعمال الذهن ! فخلقوا بذلك المواطن ذا الإيمان الأعمى الذى يؤدى الصلوات والفروض دون أن يعرف حتى ماهى الحكمة منها أو محتوى الآيات التى يرددها فى صلواته ! أصبحت الصلوات والفروض العضلية هدفا فى ذاتها أدى إلى التنسك والإنسحاب التام من الحياة طلبا للآخرة ! كأنما الإسلام هو هذه الفروض الشكلية فحسب ! هى الهدف والأداة

معا ! بها يستعينون على قضاء الحاجات وحل المشاكل والخروج من الأزمات !! إن عز المطر صلوا صلاة الإستسقاء كى ينزل المطر ! وفيما كانت الجيوش الصليبية تقتحم الديار كان العلماء والمشايخ يجمعون المسلمين فى المساجد كى يبتهلوا إلى الله برد كيد الظالمين الغزاة ! بدلا من النهوض لمواجهتهم قوة لقوة ! حتى على المستوى الشخصى إذا حقد شخص على شخص قرأ عليه عدية يسين ! والموظف يطلب الترقية والرفعة لابإتقان العمل ومراعاة الضمير والواجب بل بالإمعان فى الصلوات وترديد التعاويذ والسفر إلى الحجاز ! وهكذا وهكذا !! جميع حكام المسلمين سعوا سعيا لخلق المواطن الجاهل كى يستأثروا وحدهم بثروات البلاد ! ولأن الحكام ضعفاء فى الحقيقة ولا شرعية لهم بعد أن بطلت الشرعية الإلهية القديمة فإنهم استقووا بالآخر الأجنبى ! ليحققوا بذلك حكمة الله الكامنة فى قانون الثروة مثلما هى كامنة فى كل القوانين الطبيعية ! أن يتسلط الأقوى على المستقوى فيسلبه ثروته التى استلبها بدوره ممن استضعفه !! من جانب آخر فإن الظلم الذى حاق بالمواطنين دائما أبداً زرع فيهم جبلة النزعة الفردية ! لقد خلق الحكام أفراداً لا مواطنين ! والفرد عند المحن الكبرى يشغله أمر نفسه فحسب أما المواطن فيشغله المصير العام ! وحيث تنتشر هذه النزعة فى أى مكان فإن خصاصها تكون منفذ للغزاة ! بدخولهم من بينها

يتسع المابين فيزداد الأفراد فردية يسعى كل فرد لتأمين مصيره ولو بالتعاون مع الغزاة أو على الأقل اتقاء شرورهم !! إن المستعمر الحديث لم يكن فى حاجة لتطبيق سياسة : فرق تسد ! لأن حكام المسلمين تكفلوا من قبلهم بإشاعة هذه السياسة فى أعنف صورها !!» قال عبد العال فى حماسة مفاجئة :

- « ولكن يااستاذ جعفر ألست تتفق معى فى أن الإستعمار الأمريكى الإمبريالى يقوم الآن بزرع الفرقة بين المسلمين ! وتسليط بعضهم على بعض ! وتوجيه أمخاخ شبابهم نحو التطرف والعنف لكى تبدو صورة الإسلام سيئة السمعة فى انظار القوى العالمية ؟ وإلا فما الحكمة فى أن أمريكا تحتضن الآن الشيخ عمر عبد الرحمن زعيم التطرف المنسوخ من الخمينى ؟! وتتعاون مع حسن الترابى وعباس مدنى تمدهما بالمعلومات والأسلحة والدعم المعنوى والمادى ! والله إنى لفى دهشة : كيف تسكت حكومتنا على هذا الوضع وهى تعرفه بلا شك ؟! ثمة تواطؤ غامض فى الأمر كتواطؤ أمريكا ومجلس الأمن ضد صدام حسين ومع الصرب فى اعتدائهم على مسلمى البوسنه والهرسك ! ومثل تواطؤ بطرس غالى وأممه المتحدة مع النزعات الأمريكية فى نشر خرافة النظام العالمى الجديد ! ومثل تواطؤ عاطف صدقى مع البنك الدولى ضد جموع الشعب المصرى !!»

ويبدو انه انتبه فجاة . فخفض صوته إلى حد الهمس

المرعوش بكثير من التوجس. وكمن يقول : ضربوا الأعور على عينه قال خسرانه خسرانه ؛ بدأ كأنه تورط فى شئ خطير وخشى الإتهام بالجبن والمعيلة إن هو تراجع عنه ؛ فاستطرد بانفعال مفاجئ وكمن يدلى بأقواله فى تحقيق رسمى يرد فيها عن نفسه تهمة العيب فى شرف الحكومة :

- « لا تؤاخذونى فأنا قد تحيرت ! لست استطيع منع نفسى من الإنشغال بهذا الأمر والتفكير فيه ! فأنا فى النهاية مواطن تهمه مصلحة البلاد وليس بينى وبين الحكومة اى عداء شخصى إنما هو ربما يكون اختلافا فى وجهات النظر : ف! مثلا ! مسألة البنك الدولى هذه لست أفهمها جيداً ولهذا فأنا غير مقتنع بها من أساسها فالناس أعداء ماجهلوا !! كذلك مسألة التعامل مع الإرهابيين تبدو غير مقنعة ! إنهم فى النهاية مجموعة أفراد معروفين للسلطة ! والسلطة تعلن كل يوم أنها لا توافقهم على أرائهم ! ومع ذلك نراها تغذى تطرفهم ببرامج إذاعية وصفحات دينية تقول نفس الكلام ! أليس حديث الشيخ الشعراوى بؤرة من بؤر التطرف ؟! إن هيئة كبار العلماء فى الأزهر تقوم بالتنظير للأعمال الإر - بية وتفلسفها وتعطيها شرعية ! مامعنى أن يذهب عدد منه للقبض على كتب المستشار سعيد العشماوى فى معرض الكتاب مع أن وجهة نظر العشماوى تتفق مع وجهة نظر السلطة ؟! سوف أشكر كل من يشرح لى هذه المسائل !!»

بنظرة سريعة خاطفة تلاقت عيوننا عبر وجهه المنكس فى حمية الإنفعال . إستقرت نظرتنا على معنى واحد هو أن صديقنا عبد العال طبيب الوحدة الصحية قد جنح إلى الجانب العكسى فى انعطافة حادة ليدفع عن نفسه تهمة التعاطف مع التيار الإســــلامى ..

قال عدلى بنبرة سخرية مغلفة بجدية مبالغ فيها :

– « تريد أن تفهم هذه المسألة جيداً ؟! عد إلى موضوع الثروة وتمعن فيه وفى قانون الثروة الذى تفضل بذكره جعفر ! لو فهمت قانون الثروة ياعبد العال جيدا تكون قد فهمت كل صغيرة وكبيرة فى سياسة البلاد وصراعاتها !! لكن ! كل ماأستطيع لك الآن هو أننا جميعا وقعنا ضحايا للبحث عن الثروة الطائلة !! كلنا ! باحث عن الثروة بأى شكل ! وكلنا وقود لمن يستحوذ عليها ! إن كل متحكم فينا على أى نحو على أى وضع يزداد اقترابا من الثروة كلما أتقن التحكم فينا ! والتحكم فينا درجات ومستويات ! منهم من يركبنا للوصول ! ومنهم من يسرق قوت عيالنا ! ومنهم من يبذر فى صحتنا جرثومة ما لكى يبيع لنا علاجها ! على رأى الشاعر فؤاد حداد يرحمه الله : بيبيع الأزعريئة ! ويبيع الأسبرينه ! شنيارا بن يوانس ! يبيعنا ويشـــترينا !! شنياراً بن يوَانسْ هذايا ياعبد العال هو كل دجال سياسى ! كل تاجر ! كل بائع غشاش ! كل مثقف فهلوى ! كل

فنان أو نطجى ! هو أيضا كل مستعمر يدخل علينا بصيغة براقة ليستلب قوانا ! هو البنك الدولى الذى يبرم حول رقابنا حبال أزمة إقتصادية يخلقها خلقا بكل السبل والضغوط والتدخلات لكى يبيع لنا فى النهاية قرضا يشترى به حرياتنا وكرامتنا ومستقبل أولادنا ! يضعنا فى سجن أبدى لافكاك منه ! يحكم علينا بالفقر المدقع ! حتى نموت وننقرض أو تذوب فيه بقايانا المفيدة له !!» قال جعفر بلهجة تريزياس العراف فى المآسى الإغريقية القديمة ؛ الحكمة فى ثوب النذير ؛ أو النذير فـــى صيغة الحكمة : – « لا ثروة بريئة على الإطلاق ! كل ثروة وراءها عشرات الضحايا المظلومين ! لأن الجهود البشرية لا تصنع ثروة وإن عيشت أصحابها فى رغد وستر !!»

رد عبد العال فى نبرة توضيحية كجملة اعتراضية :

– « ولكن هناك ثروات الذين سافروا إلى البلاد العربية وجاءوا بالأموال نظير جهودهم وخدماتهم !»

قاطعه جعفر :

– « هذه لا تدخل فى باب الثروة »

فشوح عدلى بذراعه منبها :

– « حتى هذه ليست بريئة هى الأخرى !! إن كل من حصل على قرش واحد زائد عن حقه أو حتى عن احتياجه إنما هو مخصوم من حق شخص آخر مجهول أو معلوم ! إن الثروة

التى ظهرت فى أرض من الأراضى ليست تكون ملكا لأحد بعينه أو لأسرة بعينها ! إنما هى ملك للأمة لابد أن ينتفع الجميع بها ! أما أن تحتكرها أسرة بعينها لكى تصنع بها رفاهيتها فإنها تكون متعدية على حقوق الآخرين حتى لو أقامت لهم بعض المشروعات بعض المرافق ! ولكن دعنا من هذا اللف والدوران ! فالأمر باختصار شديد يمكن تلخيصه على النحو التالى : إذا تواجدت طائفة من الأثرياء فى محيط معظمه فقير فإنهم بأموالهم يحصلون على زبدة الأشياء ! أنظف خبز ! أحلى نساء ! أريح منازل ! أجمل أثاث ! أمتع رحلات أشيك ملبوسات إلخ إلخ ! أصحاب السلعة دائما يصعدون الأسعار تبعا لقدرة الشراء وندرة السلعة ! حينئذ لا يبقى للفقراء شئ ! فالأثرياء إذن قد سرقوا زادهم حتى وإن تم ذلك بغير إرادة منهم أحيانا ! فمجرد وجود المال معك ليس يمتعك فحسب بل ويحرمنى ويشقينى !! تلك هى مأساة الثروة ! إذا تكومت عند رهط من الناس دون غيرهم !! لكن ! ماينساه الأثرياء دائما هو أنه لا حماية للثراء فى محيط من الفقر ! ماذا يفيد الأثرياء ثراؤهم إذا شحت السلع وشح زارعها وحاصدها وناقلها وصانعها ؟! ماذا يفيد مصانعهم ومحلاتهم وورشهم إذا ماتت الأيدى العاملة جوعا وبؤسا نهشتها الأمراض والأوبئة ؟! كيف يهنأ الأثرياء بلقمة سائغة إذا كانت ألف عين ترصدها تتحين الفرص لاختطافها ؟!

هذا بالضبط هو حال الأمه العربية الآن ! الأثرياء سادرون فى غيهم سفههم ! الفقراء يحاولون الوثوب عليهم ! وإن فشلت فى حرب الخليج مرة فإنها على موعد مؤكد مع مئات المرات ! مهما استنجد الأثرياء بالبلطجية الدولية ! مهما احتموا فى النظام العالمى الجديد ! فلا نظام للفقر ! ولا قانون للجوع !! وعلى كل حال ربنا يستر !!»

تناهت إلى أسماعنا نفثات الشيخ الطبلاوى ونواحه الحراق الملتاع يمهد لأذان الفجر بابتهالات صارخة متفجعة مع أن الله سبحانه يسمع دبيب النمل. إلا أن القوم لم يكتفوا بعلو صوت المذياع فسلطوا على المذياع مكبرات الصوت بأقصى درجاته . إحتشد الأفق بمعركة حربية لابد أن تزعج الموتى فى قبورهم بصراخها وتداخلاتها وضجيجها المحموم. أى عاقل أجنبى يدخل البلدة الآن لابد أن يصيبه الروع يظنها سراية مجاذيب مترامية الأطراف. أين رومانسية الفجر الجميلة وما كانت تمتلئ به من ورع وسحر وصفاء ؟!..

هكذا تساءل جعفر العطار، ثم استطرد :

- « إن جمال الفجر فى رومانسيته الهادئة ! مجرد الصحوفيه صلاة ! كيف يحولونه إلى ورشة ترعد فى السماء تزلزلها ؟!»

لوح عبد العال بكفه يدفع عن أنفه دخان السجائر :

– « إنها احتفالية طريفة على أية حال ! ولا تخلو من انس وجمال يحبب الناس فى الصلاة يوقظ أى مستغرق فى النوم يدعوه للمجئ والمشاركة فى الإحتفال بصلاة الفجر ! إن الفجر لابد أن يكون مشهودا ياأستاذ جعفر !!»

عاجله عدلى فى غيظ مكبوت :

– « هذه صلاة المنتظرين لبغلة العرش ! لا تنسوا انهم ينتظرونها منذ عشرات السنين ! وهم الليلة ينادونها بهذا الصخب العنيف ! كل واحد يريد أن يلفت نظر السماء إليه وإلى تفانيه فى العبادة ! كل هذا الصياح الغنائى ليس تهجدا وابتهالا فحسب إنما هو صوت يريد أن يقول : نحن هنا أيتها السماء ! نظره ! خل بالك منا يارب !! لو كنا فى مجتمع حر يادكتور عبد العال لكان فى استطاعتنا أن نفرق بين الصلاة الصلاة ! والصلاة الأونطه !!»

– « وضح كلامك ياباشمهندس !»

هكذا قال عبد العال فى لطف خجول ؛ فاستدرك عدلى :

–« كلما ارتفع صوت الصلاة والإبتهال إلى حد الصخب العنيف كان الورع قليلا والفكر زائغا عن تقوى الله وحضرته ! هذا ماأردت قوله يادكتور وهو واضح !! »

فى نبرة مزاح ودودة قال عبد العال :

« يظهر إن الفكر الشيوعي لايزال متأصلاً فيك

ياباشـــمهندس»

هز عدلى رأسه موافقا فى بساطة سلسه :

– « صدقت يادكتور ! بدليل أننى لم أفطر فى رمضان يوما واحداً طول حياتى !مع ملاحظة أننى لا أتسحر فى العادة ! أما الأتقياء الورعون فإن بعضهم يفطر فى رمضان عينى عينك ! بعذر أو بآخر !!»

ظهر التوتر على وجه عبد العال ؛ فإذا هو يستدرك :

– « على فكرة ! أنا لم أفطر إلا فى هذا العام فقط ! لأسباب صحية لابد أنك سمعت بها ! أنا لابد أن أشرب كمية كبيرة من المياه طول النهار !

– « وهل أنا جئت بسيرتك يادكتور ؟»

– « لزم التنويه على كل حال !»

ثم حط علينا صمت عميق متوتر ..

وكان الفضاء قد بدأ ينكشف أمامنا بصورة جلية ، كأن القمر قد طلع دون أن يظهر بنفسه . ظهرت الأشجار كأن الضوء قد نحتها من كتلة الظلام ، وهاهو ذا يجلو فى رتوشها الأخيرة فتظهر أطراف وريقاتها الصغيرة. بان الزرع فى الحقول، صار من الممكن تحديد نوعه بالنظرة العابرة. إتضحت الأعشاب لحشائش وأعواد التيل والبوص والحلفاء على شاطئ ترعة السلمونية . إنزاحت الأغطية السوداء الرمادية عن هياكل

الدور فظهرت عارية. بانت الشبابيك والشرفات والبلكونات وأحمال القش والحطب. بدا المنظر بديعا. دب الأنس الحقيقى فى الكون بعد أن خمدت أصوات مكبرات الصوت. إنبعثت أصوات الضفادع وصفير الصراصير وصوت مويجات تضرب فى باب القنطرة فتلقى فى الآذان هديرا طروباً .

إنشالت بنا الأرض فجأة على صرخة صدعت بنيان الأفق كله زلزلت صخر الطابية من تحتنا قبضت على قلوبنا بكلابات حديدية :

– « الله أكبر ! الله أكبر ! جل جلاله ! »

تبددت نفوسنا فى الفضاء من فرط الفزع . كان عبد العال هو الذى أطلق هذه الصرخة المفاجئة التى لم تكن لتتفق أبدا مع رزانته وماعرف عنه من هدوء الصوت والأعصاب. إنتفضنا واقفين ننظر تحت أقدامنا وحوالينا بحثا عن ثعبان قرصه. فوجئنا بالطبيب وقد تحول إلى طفل أبله ملتاث ؛ راح يتنطط يدبدب فى الأرض بقدميه مواصلا الصراخ والهذيان. صرخنا فيه :

– « مالك ياعبد العال ؟! »

أشار بذراعيه إلى بعيد صارخا فى غبطة جهنمية :

– « البغلة !! بغلة العرش وصلت !! انظروا يامن كنتم تشكون فى قدرة الله سبحانه وتعالى ! البغلة حقيقية إذن !

وهاهى ذى مقبلة ! »

صرنا كالوطاويط المذعورة. تسلقنا إفريز القنطرة مثل البهلوانات. رمينا البصر فى اتجاه الطريق الوعر القادم من جهة بحر نشرت. صرنا ندعك فى أعيننا لكى ترى جيداً ؛ ثم نركز البصر؛ ونعود فندعكها ، لنركز البصر مرة أخرى؛ والذهول يشد كل الخيوط فى أعصابنا ..

فعلا ! هاهى ذى بغلة العرش قادمة ! بغلة العرش بلحمها وشحمها ؛ تحمل على ظهرها الخرج الملآن بالذهب تتصاعد فى الأفق هسهساته. وفوق الخرج رأس قتيل ، مشكوك فى عصا قصيرة مربوطة بظهر البغلة بين فتحتى الخرج ..

كانت تمشى منكسة رأسها فى الأرض ؛ آخذة سمتها نحونا ..

أصابتنا عدوى اللوثة ؛ فانخرطنا فى بكاء حار. إنتابنا شعور هائل بالضعف والقوة معا ؛ الضعف الشخصى أمام قوة الموقف. صرنا نهذى بكلام كثير مضغوم غير مفهوم. صرنا نتخبط فى بعضنا نتمايل فوق الطابية نرمى بأنفسنا على الأرض؛ لنعود فنصعد معلقين الأبصار بالبغلة؛ تشملنا فرحة عظيمه لعل مصدرها أننا حظينا وحدنا بأن نكون شهود عيان فى حدث تاريخى كونى جليل ؛ وغداً تكون لشهادة الواحد منا قيمتها العظمى عند أى حديث عن بغلة العرش. صارت البهجة التى شملتنا مرادفة لمجئ البغلة لأى واحد فينا أولنا جميعا..

بقى أن نعرف لمن هى ذاهبة ؟ من تراه يكون الموعود بها فى هذه الليلة ؟ هى لا شك تحمل عنوانه حتى وإن كان يسكن فى عشة ؛ سيما وأنها قادمة فى لحظة سحرية مناسبة جداً ؛ عقب صلاة الفجر؛ حيث استأنف المتيقظون للفجر نومهم وأخلد الساهرون للنوم؛ فالجميع فى سبات فيما عدا الموعود يكون قد تلقى الوحى بأنها فى الطريق إليه..

هاهى ذىتقترب وتقترب. ثم إذا بها - فى خطو واثق راسخ الوعى - تحود قبل وصولها إلى الوحدة الصحية تسلك ، الطريق إلى وسط البلد من الممر المتاخم للكنيسة المهجورة ، وهو ممر شديد الوعورة رغم اتصاله مباشرة بوسط البلد، لا تمشى فيه دواب على الإطلاق؛ الكنيسة المهجورة تضفي عليه كآبة وغموضا ووحشة ؛ مئات الأساطير المرعبة تنبعث كل مساء من جوفها ؛ منذ أن تحولت إلى قرافة لأقباط بلدتنا. ولم يكن ليجرؤ أى واحد فى البلدة على المرور من هذه الوصلة بعد أذان المغرب مباشرة ..

البغلة إذن يحركها عقل إلهى فتسلك من تلقاء نفسها فى طريق مرسوم لها سلفا ؛ يحجبها عن أعين المتطفلين ..

فوجئنا بأننا قد اندفعنا نحو هذه الوصلة فى هرولة مضطربة وقد نسى كل منا الآخر بل نسى نفسه ؛ حتى جعفر نسى أنه لابد أن يدفع دراجة صديقه عدلى ؛ فمضى وحده كالهائم المجذوب.

بدربة كبيرة صار عدلى يحرك ترس العجلة بيديه ؛ لكنه مالبث حتى تهالك فتوقف يائسا ..

المسافة بيننا وبين ممر الكنيسة ليست بالقصيرة كما أنها ليست بالبعيدة . كان عبد العال هو أول المتقدمين فى الجرى ؛ وكنت خلفه مباشرة أحاول اللحاق به ؛ ومن ورائنا جعفر ، ثم عدلى . إنخلعت فردة الشبشب الزنوبة من قدم عبد العال ، طارت فى الهواء ؛ فتوقف يبحث عنها بعد أن جرب الجرى بدونها فشعر أن قدمه الرقيقة لا تحتمل الحصى. فى اندفاعتى اللاهثة المجنونة اصطدمت بتوقفه المفاجئ فانكفأت فوقه فسقطنا معا فى الأرض فى عنف. كدت أصاب بالإغماء لولا أننى أسرعت بالوقوف مستأنفا الجرى فى اتجاه ممر الكنيسة المهجورة وقد أخمدت فى رأسى كل الحكايات الخرافية المحيطة بهذا الممر ..

دخلة الممر عبارة عن قنطرة صغيرة مبنية تحت الأرض تقطع ترعة المشروع المتفرعة من ترعة السلموينة ؛ عريضة فوق الماء فحسب ؛ تسمح لعربة نقل كبيرة أن تتحرك محودة إلى اليمين أو إلى اليسار لتستوى على الطريق الزراعى الممهد على شاطئ ترعة المشروع. على ناصية الممر كباس المعلم عبده، العتيق ، البالغ من العمر تاريخا قد يمتد إلى مصر الفرعونية ، تشاع عنه هو الآخر عشرات الأساطير عن جنيات نصفهن إنسيات تسكن فى قاعه السحيق ؛ له مدار كربوة عالية عريضة

بطول شعبته التى يتعلق فيها ثوران عند دورانه لجلب مياه جوفية إذا شحت مياه الترع. يجور المدار على الطريق ؛ أما الجميزة العتيقة المزروعة فوق المدار فإنها جارمة الفروع والجذع والأوراق تصنع مظلة هائلة الحجم تبدو من بعيد كراس جنية خرافية تقطع الطريق على العابرين. بعد هذه الربوة مباشرة يبدأ الممر فى شكل ثعبان متعرج، على يساره مصرف ضيق يصب فى بحر السبيل الذى كان يطوق البلدة قبل أن تجف منه بقاع كثيرة تحوله إلى برك ومستنقعات عطنة ؛ فأصبح العابرون إلى البلدة والخارجون منها يمشون فوق البقاع الجافة التى تحولت إلى أرض صلبة .. أى أن هذه الكنيسة المهجورة كانت فيما مضى بناية بديعة الشكل على شاطئ بحر السبيل منذ سنوات بعيدة مضت قبل أن تؤوب إلى طلل يحوطه الهديم من كل ناحية. اما الممر الذى يمضى أمامها فكأنه خط رفيع بالقلم الرصاص الباهت خطته يد طفل عابث فى مواجهةقطيع من النخيل ..

ماأن وصلت إلى كباس المعلم عبده حتى تيقنت أن قلبى سينزع من مكانه إذا واصلت الجرى؛ فصرت أهرول . فوجئت بجعفر مستنداً على شعبة الكباس يتجاذب من الهواء أنفاساً متلاحقة ؛ كان من الواضح أن دواراً أصابه من الجرى نظرا لشراهتة فى التدخين. إنشغلت بمنظره لبرهة؛ لكنه سرعان

بالاعتدل صائحاً فى استدراك كأنه قد أفاق على شئ مهم :

– « فين الباشمهندس ؟! أما احنا أندال بشكل ! إزاى نسيبه ونجرى ؟!! »

ثم هبط عن الربوة وارتد عائدا نحو صديقه ؛ فبعد خطوات قليلة عثر فى فردة شبشب عبد العال فحملها إليه؛ ملحق بى عبد العال وأنا أبعثر نظراتى فى كل اتجاه. لم يكن للبغلة أى أثر على الطريق . كدت أجن؛ إذ ليس من المعقول أن يكون مارأيناه وهما ؛ فنحن جميعا واثقون كل الثقة أننا رأينا بغلة العرش رؤية العين تمشى بلحمها وشحمها على هذا الطريق ؛ فأين تراها اختفت هكذا فى لمح البصر ؟!

أخذت أنظر هنا وهناك لعلها تكون واقفة فى مسطاح المصرف أو محتجبة خلف نخيل المعلم عبده ... القطيع الهائل كالغابة فى هذا الممر يضفى عليه بشاعة فى الليل. المؤكد أنها اخترقت غابة النخيل لسبب من الأسباب . لحظة أن يئست من الإستمرار فى البحث عن خط سير البغلة كان عبد العال قد وصل لاهثا يمسح عرقه ؛ ليسالنى فور وصوله بلهجة متشككة مستريبة :

– « راحت فين ؟ راحت فين ؟! »

احسست كأنه يتهمنى بإخفائها ، فشوحت فى وجهه بغيظ :

– « فى جيبى ! »

فى ذهوله صار يتلفت حواليه كالملتاث :

- « تكون استخبت فى الكنيسة ؟!»

لم ينتظر جوابى ، بل هرع نحو الكنيسة ثم تسلق جدار سورها صار ينظر فى كل ركن فيها ؛ هبط ينفض كفيه من التراب؛ وقف بحذائى ، صدره يعلو ويهبط ؛ ينظر فى كثير من الريبة. صرنا نرسل البصر فى جميع الأنحاء ؛ رأينا شبح دراجة عدلى تزحف فى مدخل البلدة يدفعها جعفر فى الخلف. جلسنا فوق جذع نخلة عتيق واندمجنا فى تفكير متوتر كظيم..

طال بنا الإنتظار حتى مللنا. وحينما أبديت رغبتى فى الإنصراف نظر لى عبد العال نظرة مشحونة بالإتهام والحقد الدفين ؛ لكنه نهض فتقدمنى؛ ومضى بجوارى موحيالى بأنه - ذوقا ولياقة - يرافقنى للإستمتاع بى أطول وقت ممكن كما قال . ولم يتركنى إلا بعد أن اطمأن إلى أننى دخلت منزلى بدون بغلة العرش. ولعله رجع وحده إلى الممر يواصل البحث والتنقيب عنها.

فى وضح النهار

القريحة الكونية

١ - القصيدة

« الحمد لله أن لحقتك قبل سفرك فربما نسافر معا أو نبقى معا ...

« بودى لو أقنعتك بالبقاء عدة أيام أخر !..

« لسوف أبقى لأشهد اكتمال القصيدة المرعبة التى تفجرت ليلة أمس فلسعتنى بنيرانها الحارقة ! ..

« لكى أنجو من حريقها لابد أن أكتبها ولن أستطيع كتابتها إلا إن شهدت اكتمالها على الحقيقة !..

« هذه أول قصيدة فى حياتى يعجز خيالى عن وضع نهاية لها كما لا يقبل وجدانى تركها مفتوحة !!..

« دائما أبدا كان الواقع يمدنى بالشرارة التى تندلع كالريح فتلتحم بالجمر الكامن فى قلبى فتشتعل القصيدة يقوم بنيانها !..

« يبدو أن القصيدة من الأساس أشبه بالبيضة عبارة عن

قشرة تحتوى على كتلة من السائل اللزج هو خليط من الصفار والبياض فإذ تفوت الشرارة فتلمس الجمرة فى قلبى فيشتعل القلب ترتفع درجة الحرارة تفقس البيضة يخرج منها كائن حى !!..

« اليوم اختلف الحال فلأول مرة تجئ القصيدة مكتملة لا دخل لى فيها ولا فضل إلا جهد التدوين على الورق !!..

« الشرارة فى هذه المرة تندلع من قلوب الناس فتلتحم بالجمرة الكامنة فى الكون فإذا به يؤلف القصيدة !!..

« صحيح أن الكون بارع فى التأليف إذ هو معلمنا الأول والأعظم فيه فى كل هذه المخلوقات والظواهر الخارقة على ظهر الأرض ولكن هذه أول مرة أراه يؤلف قصيدة على هوى الناس كما أرادها الناس بالضبط كأنه قد أصبح أداة من أدوات التأليف فى يد المخيلة الشعبية الخصيبة التى لم يَخْبُ لها أوار أبد الدهر !!..

« إن ماوقع فى الساعات الأولى من فجر هذا اليوم لهو حدث فاصل فى تاريخ علاقتى بهذا الكون العجيب ومخيلة القوم الأعجب والأكثر مدعاة للدهشة !!..

« قديما قيل إن ألسنة الناس أقلام الحق واليوم أقول إن مخيلة شعبنا هى الحق الصراح فى أجلى صوره وأبهر معانيه !!..

« ألم تكن تشاركنى الإعتقاد بأن أهل بلدتنا يهرفون ؟ ألم تكن أنت وأنا وعدلى وعبد العال نفسر لوثتهم ببغلة العرش هذه بأنها محض خيال نبع من خرافة صادفت سنداً من الواقع ينميها ؟!..

« أسطورة بغلة العرش لم تكن لتجد مناخا طيبا يعطيها مصداقية العقيدة لو لم يكن الواقع فاسداً بصورة مخيفة أشد خرقا من الخرافة نفسها إذ إن مظاهر الثراء الفاحش المتفشية فى الواقع بغير مبرر منطقى مفهوم لا يمكن إرجاعها إلى أسباب واقعية على الإطلاق!!

« ذلك أن أى واقع فى أى مكان فى الأرض لا يمكن أن يتيح لأى شخص – كائنا من كان فرص الثراء بهذا الشكل الجنونى السريع يقابلها فرص للإدقاع بنفس الإيقاع الجنونى !!.

« الحق كل الحق لقد استعلينا على الواقع حينما نظرناه بسخرية واستهزاء ففسرنا الظاهرة تفسيراً فنيا فإذا بالواقع – كالعادة – يبطل كل معتقداتنا يثبت أن كل تصوراتنا بل كل نظرياتنا عن الفن جد خاطئة فجة !!..

« الأمر إذن صحيح مائة فى المائة وليس محض خيال من خرافة كما كنا نعتقد !!..

« الذهول مستبد بى منذ هذه اللحظة التاريخية الفذة لم يغمض لى جفن ولا أظنه يغمض بعد الآن بعد الذى رأيناه رؤية

العين المجردة !!..

« آه لو رأيت صديقنا عدلى ! من فرط ماأصابه من تصدع لم يتوقف عن الهذيان فعز على أن أتركه فى هذه الحال وحده فبقيت معه حتى هذه اللحظة تركته حطاما ينتفض من الحمى يتقلى فى النار بهذيان بشع : يرى الله جل جلاله ماثلا أمام عينيه يخاطبه يهرع إليه محاولا الإقتراب منه فلا يقوى فيتفتت فى بكاء يقطع نياط القلوب !! يستغفر يعتذر عن ذنوب اقترفها فى سالف الأزمان يطلب العفو والرحمة يكاد يمزق نفسه ألماً وندماً رغم يقينه من قبول الرحمن الرحيم للتوبة !! لم يكفه أن فقد ساقيه فى حرب أجهزت على شبابه فتوته مستقبلة فداءاً لوطنه كى يستمتع بثمرة بؤسه نفر من اللصوص والقوادين والسفاحين وتجار الأسلحة والسياسة من السفلة الأفاكين !!..

« هو – تصور ! – يعتبر نفسه قد أجرم فى حق أهله فى حق الإنسانية الأخلاق الغلابة البؤساء لمجرد اشتراكه فى حرب قامت باسم التحرير وانتهت بالعبودية المطلقة لكل من يلوح لنا بالدولار ! فانعدمت الانسانية تدهورت الأخلاق ديس الشرف بالأحذية تحت كعوب المومسات الفاضلات !!..

« الولد يالهف قلبى قد انفرط تماما أصبح من المستحيل تجميعه من جديد فى واحد صحيح !! يخامرنى اليقين بأنه انتهى

فلن تقوم له قائمة بعد اليوم !..

• إنتزعت عبد العال من فرشته ليسعفه بأى مسعف فإذا هو الآخر فى حال أشد نكراً وإذا أنا فى مهب ريح عاصفة أريد أن أربط دماغى فى أى وتد حتى لا ينفصل عنى طائراً فى الهواء بدداً فليس من وتد سوى القصيدة ضرورة التشبث بالعقل بامتلاك الإيقاع الصحيح كيما أتمكن - أنا المصدوع المزلزل - من إسعاف الإثنين !!..

• أخونا عبد العال أفتى بكل بساطة أن حالة عدلى لاشبيه لها فى كل مادرسه فى الطب أو شاهده على البشر فلم أجرؤ على مناقشته نظرا لسوء حاله الواضح فى خلط وهذيان وشرود وانعدام تركيز واهتزاز أطراف رلجاجة وثقل لسان !!..

• لأول مرة أحب عبد العال حبا عميقا لأن المبرر الوحيد لبقائه واقفا على قدميه كان إحساسه بالمسئولية والواجب تجاه عدلى ! لولا شدة إحساسه بهذا الواجب لوقع ميتا !!..

• حينما أيقن من عجزه تجاه حالة عدلى تهاوى جالسا فوق حافة السرير متشبثا بيديه بالفراش خوف الوقوع لكنه نطق بصوت صدئ مكتوم : روحونى !! فحملته على ركوبة إلى فراشه بالوحدة الصحية تركته فى عهدة رئيسة الممرضات المقيمة وقفلت عائدا إلى عدلى !!..

• ألقينا فوق جسد عدلى كل البطاطين والألحفة الموجودة فى الدار فما لبث حتى استقر على السكون ربما من فرط التعب سرعان ماانتظمت أنفاسه فاستغرق فى النوم فغادرته للحاق بك قبل سفرك وفى ظنى أننا يجب أن نلقى نظرة على عبد العال !..

• إذا كان عبد العال قد انخرع كل هذه الخرعة وهو لم ير المشهد كاملا فكيف لا يتفتت عـــدلى وأنا بعد إذ رأينا تمام الحقيقة ؟!..

• من صلابة مخى ومخه كنا حتى آخر لحظة نميل للإعتقاد بأن فى المشهد ثمة لبس ما ! لكن نهاية المشهد اطعت دابر الشك باليقين !!..

• إسمح لى أن أتيه عليك الآن بميزة حرمت منها أنت وعبد العال فالناس فى الإمتياز الإنسانى درجات بقدر ما يعرفون لا بقدر مايملكون والرؤية العيانية أسمى مراتب المعرفة !!..

• جميعا رأينا بغلة العرش رؤية العين لحظة قدومها إلى أن دخلت من أوعر طريق لكنك وعبد العال لا تعرفان من هو المليونير الجديد الذى :. فجر اليوم !!..

• فيما مضى كان الناس يتوقعونه يرشحونه بحكم ماطرأ عليه من مظاهر الثراء ! أما أنا وعدلى فقد رأيناه !!..

• هذه أول مرة فى التاريخ يتاح لشخص أن يرى شخص

الموعود بلحمه ودمه فى لحظة تلقيه الوعد واستقباله للعطية الإلهية ! تلك اللحظة السحرية العبقرية التى ظلت طول عمرها سراً من أسرار الكون لا يكشف عنها إلا للموعود نفسه فى لحظة التحقق الفعلى السماوى فكأننى رأيت المشيئة الإلهية مجسدة مشخصة تثبت فسولة الرأى الذى تفلسفنا به فيما نحن جلوس على الطابية أعنى ماقلته بشأن قوله تعالى : يعز من يشاء ويذل من يشاء !!..

« أظنك على معرفة وثيقة بالمواطن الطيب القلب المدعو عبد الرءوف العصرة ذلك الرجل الذى إن بحثت عن تلخيص دقيق لمعنى أن يكون المواطن مصريا صرفا لما وجدت أبدع ولا أكمل مثلا من عبد الرءوف العصرة : الصبر وطول البال واحتمال العسف والرضا بالمقسوم والتضحية والإيثار والسلوك المتحضر حضارة باطنية رغـم خشـونة المظهر وبؤس الحال وعدم التعليم !!..

« تعرف لا شك أنه قبل ثورة يوليو كان تمليا يشتغل بأكله وكسوته فحسب فى معية أحمد افندى خلاف يسرح بالبهائم يكنس الدار يفعل أى شئ يطلب منه دونما أدنى اعتراض فإن شعر بالتعب أو بالألم لا يشكو مطلقا لأن الشكوى لغير الله مذلة إنما يحول شكواه إلى نكتة تسخر من الألم ومن الأوضاع

لكنها فى عمقها البعيد مؤلمة فى حق سيده !!..

« لما قامت الثورة فوت سيده عليها فرصة تأميم ممتلكاته لأنه كان له إبن من بين الضباط الأحرار أنبأ أباه باتجاه حكومة الثورة إلى التأميم فقام أبوه بتوزيع كل ممتلكاته على أبنائه الكثيرين !!..

« الوحيد الذى أضير كان عبد الرءوف العصرة إذ تخفف سيده من كل الخدم ثم غادر البلاد نهائيا ليقيم فى بلاد الفرنجة يتاجر فى الأسلحة والمخدرات خلف مشاريع وشركات متعددة الجنسية !!..

« لفت الأيام وعاد فى عصر الإنفتاح ليخدم بلاده - أى يستنزف دمها المستباح - بمشاريع استثمارية معفاة من الضرائب عبارة عن مصانع للبسكويت وتعبأة المياه الغازية والشاى المضروب يشترى ثلاثة أرباع وقت الإرسال التليفزيونى بمذيعيه ومذيعاته يلفق الجوائز الخيالية فى شقق سكنية وسيارات وأجهزة وسفر للحج والعمرة بل يبلغ الواقع السياسى حداً من العهر الأسطورى يسمح له بالعودة على رأس حزب باشواتى النزغة !!..

« أخونا عبد الرءوف العصرة داخ الدوخات السبع حتى عين فراشا فى مدرسة البلد العتيقة فاعتراه الزهو على ضآلة المرتب

فذهب بعين قوية فتزوج من بنت ناس طيبين ملأت له الدار عيالا وهماً ووجع دماغ حتى بات على مشارف الجغون أمام جنون ارتفاع أسعار الحياة !!..

« ضرب المثل فى القدرة على الإحتمال حتى بعد أن أحيل على المعاش أصبح يشتغل فى أى شغل يخطر أو لا يخطر على البال كى يوفر لأولاده لقمة وهدمة وكراسة فحسب !!..

« هاهى ذى أبواب السماء تنفتح له على مصاريعها فغداً يكمل عياله تعليمهم فى أوكسفورد يسكنون القصور يركبون المرسيدس الشبح !!..

« الموعود إما أن يجيئه الوعد لحد عنده وإما أن يذهب هو إليه دون أن يدرى ربما بدافع خفى أو بهاتف قلبى !!..

« فى العادة يسلك عبد الرءوف طريق ترعة السلمونية صباح كل يوم إلى عزبة الحجر حيث يعمل هناك مبيضا للبنايات الجديدة ليعود فى الغروب فيشتغل حتى منتصف الليل فى شباك داره للطل على الشارع يبيع الشاى والسكر والخيط والكمون والدخان ! ومابين الزبون والزبون يقوم بشد الأكلمة على قوائم خشبية مليئة بصفوف من الخيوط حيث قد اخترع صنعة لم تكن معروفة من قبل فى بلدتنا فأنت وغيرك تجمع القصاصات والخرق القديمة تعطيها له فيفتلها فى حبال يمررها

بين هذه الخيوط يصنع منها كليما متينا يحتمل الوسخ والبهدلة !!..

« لأجل نصيبه العبقرى قرر اليوم أن يخرم من قلب نخل المعلم عبده فما أن اقترب من وصلة الكنيسة حتى فوجئ بالبغلة تمشى وحدها تتلكأ ! فتسمر واقفا أمامها مذهولاً فجفلت فجعل يرتعش فصارت تقترب منه تمد بوزها تتمسح فيه "

ففهم الرسالة فى الحال فما كان منه إلا أن سحبها من مقودها ثم دخل بها غاية النخل ! هذا مارأيته أنا قبل أن تلحق بى حينما رأيتنى أستند دائخا على شجرة الجميز !!..

« ولحظة أن كان خارجا بها من وسط النخيل يهرول فى نزق ولهوجة فى اتجاه داره كنت أنا وعدلى قد صرنا خلفه لا يفصلنا عنه سوى خطوات قليلة فظللنا به حتى شاهدناه يفتح باب داره يدفع البغلة ثم يدخل وراءها فيغلق الباب من خلفه فسمعنا تكة المزلاج تصك الباب !!..

« أثناء عودتنا إلى دار عدلى شاهدنا عبد العال خارجا من حارتكم يتلفت حواليه كاللص الموتور يرسل نظراته الشاردة فى كل اتجاه دون تركيز !!..

« خيل إلينا أنه قد لمحنا فتوقفنا فى انتظار أن يقبل علينا لكنه كان فى حال غير طبيعية فالعين التى اعتادت رؤية الدكتور عبد

العال فى كامل ثيابه الرسمية باستمرار على درجة كبيرة من الأناقة إذا رآه هكذا بالبيجامة المتهدلة والشبشب الزنوبة يترنح فى مشيته فلابد أن تتصوره معتوها ضالاً !! الطريف أنه اخترق غابة النخيل مهرولا كالملتاث كمن يطارد أشباحا يحاول القبض عليها بيديه فكان منظره مضحكا حقا مثيراً للرثاء فى نفس الوقت !!..

« إلا اننا لم نضحك لأن جسد عدلى لحظتئذ كان قد بدأ ينتفض بصورة مقلقة لدرجة أننى كنت أمسك الدراجة بكل قوتى اتشبث بها حتى لا تنكفئ !! وقد اضطررت لحمله على صدرى مسافة كبيرة من أول الحارة حتى السرير !!».

٢- الصَّحْوْ

صوت زوجة أخى يرن فى أذنى كالحلم ؛ يأتى من خلف باب المندرة الداخلى، ينادى علينا فى حرج من اضطر إلى التصريح بفحوى الطلب :

- « مش حتاكلوا لكم لقمة ياأستاذ ؟!»

تبع ذلك استئناف نقر خفيف على الباب مالبث حتى اشتد. فتحت عينى بصعوبة شديدة . إخترق بصرى الواهن شبكة العماص المتكلس ؛ إستقر على الباب الذى راح يهتز تحت الدق بقبضة يد رقيقة . قلت بصوت يخترق بصعوبة شبكة ريق متصلب خشن :

- « طيب يامعالى !»

ثم تقلبت على جنبى الأيسر ؛ ففوجئت بجعفر يتمدد على الكنبة المقابلة وقد تدحرج رأسه عن التكاية القصيرة القامة، فانحشرت بينها وبين المسند ؛ وشعره المهوش المجعد يبدو

كعمامة من الجريد المغبر الداكن يطل ضوء الفجر على شواشيه. فكأنها مدهونة بالجير. كان مستغرقا فى النوم ، مكسور الرقبة مفتوح الفم، يتصاعد شخيره من حنكه وأنفه . ملامح وجهه الحادة الصارمة مشدودة على إطار من الجدية الهائلة؛ يشع منها شعور قوى بالتقزز والإشمئناط والإشمئزاز والمرارة ...

تنحنحت ثم دحرجت صوتى الكسيح فوق الأرض للطينة الزلقة بمياه فاضت من صينية القلل الراشحة ، الموضوعة لصق كنبتى ؛ يجاورها وابور غاز ، وعدة شاى، وجوزة ومنقد نار. فى الركن حصير مبروم ومركون على الحائط ؛ وفى الركن المقابل طبلية مرفوعة مركونة هى الأخرى على الحائط ، فى الركن الفاصل بين كنبة جعفر وكنبة أخرى. فالكنب البلدى ممتد تحت الحوائط الأربع وقد ألبست بياضاتها النظيفة المعطرة بمناسبة شهر رمضان الذى تكثر فيه الزيارات. رفعت صوتى صائحا :

- « جعفر ! جعفر !»

رد كأنه متيقظ تماما مع أنه لم تند عنه حركة واحدة :

- « هيه !»
- « إصح ! »
- « طيب !»

وبقى كما هو . دفعت البطانية ؛ حررت ساقى. نفضت جسدى قاعدا؛ فهابطا إلى الأرض. فرشت الحصير على البقعة الجافة. جئت بالطبليه فوضعتها فى المنتصف. سحبت مسندين رميت بهما على الحصير بحذاء الطبلية. إرتكزت بركبتى على حافة كنبة جعفر، ثم فتحت درفتى الجزء العلوى من الشباك القائم خلف المسند؛ فاقتحم المندرة ضوء برتقالى شاحب . إستدرت ذاهبا إلى كنبتى، فتحت درفتى الجزء العلوى من الشباك القائم خلفها؛ فارمد ضوء الشعاع البرتقالى . ساعة الحائط التى جاء بها أخى من السعودية خصيصا لهذه المندرة كانت تشير إلى العاشرة صباحا. تشككت فى صدقها؛ لكن ساعة يدى أكدته . معنى ذلك أننا نمنا من ظهيرة الأمس حتى صباح اليوم فانقطعت صلتنا بالحياة تماما ..

على أن ظلالا باهتة من حلم غامض كانت تترك فى جدران مخى لزوجة غريبة تعلق بها الصور والمرئيات، فكأننى رغم انفتاح عينى على وسعهما ، والحيوية التى أخذت تدب فى أوصالى، لا أزال مستغرقا فى نفس الحلم الغامض. أحاول التركيز على الصحو النهائى. ميلت على صينية القلل؛ غمست يدى فى الماء المتجمع فيها فلسعتنى برودتها ؛ فكبشت حفنة منها ألقيت بها على وجهى فأنعشتنى . كررتها عدة مرات.

وحينما غزت أنفى رائحة الفطير المصنوع من دقيق الذرة مخلوطا باللبن مدهون الوجه بالقشدة الساخنة؛ شعرت بخجل عميق من كوننا - جعفر وأنا - مفطرين فى رمضان ؛ هكذا عيانا بيانا؛ ويمثل هذه الفضيحة الزاعقة يصنعها مهرجان الفطير الذى لابد أن يثير سخط الصائمين ؛ لولا أن الرجال غائبون الآن فى أعمالهم. وكنت واثقا أن أهل الدار جميعهم ممتعضون من ذلك لكنهم لا يجرؤن على إظهار مشاعرهم نظرا لأنهم يعتبرونى - وإن كنت منهم - ضيفا ينبغى معاملته بكل أدب واحترام وتحفظ. أما معالى زوجة أخى فإنها - نظرا لأنى الأخ الأكبر لزوجها- تخاطبنى بقولها ياعم؛ وتعاملنى ببشاشة وود كبيرين حتى لتهتم بى أكثر من اهتمامها بزوجها ؛ فشدة احترامها لى نابعة من شدة حبها لزوجها. ولهذا كانت تدافع عن إفطارى فى رمضان بأسباب غاية فى الطرافة وخفة الظل؛ وتعدلى الطعام والشراب بعناية وأريحية بالغين؛ لكن ذلك لا يمنعها من أن تلكزنى برفق ومرح مع ابتسامة شديدة العذوبة فيما تقول :

- « نفسى أعرف مصر بتعمل فيكم إيه يخليكم تفطروا فى رمضان عينى عينك ؟!»

طرق الباب ، فتحته ، نزعت الشنكل الكبير فانفتحت

الدرفتان أمام الصينية النحاسية العريضة إرتصت فوقها ثلاث فطائر عريضة كالمطرحة يفوح منها عطر جنونى؛ والقشدة الساخنة لا تزال تطشطش على وجوهها فى رقع حمراء وبنية وبرتقالية، تتخللها أطباق صغيرة فيها قشدة صابحة وجبن قديم بالمش وعسل النحل والبيض المقلى ..

دخلت معالى مشمرة ذراعيها البضين، محبوكة القوام مجسدة التقاطيع كجندى رشيق قوى البنيان . وضعت الصينية فوق الطبلية دون أن تنظر إلى أى شئ آخر؛ ثم انصرفت تتبختر مسرعة كالغزال الهارب ..

كان جعفر قد شعر بدخولها فانتفض قاعداً كطفل عابث فاجأته أمه فى وضع زرى. أول كلمة نطق بها عندما هبط إلى الطبلية :

- « عايزين نشوف عدلى عمل إيه !»

وشرع يقتطع اللقيمات بأطراف أصابعه الطويلة فيغمسها فى الجبن القديم ويطوحها إلى فمه فى سأم :

- « كان المفروض نبات جنبه !»

ثم رد على نفسه :

- « بس ماكناش حنعرف ننام ساعة واحدة ! على فكرة ! أنا ماكنتش نايم ! أنا كنت مقتول ماكنتش عارف جسمى راح فين

؟! عقلى طول الليل سارح بيدور على جثتى !! ياترى عدلى عمل إيه ؟!»

قلت وأنا أحس – لا أدرى لم – بأنى أموه على نفسى :

– « ماأظن أن حالته خطيره لهذه الدرجة !»

تعلقت يده باللقمة أمام فمه :

– « إحمد ربنا لأنك لم تره !»

ثم شوح باللقمة وواصل وهو يمضغ :

– « قبل أن يفقد الوعى قال : كل مافات من حياتنا كذب فى كذب ! وحادثة الليلة كانت جلسة النطق بالحكم فى قضية حياتنا ! القاضى الأعلى نطق به صريحا دامغا : أنتم جميعا أيها المثقفون على الهامش لا وجود لكم فى الحياة ولا بقاء لستم تصلحون لأى شئ إن أنتم إلا خرق بالية لا تصلح إلا لمسح الأحذية كما عشتم طول عمركم أمضيتم عمركم كله عبيدا تبحثون عن سيد أجنبى يسوطكم وتروجون لأفكاره تعاليمه غافلين عن حقيقة أنكم أبناء أعظم أفكار وتعاليم عرفتها البشرية على امتداد التاريخ أمضيتم عمركم تكدحون لتمتلئ كروش اللصوص تعرون أجسادكم للجلاد تقدسونه تلثمون بالقبلات حذاءه الثقيل الجاثم فوق صدروكم فلا طوبى لكم !!»

طرق الباب فقلت : أدخل. فدخل سميح ابن أخى الأصغر منى

مباشرة، وهو طالب السنة الأولى بكلية آداب طنطا ويسافر كل يوم. حياناً برفع ذراعه فى الهواء نحو رأسه، وضع حقيبة كراريسه على الكنبة وجلس بجوارها :

– « البلد مقلوبة بره !! »

– « خيو ! إستر يارب !!»

هكذا نطقنا فى نفس واحد أنا وجعفر . فقال سميح فى كثير من الدهشة :

– « جئت أسألكم !! على كل حال سأجئ لكم بالخبر حالا ! سأعرف كل شئ !»

صحت فيه وقد توقفت عن الأكل خجلا من كونه صائما أما أنا وجعفر فمفطرين :

– « شفت إيه ياسميح ؟!»

– « عربة إسعاف تقف قدام المستشفى ! الناس ملمومين ! من يقول أن الدكتور عبد العال انتحر ! من يقول جاءته غيبوبة بسيطة ! من يقول جلطة فى المخ ذبحه صدرية ! صدمة عصبية ! الممرضة السستر تقول إنه كان يخرف تخريفا عظيما ويقول إنه يشاهد عزرائيل وجها لوجه !! عربة الإسعاف مشت به ! فى البلد لقيت سيارات البوكس فورد الحكومية تجرى ناحية نقطة البوليس ! وقابلت العمدة وهو يهرول مصفقاً كفاً على كف يريد

ان يشق الهدوم يقول يادى المصيبة يادى الحراب ! وشيخ البلد يجرى ! وشيخ الغفر ! ومن ورائه الغفر ! البلد فيها حاجة غير طبيعية !! سأجئ بالخبر !!

حمل حقيبته ومضى: لكنه ماكاد يختفى حتى ارتفع الصوات؛ صارت أصداؤه تتردد فى كل مكان؛ نساء البلدة كلهن يصوتن فى مندبة جماعية. إنتفضنا واقفين ؛ يكاد كل منا يتعثر فى جلبابه. من شدة السرعة واللهوجة لبس كل منا فردة من شبشب الأخر إندفعنا خارجين إلى الخلاء.

٣- الفجيعه

يمتلئ الخلاء فجأة بمئات من البشر من رجال ونساء وبنات وصبيان وأطفال. العجيب أنهم لا يمضون فى اتجاه واحد، بل يبدو - لفرط كثرتهم واختلاف وجهاتهم - كأنهم يتحركون فى مطارحهم دون أن يتقدموا هنا أوهاهنا - فبقينا واقفين على ناصية الحارة لا ندرى فى أى اتجاه نسير، ولا ماهى الحكاية بالضبط. كغريبين وجدا نفسيهما فجأة فى مولد كبير حافل كمولد البدوى أو الدسوقى؛ إلا أن الطبول والشخاليل والنايات استبدلت كلها بصوات قادم من كل اتجاه، ولغط ، وثرثرة غامضة؛ كل مجموعة تتكلم مع بعضها فيما هى ماضية؛ وثمة من يكلم نفسه فيما هو يهرول؛ حتى الصامتون كانوا يتكلمون بحركات من أيديهم ووجوههم وعيونهم الذاهلة ..

الشئ الوحيد الواضح هو الذهول المطلق فى كل العيون؛ كأننا فى يوم القيامة حيث لا ينشغل كل فرد إلا بنفسه وإن كثر الزحام . على أننا شرعنا فى التحرك - تلقائيا - نحو دار

صديقنا عدلى. وكان الطريق إليها هو نفسه الطريق إلى نقطة البوليس فالمدرسة العتيقة فدوار العمدة فالمجلس القروى فمركز الشباب الذى كان عدلى يرأس مجلس إدارته إذ إنه هو الذى سعى لإنشائه وجمع التبرعات لإقامة بنيانه وتجهيز ملاعبه..

ثمة جرن كبير يفصل بين المدرسة ونقطة الشرطة. على هذا الجرن يطل مدخل حارة الزغالوة التى يقع فى نهايتها بيت عدلى. هى حارة متعرجة ضيقة تبدو لنظرة العابر فى الشارع العمومى أنها مجرد شق متسع. والمار فيها لا يفقد الشعور بأنه يخترق قلب دار كبيرة تم تقسيمها إلى دور صغيرة ملتحمة فى بعضها فى غير نسق ؛ فسكان هذه الحارة هم جميعا من أبناء عائلة واحدة تفتتت أوصالها فاختلفت فيها الأسماء والألقاب كما تمزقت العلاقات. وكان عدلى يفسر لنا هذه الظاهرة بأن تفتت العائلة الكبيرة يرتبط فى مصر دائما بتقسيم الأرض الزراعية، الذى يستتبعه تقسيم للدار الكبيرة؛ فسرعان ماتتجزأ علاقة الرحم وينتشر الفقر بين الأجيال الجديدة. مع ذلك فإن ثورة يوليو العبيطة - يقول - لم تعتبر بدروس التاريخ ولا بالوضع القائم؛ فقامت هى الأخرى بتفتيت ملكية الأرض الزراعية بتوزيعها على أفراد؛ والأرض إن تجزأت ينهد حيلها يقل خيرها. على أن الأخطر من هذا كله - فى رأيه - أن الفلاح المصرى فى هذا العصر قد أصيب بأخطر مرض فى حياته؛ فلأول مرة فى

التاريخ تهون الأرض على الفلاح المصرى فيفرط فيها بسهولة إما بالبيع أو بالتجريف كأنما قد انتهى عصر الفلاحة : مصر ياإخوانى مقبلة على الخراب الأعظم لأنها الآن تخلع شخصيتها الحقيقية لتلبس هذه الخرق المخلوعة عن جسد الغرب المريض تنقل إلينا جراثيم كل أمراضه هذه الجراثيم أرغمت مصر على أن تكون بلدا صناعيا مرموقاً ؛ لا بأس ولكن لماذا لا تبقى فى نفس الوقت بلدا زراعيا خصيبا كما هى طول التاريخ ؟! الكارثه أن الصناعة التى فرضها علينا نظام السادات المتهرئ لا تدخل مطلقا فى باب الصناعة بقدر ماتدخل فى نطاق المشاريع الإستثمارية : كل رأسمالى لص هرب دماء الشعب المصرى إلى الخارج فى زمن مضى جاء يستأنف السلب والنهب باسم الإستثمار؛ يشجع المصريين على الإستهلاك فى رفاهية لا أساس لها من الواقع؛ رحم الله فؤاد حداد أعظم شعراء عصره؛ لقد عبر عن هذه « الوكسة» التى نحن فيها الآن أجمل وأبدع تعبير :

نقلد الحجل رجل برجل نتزغزغ
وانط ع المهل لا حسن عظمى يتدغدغ
ودى برضه بالمثل خايفه الحوصلة تتمغمغ
إزاى حنعمل اكابر قبل مانلغلغ
بنقلد النغنغه من غير مانتنغنغ
فالحين نبغبغ !

ياليلى ياعينى ونغنى بالموال

صوت عدلى وهو يلقى قصيدة (كتاكيت الفن) يهدر الآن فى قلبى ؛ كان مروعا ، بديعا، يمتلئ بالتشخيص والتجسيد والتعبير رغم أنه لم يكن شاعرا. جعفر نفسه كان يشعر بالسعادة حين يتطوع عدلى بإلقاء شعره علينا ممسكا بتلك الكراسة العتيدة التى يكتب فيها جعفر مسوداته النظيفة المنسقة. ولأننا لم نكن نفهم شعر جعفر على النحو المرجو؛ فإن جعفر كان يصفق بمنتهى السعادة معتبراً أن نجاح عدلى فى إلقاء شعره أكبر دليل على أن شعره فيه مايلمس وجدان كل قارئ مهما ضعف مستواه الثقافى أو اشتد ، فيه قوة تؤدى إلى التواصل و الا ماانفعل عدلى هكذا وهو يلقيه : ولو كانت لغة هذا الشعر حديثه لقلنا إن المفردات تحمل شحناتها الإنفعالية التلقائية ؛ أما والمفردات هنا عتيقة تكاد تكون مهجورة وغائبة عن القاموس المتداول ؛ فإن فى هذا الشعر سر كبير سوف تكتشفونه فيما بعد حينما يصفو وجدانكم من الشوائب المألوفة المعتادة. على هذا القول الحميم يعلق عدلى بقوله إن أجمل مافى شعر جعفر أنه يذكرنا بهذه المفردات يربطنا بحياة البادية التى تفجرت فيها ثقافة غنية بهرت العالم كله . على أننا كنا نحب شعر جعفر حتى مع عجزنا عن فك جميع رموزه ..

صوت عدلى هو أوضح الأصوات فى كل هذا الضجيج المكتوم

الذى نجوس خلاله الآن . ويبدو أن شعورنا بعظم المصيبة التى تتوضح خيوطها الآن قد أصابنا بالزهد فى معرفة كنه مايحدث؛ كأننا نؤجل الصدام بالمصيبة حتى تبترد أعصابنا بالقدر الكافى لاحتمال أى خبر فاجع. كان صوت عدلى يهدر فى صدرى بالأشعار فيما نشرف على مدخل الحارة الحميمة . كنت أمنى النفس بجلسة دافئة فى مندرة عدلى المطلة على هديم محاط بعدة دور صغيرة. المندرة فى ناظرى : سرير صنعه بنفسه على شكل سرير توت عنخ أمون؛ تحيط به مكتبة من الجهات الأربع فيما عدا فتحة يدخل منها إلى الفراش فكأنه دخل فى تابوت سحرى. كل واحد فينا كان يتوق إلى الدخول فيه بمجرد دخولنا المندرة؛ ليتمدد وسط عدة صفوف من الكتب كلها مجلدة فيما عدا الحديث منها؛ كتب محمد حسنين هيكل الحديثة الكبيرة بارزة، إلى جوارها كتب عن الفولكلور، وموسوعة مصر القديمة لسليم حسن، ومجموعة لسان العرب، وطبعة فاخرة من كتاب فى ظلال القرآن لسيد قطب، تاريخ الجبرتى، تاريخ ابن إياس طبعة هيئة الكتاب، أجزاء من كتاب الأغانى للأصفهانى ، أجزاء من الخطط التوفيقية وخطط المقريزى طبعة كتاب الشعب، أجزاء من الفتوحات المكيه لابن عربى، ديوان ابن الفارض مع ديوان المتنبى تحقيق البرقوقى مع رسالة الغفران واللزوميات للمعرى، كل روايات نجيب محفوظ، كتب يحى حقى ويوسف

إدريس وتشيكوف وديستوفسكى ، دواوين أدونيس وعبد الصبور والبياتي وفؤاد حداد وصلاح جاهين ، مسرحيات شوقى عبد الرحمن الشرقاوى والشوقيات، عبقريات العقاد، رف كامل لطه حسين، ركن صغير للمازنى، كتاب الأب عيروط عن الفلاحين وكتاب الأب جومييه عن ثلاثية نجيب محفوظ ، مجلدات الف ليله وليله وبعض السير الشعبية ، تمثال للكاتب المصرى الجالس القرفصاء مصنوع من البرونز، أبا جورة تشبه زهرة اللوتس مثبته فى ركن بين رفين على شماله. تلك هى مكتبة عدلى وكم هى حميمة؛ وهى كل عالمه ومكان صحوه ونومه. بجوارها منصة مائلة السطح تعلوها أباجورة ذات قضبان متداخلة؛ من تلك المناضد التى تتواجد فى مكاتب المهندسين. امامها مقعد دائرى مرتفع. هناك عدة كنبات منجدات بمساند منفصلة؛ وبضع مقاعد من الخيزران. فى الأرض سجادة عتيقة. هناك أيضا ثلاجة سبعة قدم نظيفة قائمة فوق طبلية عالية من الخشب؛ ودولاب للملابس مشابه فى الطراز للسرير قام بصنعة كذلك إذ إن النجارة كانت هوايته يشترى لها العدد الحديثة والمناشير الدقيقة التى تدار بالكهرباء. الغرفة منسقة كمعارض المحلات الكبيرة؛ حتى دراجته تأخذ مكانها فى ركن بعيد بعد أن يتم تنظيفها على الباب . لهذا فعدلى لا يشعر بالفراغ أبداً؛ سيما وأن غرفته هذه الجذابة تستقبل

طول النهار والليل زواراً من كل لون؛ من ضابط النقطة إلى موظفى المجلس القروى والمدرسين الغرباء، وأعداد كبير من الطلاب وعشاق القراءة والفتيات المفتونات ببريق الثقافة . ولو قيل إن فتاة منهن دخلت حجرة رجل ولو على سبيل الخطأ فمصيرها الشنق لا محالة . أما إن قيل إنها مكثت طول الليل فى غرفة عدلى فإن ذلك يضفى عليها قيمة وأهمية. وربما كان هو الوحيد فى بلدتنا يتطوع لخدمته أسراب من الحوريات وهن يشعرن بفخر كبير. منهن من تقرأ له على كرسى مجاور لرأسه ؛ منهن من ترتب له نظام الأشياء ؛ ومن تتخصص فى صنع القهوة التركية التى يفضلها ؛ ومن تغسل له ثيابه الداخلية ؛ ومن تشرف على كل مايختص بملبسه. اما مشاويره الخاصة التى تقتضى الذهاب إلى البندر فهناك عشرات ممن يسافرون كل يوم على استعداد للقيام بها نيابة عنه، يشترون له الجرائد والمجلات الثقافية والكتب.

المرجح أن ألتقى فى غرفة عدلى هذه كثيرين من زملاء الدراسة ممن سافروا وعادوا فى زيارات خاطفه. وعلى الرغم من أننى أعيش فى العاصمة التى هى مصنع الأخبار والأنباء الطازجة فإننى فى غرفة عدلى هذه أشعر بأننى كنت أعيش فى مقبرة ؛ إذ يدهشنى أن أسمع فيها أحدث الأخبار وآخر الأنباء وآخر النكت؛ والتفاصيل الحقيقية لما دار فى المعارك الأدبية والسياسية ؛ بل إن

تفاصيل مادار فى المعركة اليدوية بين عبد المعطى حجازى وظبيه خميس الخليجية - التى دارت على مبعدة خطوات من دائرة تحركى فى العاصمة - سمعت تفاصيلها الحقيقية من غرفة عدلى؛ حتى أنباء الخلافات الشخصية التى وقعت بين الشيخ إمام وأحمد فؤاد نجم فى بلاد الفرنجة عرفتها فى هذه الغرفة بإفاضة. وأنت فى هذه الغرفة لا تندهش كيف وصلت كل هذه الكمية من شرائط الكاسيت للشيخ إمام وفيروز وزياد الرحبانى وتسجيلات للشاعر العراقى مظفر النواب وتسجيلات فكاهية للممثل الأسمر أحمد زكى يقلد فيها أنور السادات بخطب حلمنتيشية تخلط الجد بالهزل.

كنت مفعما بعطر هذا العالم الغنى حينما توقفنا على باب الحودة الأخيرة وقد شعرنا بانقباض من منظر الحزن المخيم؛ فجميع من وقع بصرنا عليهن من النساء كن يلبسن الأسود يولولن رائحات عاديات. رحنا نخترق الزحام بصعوبة شديدة خانقة حتى دخلنا المندرة بطلوع الروح.كانت قد تحولت إلى عجينة من الأجساد البشرية لا فراغ فيها لإبرة؛ يكاد صوت الصراخ والعويل يزلزل الجدران. إختفى السرير تماما، حجبه رهط من الفتيات رحن يلطمن الخدود ويصرخن..

- « أ .. ا .. ه .. قلبى ! .. حوشونى .. حاموت ! »

هكذا صاح جعفر وهو يتهاوى فوق الأجساد كريشة فى مهب ريح عاتية . تلقفته الأذرع والأيدى فيما هو يحاول الطيران إلى لسرير؛ فما أن وصل إليه حتى انحشر فى فتحته منخرطا فى بكاء حار . كنت خلفه مباشرة وقد شعرت أن سكينا يمر بين لحمى وجلدى ينغرز فى قلبى فلا أقوى على الصراخ، لكن سيلا من الدموع الحارقة كان ينهمر بغزارة فينفضنى نفضا. من خلال الدمع كان وجه جعفر قد صار كتلة شائهة كعجينة من اللحم مصرتها قبضة الجزار ..

لا أدرى كم مر من الوقت، ولا أذكر مادار حولى ، لكنى فوجئت بالغرفة وقد خلت من الزحام فلم يبق سوى ضع رجال راحوا يقلبون جثة عدلى على ضرابية بجوارها طست كبير؛ وأنا ممسك بالكوز لأغترف المياه الدافئة من حلة كبيرة أصب فوق الجثمان الذى راحت ليفة المغسل تزحف فوقه برفق مخلفة غابات من فقاقيع الصابون المعطر؛ فيما تكور جعفر على نفسه فوق كنبة بعيدة واندمج فى بكاء متقطع الأنفاس؛ بحذائه بعض شبان يهدءون من روعه وهم فى حاجة لمن يهدئ روعهم. على الكنبة راح الشيخ بسيونى يخيط اجزاء الكفن. وحينما جففنا الجثمان بالبشكير وحملناه إلى الكنبة وأسلمناه للباس الكفن بدا وجهه سمحا بشوشا كالمستغرق فى سبات عميق..

في تلك اللحظة انتبهنا على وجود أفندى غريب سرعان مافهمنا انه الطبيب الشرعى جاء يكشف عن سبب الموت. كانت آثار البكاء واضحة على وجهه بصورة مؤلمة لأنه كان من زملاء المرحوم فى جبهة القتال فى العام الثالث والسبعين بيد مرتعشة وقع شهادة التصريح بالدفن . ثم اتجه إلى الكنبة التى يجلس عليها جعفر : فتهاوى عليها ثم انخرط فى البكاء بصوت عالى.

٤- الجناز

السرادق كان حافلا يشغى بالبشر أنوار عشرات اللمبات الكهربية تؤجل مقدم الليل الذى بدا كأنه يتلكأ ويتعثر فى شوارع البلدة بين أكوام السباخ وجذوع الأشجار المقطوعة صوت الشيخ محمد القزاز يلعلع بأقصى ماعنده من فنون الطرب؛ ليثبت لأهل البلدة أنه أميز بكثير جداً من هذا المقرئ الشهير الذى استوردوه من بلدة أخرى لقراءة ربعين أو ثلاثة نظير مبلغ جسيم قد لا يناله القزاز طول عمره.

على باب السرادق، ولمسافة كبيرة، وقف رهط من الشبان فى استقبال المعزين. والعناية بركائب الأغراب. وكان مبنى نقطة الشرطة فى المواجهة تماما. كانت هى الأخرى فى حال غير طبيعية ؛ يقف على بابها رهط كبير من المخبرين والخفراء والعسكر السوارى راكبى الأحصنة؛ والأفندية ؛ وعربات البوكس فورد الزرقاء الكئيبة المنظر؛ وأرهاط متناثرة من الفلاحين والطلاب والأطفال.

فجأة، بدأت الحركة تدب فى انتفاضات مبهمة : يتحرك الواقفون بغير سبب ظاهر ؛ السوارى يشدون الألجمة. راحت الأحصنة تتبختر موسعة رقعة الفراغ امام مبنى النقطة. أعداد المتزاحمين مع ذلك تتزايد فى صخب جعل الخفراء والمخبرين يعملون العصى؛ يضربون فى قسوة وتوتر. ترتفع صرخات التألم يعقبها جعير يهدد بقطع الرقاب. ثم اخذ الصياح واللغط يرتفع أوارهما شيئا فشيئا بصورة طاغية حمقاء هوجاء مثيرة للغيظ والغضب لعدم وضوح أى شئ . صارت عواميد السرادق تهتز من زلزلة أصابت الأرض كأن تنيناً خرافياً يدب فوقها بخطو ثقيل متشعب الأقدام.

بدأ التململ يدب بين الجالسين فى السرادق. راحوا يغمغمون فى احتجاج غاضب. لم يعد فى الأفق سوى صوت اللغط المبهم الغامض الرهيب؛ وصوت الشيخ القزاز يزعق فى الميكرفون بأقصى مافى صدره من قوة فلا يسمعه أحد. إضطر إلى إنهاء القراءة : صدق الله العظيم .

ماكاد المعزون يسمعونها حتى انتفضوا جميعاً واقفين يتلفتون حولهم يلغطون بدورهم يتساءلون : فيه إيه ؟! فيه إيه ؟! تسلسل الجميع خارجين إلى الخلاء الذى لم يعد خلاءاً بل ملاءاً بأعداد وانواع لا حصر لها من البشر. إحدى عربات البوكس فورد كانت مقبلة فى اتجاه نقطة الشرطة بخطو بطئ؛

خلفها مباشرة ثلاث من عساكر السوارى فوق الأحصنة مرفوعى الرءوس فى نفخة تركية متغطرسة. خلفهم قافلة من عسكر الهجانة سود الوجوه يركبون الجمال. خلفهم بغلة العرش التى قدر لنا شرف رؤيتها فجر أول أمس؛ فوقها يتدلى الخرج وفوقه رأس القتيل مشكوكة فى طرف عصا قصيرة خلف البغلة - مربوط فى ذيلها بحبل متين - عبد الرءوف العصرة فى صورة منكرة؛ ممزق الثياب منتفخ الوجه مما لحقه من ضرب وبهدلة ؛ مخفورا بعدد من العسكر والخفراء لا يكفون عن ضرب الناس الذين تجمعوا خلف الموكب فى صورة مذهلة ، كأن بلدتنا قد طرحت ملايين البشر. ورغم قسوة الضرب بالعصى والكرابيج والهراوات فإن الزحام لا يتفكك ولا يتراجع بل يزداد كثافة كلما فات على بقعة من الأرض. حتى إذا ماوصلوا إلى نقطة الشرطة كادوا يدمرون سرادق العزاء لولا أن تصدى لهم رجال أشداء. كادت تحدث مذبحة ، فالعسكر يضربون الجميع بما فيهم المعزين، وأهل الميت يضربون فى العسكر. ذاب الجميع فى الجميع. تمخضت قريحة المأمور عن فكرة عبقرية فى الشر والقسوة ؛ سرعان مانفذها العسكر السوارى، إذ حركوا المهاميز فانطلقت الجياد تجرى بأقصى سرعتها موسعة المكان؛ فليقع من يقع ؛ تدوس فوقهم الجياد؛ فيسحب الآخرون جثثهم بسرعة قبل عودة الخيول فى ردتها..

إتسعت الدائرة جداً . نزل المحققون من السيارة . جئ لهم بمقاعد خيزرانية وضعت أمام باب النقطة. سيق إليهم عبد الرءوف العصرة ببغلته . بدأ التحقيق على الملأ؛ فإذا بتفاصيل الكارثة تتضح شيئاً فشيئا فتعقد الألسنة تجمد الشعور على الوجوه :

البغلة فى حقيقة أمرها هى بغلة الحاج على داوود ؛ ورأس القتيل هى رأسه شخصيا. وكان الحاج على داوود قد نفذ واحدة من مغامراته الجريئة فى المضاربة بأموال المودعين؛ إذ علم أن أسعار الذهب فى صعود؛ فاشترى بكل مدخراته ذهباً حوله إلى سبائك انتوى تخزينها إلى حين فى داره بالبلد. ودرءاً للشبهات رأى أن ينقل هذه السبائك فى خرج فوق بغلته ؛ حتى إذا رآه أبناء الليل ظنوه بائعا سريحا على قد حاله فلا يطمعون فيه؛ سيما وأنه قد دفن السباءك فى لفائف بين أنواع من بضائع كالعطارة والخردوات ؛ لكنه لشدة غبائه وضيق أفقه نسى أن اللصوص يترصدونه فى كل مكان؛ ونسى أن هذه الليلة بالذات لم تكن مناسبة لمثل هذا المشوار الخطير؛ فدون أن يدرى شارك ليلة القدر- وشاركته ليلة القدر - فى رسم خطوط مصيره ومصير مودعيه المشئوم !!..

نظرت حوالى باحثا عن جعفر؛ فإذا هو بجوارى قد تحول إلى كتلة بلهاء فاغرة الفم. وكان عبد الرءوف العصرة ينتحب مردداً

انه وجد البغلة هكذا، وانه متأكد أن أحداً من بين هذا الجمهور الكبير لابد قد شاهده لحظة أن قابلها فى الطريق فاقتادوها. وكان أثناء كلامه المنتحب قد راح يتمعن فى الوجوه الملتفه حوله؛ وإذا هو - كالغريق يتشبث بعود من القش - قد انتفض بشئ كالفرح فيما يشير بذراعه تجاهنا . أخيرا صاح بأعلى صوته كأن طاقة من السماء قد انفتحت أمامه :

- اهه ياسعادة البيه !!

فتقدم واحد من الأفندية فى اتجاهنا. وضع يده على كتف أحد الشبان : هذا ؟ لا !.. هذا ؟ لا !.. إذن فهذا ؟ لا !!

فأمسك بكتفى فى غيظ : هذا ؟ لا !! فوضع يده على كتف جعفر ؛ فصاح عبد الرءوف بأعلى صوت :

- « نعم هذا ! هو ! هو !»

فإذا بيد الأفندى تدفع جعفر فى قسوة وغلظة حتى كاد ينكفى على وجهه. وصوت الأفندى الجالس على المقعد فى الوسط يصيح فيه :

- « تعال ياولد !»

أمسكه الأفندى من خناقه ؛ سحبه ماضيا به نحو باب النقطة؛ ليتقدم عسكرى غليظ لدى هزة رأس من الأفندى الجالس فى الوسط؛ فيتناول ذراعى جعفر ؛ يدس الكلبشات الحديدية فى يديه؛ ثم يدفعه بغلظة ليوقفه خلف البغلة مباشرة بجوار عبد

الرءوف . ثم بدا كأن صورة المشهد قد تجمدت عند هذا الحد؛ وطال تجميدها حتى بدأ كأن الزمن قد توقف نهائيا عن الحركة فلم يعد فى الأفق ثمة نسمة ؛ وليس فى الصدور ثمة نفس من الأنفاس .،

تمت